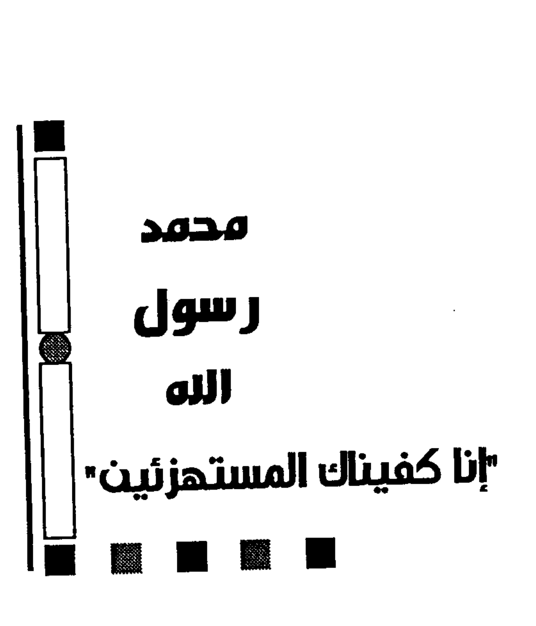

محمد
رسول
الله
"إنا كفيناك المستهزئين"

محمد رسول الله
"إنا كفيناك المستهزئين"

تأليف:

د. احمد عبد الرحيم السايح

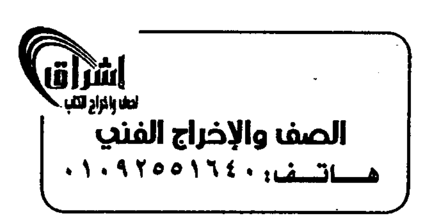
المستشار/ توفيق علي وهبة

الأستاذ/ عبد اللطيف على وهبة

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

عدد الصفحات:



الصف والإخراج الفني

هاتف: ٠١٠٩٢٥٥١٦٤٠

محمد رسول الله

"إنا كفيناك المستهزئين"

إعداد وتقديم

الأستاذ الدكتور: أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار: توفيق علي وهبة

الأستاذ: عبد اللطيف علي وهبة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾

[سورة الفتح آية٢٩]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد،،،،

فقد قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١)

لقد أرسل الله رسوله محمداً ﷺ رحمة للناس، ليأخذ بأيديهم إلى الهدى وما يهتدي إلا أولئك المتهيئون المستعدون.

إن المنهج الذي جاء مع سيدنا محمد ﷺ منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة.

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي.

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ١٠٧ – ١١٢.

جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة.

ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة، وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة.

وكفل للعقل البشري حرية العمل. بكفالة حقه في التفكير، وبكفالة مجتمع يسمح لها العقل بالتفكير.

ثم ترك الحرية في دائرة الأصول المنهجية التي وضعها لحياة البشر، حتى تنمو وترقى وتصل إلى الكمال المقدر لحياة الناس في هذه الأرض.

ولقد دلت تجارب البشرية على أن الإنسانية في أشد الحاجة إلى القيم الإسلامية التي جاءت في هذا المنهاج الذي يقود البشرية نحو الاطمئنان والاستقرار.

وقيمة هذا المنهج أنه متوازن متناسق، لا يعذب الجسد ليسمو بالروح، ولا يهمل الروح ليستمتع الجسد.

وكافة التكاليف التي يكلف بها الإنسان ملحوظ فيها أنها في حدود طاقته، ولمصلحته.

ولقد كانت رسالة سيدنا محمد ﷺ رحمة للبشرية كلها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1]

---

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قيل يا رسول الله، أدع على المشركين.

قال: إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة ...

وقال عليه الصلاة والسلام: إنما أنا رحمة مهداة.

ومما هو واضح:

أولاً: أن الهدى الذي جاء به – صلوات الله وسلامه عليه- هو خير ممدود للناس جميعاً.

وهو رحمة غير محجوزة عن أحد، بل إنها مبسوطة لكل إنسان، أياً كان لونه وجنسه.

وفي هذا يقول الله تعالى لنبيه الكريم في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[1].

فهو صلوات الله وسلامه عليه رحمة مهداة، يطرق بها باب كل إنسان، من غير أن يطلب لذلك أجراً.

وليس على النبي بعد ذلك أن يرغم المتأبِّين عليه أن يقبلوا ما يقدمه هدية لهم.

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٨.

ثانياً: إن الذين آمنوا بهذا النبي والذين يؤمنون به في كل جيل من أجيال الناس، وفي كل أمة من الأمم.

هم رحمة في هذه الدنيا على أهلها جميعاً، إذ كانوا بما معهم من إيمان عناصر خير وخمائر رحمة، ومصابيح هدى، وبهم تنكسر ضراوة الشر، وتخف وطأة الظلم.

ثالثاً: هذا الكتاب الذي أنزله الخالق على محمد ﷺ لإصلاح حال الخلق، هو رحمة قائمة في الناس جميعاً، وميراث من النور والهدى. يستهدي به الناس، ويصيبون منه ما يسع جهدهم وما تطول أيديهم من خير.

وبعد إبراز معنى الرحمة وتقريره. يؤمر الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – بأن يواجه المكذبين المستهزئين بخلاصة رسالته التي تنبع منها الرحمة للعالمين: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (١)

هذه هي الرحمة التي يؤذن بها النبي في الناس، ويقدمها هدية لهم ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (٢)

هذا هو مفتاح الرحمة، وذلك هو مفتاح الهدى.

فمن أمسك بقلبه هذا المفتاح، ثم أداره، فقد وضع يده على كنوز الخير كلها.

---

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠٨.

(٢) سورة فصلت: آية ٦.

وفي قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١) هو تحريض للناس جميعاً على الاستجابة لهذه الدعوة الكريمة التي خف محملها وغلا ثمنها.

إنها كلمة: لا إله إلا الله، فما أخفها على اللسان، وما أطيب بردها على القلب، وما أقوم سبيلها إلى العقل.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ (٢).

أي: كشفت لكم ما عندي، فأنا وأنتم على سواء.

والمقصود، كما يذكر علماء التفسير:- هو أن يعلنهم بأنه قد نفض يده منهم وتركهم عالمين بمصيرهم، وأنذرهم عاقبة أمرهم. فلم يعد لهم بعد ذلك عذر.

ويقول ابن كثير في تفسيره: أي أني بريء منكم كما أنكم براء مني. كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ (٣).

فهذا هو موقف النبي ودعوته ممن لم يستمعوا له، ويستجيبوا لما يدعوهم إليه ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ (٤).

أي أعلمتكم بما أرسلت به إليكم. والأمر بيني وبينكم الآن.

---

(١) سورة هود: آية ١٤.

(٢) سورة الأنبياء آية: ١٠٩

(٣) سورة يونس آية: ٤١.

(٤) سورة الأنبياء آية: ١٠٩.

﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ (١) .

لست أدري متى يحل بكم ما توعدون، فهو غيب من غيب الله، لا يعلمه إلا الله، وهو وحده يعلم متى يأخذكم بعذابه في الدنيا أو في الآخرة سواء.

وهو يعلم سركم وجهركم، فما يخفي عليه منكم خفية ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ (٢) .

فأمركم كله مكشوف له.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾ (٣) .

أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين.

كما يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (٤) .

وقد جاء الخبر مصحوباً بلعل التي تفيد الرجاء، لأن ذلك الخبر ليس على سبيل القطع بالنسبة للمخاطبين جميعاً، فإن فيهم من يثوب إلى رشده، ويستجيب للدعوة، ويدخل في دين الله.

وهنا يتوجه الرسول ﷺ إلى ربه. وقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وحذرهم بغتة البلاء. يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ١٠٩.

(٢) سورة الأنبياء آية: ١١٠.

(٣) سورة الأنبياء آية: ١١١.

(٤) سورة الأنبياء آية: ٣٥.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١) .

فتكفل الله سبحانه وتعالى بالانتقام لنبيه محمد ﷺ، وكفاه ممن استهزأ به، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ (٢).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي في تفسيره لهذه الآية: "وهذا وعد من الله لرسوله ﷺ، أن لا يضره المستهزئون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة، وقد فعل الله تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ، إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة".

روى أنس رضي الله عنه قال: "كان رجل نصرانيًا فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم، نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له، فأغمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم، فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه". رواه البخاري.

يقول ابن تيمية: "وهذا أمر خارج عن العادة، يدل كل أحد على أن هذه عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذبًا، إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا، وأن هذا الجرم أعظم من مجرد الإرتداد، إذ كان عامة المرتدين لا يصيبهم مثل هذا، وأن

---

(١) سورة الأنبياء آية: ١١٢.

(٢) سورة الحجر آية: ٩٥.

الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه وسبه، ومُظهر لدينه، وكذب الكاذب إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد".

ولقد صدق وعد الله تعالى لرسوله في قوله: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾، فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول ﷺ يشاهد هلاكهم.

والاستهزاء بالله أو آياته أو رسوله، كفر موجب للخلود في العذاب، كما أن الاستهزاء بأي أديان أخرى أو رسل من رسل الله يحرمها الإسلام. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المحققون

أ.د أحمد عبد الرحيم السايح **المستشار توفيق علي وهبة**

أ/ عبد اللطيف علي وهبة



الفصل الأول

اختيار الرسول لرسالة الإسلام



الاختيار:

اختار الله – سبحانه وتعالى – لرسالة الإسلام، من تأهل ليكون خير من يتلقى الوحي، ويبلغه للناس، وتلك سنة الله، مع رسالاته ورسله.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [(١)].

فالله يختار رسله من الملائكة إلى الأنبياء، ويختار رسله من البشر إلى الناس، وذلك عن علم وخبرة وقدرة [(٢)].

ويذكر الطبري: أن الله يختار من الملائكة رسلاً كجبريل، وميكائيل، اللذين كان يرسلهما، إلى أنبيائه، ومن شاء من عباده. ومن الناس كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده، من بني آدم [(٣)].

يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [(٤)].

أي: هؤلاء الذين ذكرنا: من الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرة، الأخيار الذين اخترناهم لطاعتنا، ورسالتنا إلى خلقنا [(٥)].

---

(١) سورة الحج آية: ٧٥.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص ٢٥١. ط: كتاب الشعب بالقاهرة، سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢٤٤٤، ط دار الشروق، سنة ١٤٠٢هـ.

(٣) الطبري، جامع البيان في تفسير آيات القرآن، ج ١٧ ص ١٤٢، ط: الأميرية ببولاق.

(٤) سورة ص آية : ٤٧.

(٥) الطبري: جامع البيان، ج ٢٣، ص ١١.

واصطفاء الله للرسل – عليهم السلام – يتم على مـرحلتين: مرحلـة تهيئـة وتأهيل، ومرحلة تكليف وإبلاغ [١] .

وكتب السيرة والسنة، تروي كثيراً من الآثـار، تشـير إلى تشـريف الله تعـالى باصطفاء محمد ﷺ ، وكونه أول الأنبياء خلقاً [٢] .

فقد روي ابن إسحاق عن قتادة مرسلاً، قال: قال رسول الله ﷺ :كنت أول الناس في الخلق، وآخرهم في البعث" [٣] .

وقد يكون المراد بالخلق هنا: التقدير دون الإيجاد، فإنه قبل أن ولدتـه أمـه لم يكـن موجـوداً، ولكـن الغايـات والكمـالات سـابقة في التقـدير، لاحقـة في الوجود[٤] .

وجاء عن العرباض بن سارية ﷺ – عن النبي ﷺ قال: "إنـي عنـد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته" [٥] .

ويقول الطيبي: والمعنى: كنت خاتم الأنبياء في الحال الذي آدم مطروح علـى الأرض، حاصل في أثناء تخلقه، لما يفرغ من تصويره وإجراء الروح [٦].

---

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١١٤، ط: دار الكتب اللبناني، بيروت.

(٢) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج ١، ص ٨٩، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد ، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٣٩٢هـ.

(٣) الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ج ٣، ص ٢٨٢، رقـم الحـديث: ٤٨٥٠، ط: الأولى: سـنة ١٤٠٦هـ نشر: دار الكتب العلمية، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١ ، ص ٤١٩، ط البابي الحلـبي بالقاهرة.

(٤) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، جـ ١، ص ٩١.

(٥) رواه الإمام أحمد، في مسنده، ج ٥، ص ١٢٧ – ١٢٨، ج ٥، ص ٣٧٩، ط دار صادر، بيروت.

(٦) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج١، ص ٩٦.

ويقول الحافظ أبو الفرج بن رجب - رحمه الله : "والمقصود من هذا الحديث: أن نبوة النبي ﷺ كانت مذكورة معروفة من قبل أن يخلقه الله تعالى، ويخرجه إلى دار الدنيا حياً، وأن ذلك كان مكتوباً في أم الكتاب، من قبل نفخ الروح في آدم ﷺ" [١].

وفسر أم الكتاب: باللوح المحفوظ في قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [٢].

ولا ريب: أن علم الله قديم، لم يزل عالماً بما يحدثه من خلقه.

ثم إن الله تعالى كتب ذلك في كتاب عنده، قبل أن يخلق السموات والأرض.

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [٣].

ويروي الإمام أحمد عن ميسرة ﷺ قال: قلت يا رسول الله: متى كنت نبياً؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد" [٤].

ويقول الإمام أحمد في رواية منها: وبعضهم يرويه، متى كتبت من الكتابة؟ قال: كتبت نبيناً وآدم بين الروح والجسد.

---

(١) ابن رجب: لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ص ٧٩، ط مكتبة الرياض الحديثة بالرياض، وأنظر: الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ١، ص ٩٧.

(٢) سورة الرعد آية: ٣٩.

(٣) سورة الحديد آية: ٢٢. وانظر: ابن رجب، لطائف المعارف، ص ٧٩ بتصرف.

(٤) رواه أحمد، في المسند. ج ٥، ص ٥٩، ورواه الترمذي في صحيحه، ج ٢، ص ٤٢٥، ط شركة الحلبي بمصر، ط الثانية، سنة ١٣٩٥هـ.

فتحمل هذه الرواية من حديث العرباض السابق على وجوب نبوته ﷺ وثبوتها وظهورها في الخارج.

فإن الكتاب، إنما يستعمل فيما هو واجب.

إما تشريعاً، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [(١)].

أو قدراً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [(٢)].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا يا رسول الله: متى وجبت لك النبوة؟.

قال: "وآدم بين الروح والجسد" [(٣)].

وروى ابن سعد عن الشعبي قال: قال رجل: يا رسول الله: متى استنبئت؟

قال: "وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق" [(٤)].

وسئل أبو جعفر محمد بن علي: كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟

قال: إن الله لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم [(٥)]. كان محمد ﷺ أول من قال: بلى.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٨٣.

(٢) سورة المجادلة آية: ٢١.

(٣) رواه الترمذي، في صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل النبي ﷺ، جـ ٥، ص ٥٨٥، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب التاريخ، باب ذكر مناقبه ﷺ، ج ٢ ، ص ٦٠٩، وقال حديث صحيح ووافقه الذهبي، ورواه أحمد في المسند، ج ٥، ص ٥٩.

(٤) رواه الدارمي في سننه، المقدمة، ص ٣، ط دار الدعوة في استانبول، سنة ١٩٨١م، ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى. ج ١، ص ٩٥.

(٥) قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [سورة الأعراف آية: ١٧٢]

ولذلك صار يتقدم الأنبياء، وهو آخر من بعث [(١)].

ومنذ استودع الخليل إبراهيم قلب الصحراء ولده إسماعيل – عليهما السلام – فإن عناية الله ترعى الذين يحملون أمانة الرسالة الخاتمة على يد النبي محمد ﷺ.

وتترجم فطرة إبراهيم – عليه السلام – هذه المعاني ، في صورة الدعاء، والأماني، يسأل بها ربه.

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [(٢)].

وما كاد يشتد ساعد إسماعيل – عليه السلام – بعد فترة وجيزة، حتى يقف إلى جوار أبيه – يؤكدان معاً هذا الأمل الجاد في خاتم الأنبياء، وفي أمة الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [(٣)].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ

---

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج١، ص ١٠١.

(٢) سورة إبراهيم آية: ٣٧.

(٣) سورة البقرة الآيات: ١٢٧ – ١٢٩.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

فالعناية الإلهية قد هيأت سلسلة طيبة من الآباء الأخيار، والأجداد للنبي ﷺ ليأخذ منها عن طريق الوراثة [2] كثيراً من الخلق والطباع.

ذلك لأن الوراثة عامل مهم في تكوين الشخصية فهي تعمل في أصل النمو، وتدخل من داخل الكائن الحي.

وما جاء في الوراثة، ما رواه البخاري بسنده عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ دخل عليها مسروراً، تبرق أسارير وجهه. فقال: ألم تسمعي ما قال المدلجي لزيد وأسامة – ورأى أقدامهما– فقال: إن بعض هذه الأقدام من بعض" [3].

وحينما قذف هلال بن أمينة زوجته في شريك بن سحماء – وهي حامل – قال: أبصروها فمن جاءت به أبيض، سبطاً مضيء العينين. فهو لهلال بن أمينة، وإن جاءت به أكحل، جعداً حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء.

قال: فأنبئت أنها جاءت به أكحل جعداً، حمش الساقين" [4].

---

(١) سورة التوبة آية: ١٢٨.

(٢) حتى لا يكون هناك مجال للتقول على نسبه ﷺ واثر هذا النسب، وذلك ما ألف الناس من التواصل بين الآباء والأبناء، وأثر الوراثة في الذرية.

(٣) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ: ج٦، ص ٥٦٥، ط: دار المعرفة للطباعة والنشر، ببيروت. ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب العمل بإلحاق القائف الولد، ج١٠، ص ٤١ن ط الثالثة، دار الفكر، بيروت، سنة ١٣٨٩هـ.

(٤) رواه البخاري في مواضع من حديثه مع فتح الباري، منها: كتاب الطلاق. باب قول الإمام اللهم بين، ج٩، ص ٤٦١، ورواه الترمذي في صحيحه ، كتاب التفسير، باب سورة النور، ج٥، ص ٣٣١ ٣٣٢، رقم الحديث، ٣١٧٩، وقال: حسن غريب. ورواه أحمد في مسنده، ج١، ص ٢٣٨ – ٢٣٩، ٣٣٥- ٣٣٦، ٣٥٧، ٣٦٥.

وهذا دليل واضح، يشير إلى توارث الصفات والوراثة تنقل الصفات الجسمية والعقلية.

ويرى علماء النفس: أن الذكاء والطبع يخضعان لقوانين الوراثة [١] .

وإن الدراسات الحديثة، في الوراثة والاستراتيجية، تضع معياراً لقياس السلوك المنتظر للزعماء والقادة، الذين يقودون زمام الأمور في دول العالم الحديث [٢].

وبمقدار ما يتحمله الزعيم من خصائص في الوراثة والأخلاق، بمقدار ما يتوقع له الدارسون من سلوك وممارسات [٣] .

وأصبح من المعروف في معاهد الدراسات الاستراتيجية: أن علم الوراثة، وعلم الأخلاق، من الأصول التي ترتكز عليها الدراسات الاستراتيجية المتعلقة بالتنبؤ لممارسات الزعماء والذين يتولون جديداً مقاليد الأمور في بلد ما [٤].

والنبي محمد ﷺ وإن كان باصطفاء الله له رسولاً خاتماً، لهو أعلى وأكرم من أن يقاس بمقاييس علماء الاستراتيجية الحديثة.

غير أنه قد يكون من المقبول علمياً: أن ننشر على الناس خصائص نسبه، الذي اختصه الله به، ليكون ذلك نبراساً في تفهم القيم الحضارية التي أرساها

---

(١) د. عبد العزيز القوصي، أسس الصحة النفسية، ص ٣٧، ط الخامسة القاهرة.

(٢) د. رؤوف شلبي: بيت الرسول وقيمه الحضارية، ص ٣٦٠، من كتاب السيرة والسنة النبوية، صفر سنة ١٤٠٦هـ، ط الأزهر.

(٣) راجع المصدر السابق.

(٤) راجع المصدر السابق.

رسول الله ﷺ في مجالات كثيرة من مجالات الحياة، لأنه أسوة وقدوة [١] .

فيكون نسبه ﷺ وما قرره من قواعد القيم الحضارية المنزلة، الأصل الذي ترتكز عليه الحياة الإسلامية في دنيا المسلمين قاطبة.

ويختص نسب الرسول ﷺ بعدة خصائص في مقدمتها:

١ - البقاء على جوار البيت الحرام،و التمسك بملة إبراهيم - عليه السلام.

٢- الفروسية.

٣- شرف النفس.

٤- حفظ الأسرار.

٥- العناية والاهتمام بمكارم الأخلاق.

٦- الرحمة بالضعفاء [٢] .

وبيان ذلك:

١ - البقاء إلى جوار البيت الحرام:

إن عدنان هو: الجد الذي يثبت إليه نسب الرسول ﷺ علمياً وتاريخياً [٣] .

لقد ولد لعدنان ولدان:

- علك بن عدنان - ومعد بن عدنان.

أما علك: فقد نزح إلى اليمن، وتزوج من الأشعريين [١] .

---

(١) راجع المصدر السابق.

(٢) راجع المصدر السابق

(٣) ابن قدامة، التبيين في أنساب القرشيين، ص ٣٦.

وأما معد: فقد استقر بمكة، مجاوراً بيت الله الحرام، الذي رفع قواعده إبراهيم – عليه السلام – أصل هذه الدوحة الشريفة.

ثم ولد له: نزار، وقضاعة، وقنص.

أما نزار: فقد استقر بمكة.

وأما قضاعة: فقد انتقل إلى حمير في بلاد سبأ[٢].

وأما قنص: فقد هلك.

ثم كان من نزار أولاده: ربيعة، وأنمار، وإياد، ومضر، لم يستقر واحد منهم إلى جوار البيت الحرام، سوى: مضر، ومن خصائص مضر أنه ما رآه أحد إلا قدره وأحبه، فهو صاحب كنف موطأ [٣].

فسلسلة النسب الزكي مستقرة حول البيت العتيق، فهو جوار طاهر في كنف بيت عتيق.

ثم كان من مضر ولداه: غيلان، وإلياس[٤].

---

(١) هم: من قبائل كهلان، من القحطانية، وهم: بنو الأشعر بن أدد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب، ج ١ ، ص ٣٠.

(٢) من بلاد اليمن.

(٣) د. رؤوف شلبي: بيت الرسول وقيمه الحضارية، ص ٣٦١ – ٣٦٢ من كتاب: السيرة والسنة النبوية.

(٤) إلياس بن مضر: هو الجد السادس عشر للنبي ﷺ، وكان إلياس رجلاً حازمًا قويًا، وكان قريبا من جده إسماعيل، فشرف وبان فضله، فأنكر على بني اسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم وسيرهم حتى رجعت سننهم تامة على ما كانت عليه، وبان فضله عليهم، ولان جانبه لهم، واجتمعوا على رأيه، وهو أول من أهدى البدن إلى البيت، أو أن ذلك حدث في زمانه، وقيل: إنه أول من وضع=

أما غيلان: فقد أفسد الدين.

وأما إلياس: فقد صان ملة إبراهيم، وحافظ على الشرائع التي ورثها البيت الإسماعيلي من جدهم إبراهيم، وإسماعيل – عليهما السلام [١] .

تقول مصادر السيرة النبوية: إن إلياس أول من أهدى إلى البيت الحرام، وكان في العرب مثل: لقمان الحكيم في قومه [٢] .

٢ - الفروسية:

ومن إلياس – كبير قومه – كان ثلاثة نفر: عامر، ولقبه: مدركة، وطابخة، وقمعة.

كان عامر (مدركة) هو: الفارس المقدام الشجاع، وهو الجد في السلسلة الشريفة للنبي ﷺ واستحق هذا اللقب لأنه أدرك كل عز وفخر.

=الركن للناس (الحجر الأسود) في مكانه بعد أن غرق البيت وانهدم زمن نوح عليه السلام، فكان إلياس أول من عثر عليه، وربما عثر عليه في زمانه فوضعه في زاوية البيت، وقيل: أنما هلك –ضاع- الركن بعد ابراهيم واسماعيل – عليهما السلام- وهذا الأولى والأشبه.

وذكر الدكتور محمد عبده يماني في كتابه (أجداد النبي ﷺ) أن العرب قد عظمت إلياس بن مضر تعظيم أهل الحكمة كلقمان وأشباهه، ويقول السهيلي في الروض الأنف: ويذكر أن النبي ﷺ قال: لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً.

ويروى أن إلياس قد أصابه السل حتى مات به، وقيل: أنه توفي يوم الخميس، فقالت إمرأته خندف: لئن مات إلياس فلن يظلها بيت، فلما مات خرجت سائحة في الأرض حتى هلكت حزنًا عليه، وكانت تبكيه كل يوم خميس حتى تغيب الشمس، فصارت مثلا.

(المصدر: الأهرام اليومي بتاريخ ١٠/٨/ ٢٠١٣م، بقلم الأستاذ/ خالد أحمد المطعني).

(١) رؤوف شلبي: بيت الرسول وقيمه الحضارية، ص٣٦٢، من كتاب السيرة والسنة النبوية.

(٢) المصدر السابق.

أما الآخران: فقد كانا كسولين [١].

٣ - شرف النفس وحفظ الأسرار:

ثم ولد له: خزيمة، وهذيل.

وكان خزيمة، أشرف الناس نفساً، فأنجب أربعة: كنانة، وهي التي اصطفاها الله من ولد إسماعيل، وكان أسد، وأسدة، والهون.

وكان كنانة هو جد النبي ﷺ فقد اختص بأنه يكن ويحفظ، أسرار الخلق، وهي صفة أمانة الأسرار للمجتمع [٢].

تقول المصادر: قيل له: كنانة، لأنه لم يزل في كن قومه بستره عليهم، وحفظه لأسرارهم، وكان شيخاً حسناً، عظيم القدر، تحج إليه العرب، لعلمه وفضله وكان يأنف أن يأكل وحده.

ثم كان منه: النضر، وملك، وعبد مناة، وملكان.

وسمي: النضر، لنضارته، وحسن طلعته، وبهائه [٣].

٤ - البحث والعناية والاهتمام بمكارم الأخلاق:

ثم كان من النضر: سالك، ويخلد.

يقولون: سمي سالكاً، لأنه سلك أمر العرب.

ومنه: كان فهر، وفهر هذا هو: (قريش)، وسمي بذلك لأنه كان يقرش،

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) د. رؤوف شلبي: بيت الرسول وقيمه الحضارية، ص ٣٦٢، من كتاب السنة والسيرة النبوية.

يعني: يفتش عن حاجة المحتاج، ليسدها، ويقيل عثرته وكان أبناؤه من بعده يقرشون أهل الموسم، بمعنى: أنهم يقضون لهم حوائجهم [١].

ومن فهر كان أبناؤه: غالب، ومحارب، والحارث، وأسد، وكان غالب هو: جد النبي ﷺ لأنه كان يغلب على الحق.

ومن غالب كان: لؤى، وتميم.

وكان لؤي هو: جد النبي ﷺ ، ومنه كان كعب، ومنه كان مرة، ثم كان كلاب، وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة وهو يوم الجمعة، أو يوم الرحمة.

ويقال: أنه من سمى يوم الجمعة بذلك لاجتماع قريش فيه إليه [٢].

وكلاب اكتسبها من كثرة استخدامه لكلاب الصيد، واسمه: (حكيم).

وكلاب: مجمع جدي النبي ﷺ لأبيه وأمه، لأنه أنجب قصياً جد النبي ﷺ لأبيه، وزهرة جد النبي ﷺ لأمه [٣].

ومن خصائص قصي:

الحجابة: وهي حراسة الكعبة.

الرفادة: إطعام أهل المواسم في الحج.

اللواء: حق إعلان الحرب وعقد الجيوش.

السقاية: سقاية الحجيج الماء بلا مقابل.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

الندوة: الشورى.

ومن قصي كان أولاده: عبد مناف، وهو جد النبي ﷺ وعبد الدار، وعبد العزى، وعبد بن قصي.

أما عبد مناف: فقد امتاز في ظل والده بالوقار والاحترام لذاته وكان عبد الدار: هزيل المقام فرأى قصي أن يعطيه شيئاً من الشرف ووزع على أولاده فأعطى عبد مناف: السقاية، والرفادة، وهي صفات الكرم، والجود، والسخاء المتكرر الدائم، وأعطى عبد الدار: اللواء، ليرفع من ضعفه [(١)].

٥ - الرحمة بالضعفاء:

ثم كان من عبد مناف رجال هم: هاشم، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل.

وكان هاشم كريماً يحفظ له التاريخ: أن قريشاً أصابتها مخمصة وهو في بلاد الشام، فاشترى دقيقاً وكعكاً، وقدم مكة، فهشم الخبز والكعك، ونحر الجزور، وجعله ثريداً، وأطعم الناس، حتى أشبعهم فسمي لذلك: هاشماً.

يقول الكاتبون: كان هاشم يحمل ابن السبيل، ويؤمن الخائف، ثم ورث هاشم خصائصه في العدل الاجتماعي إلى المطلب أخيه، ثم ورثها عبد المطلب ابن هاشم من عمه المطلب.

وعبد المطلب له خصائص أضفت عليه ألقاباً، فهو: مطعم طير السماء وهو: شبيه الحارث، وهو رجل مجاب الدعوة، كانت قريش تستقي به المطر [(٢)].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٦٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٦ - ١٧. د. رؤوف شلبي، بيت الرسول وقيمه الحضارية، ص ٣٦٤ من كتاب: السيرة والسنة النبوية.

ومن عبد المطلب كان عبد الله، الـذي جعـل الله منـه المصـطفى الخـاتم نبيـاً محمداً ﷺ الذي حمل من أرومته هذه الخصائص العليا:

- الجوار إلى بيت الله العتيق، والبقاء على ملة إبراهيم الحنيف.
- الفروسية والإقدام والشجاعة.
- شرف النفس، وعلو الهمة.
- حفظ الأسرار، والأمانة.
- مكارم الأخلاق، وفضائلها.
- رعاية الضعفاء، وحماية المحاويج.

وبهذه الخصائص الوراثية التي تعد قاصدة في الدراسات الاسترتيجية يكـون نبينا محمد ﷺ على السنام، ومن ذروة المجد والشرف المؤثل، لجميع زعمـاء العـالم قديماً وحديثاً.

وإذا فما هرطق به قليلو الثقافة، وضعفاء التفكير من المستشـرقين، وكتـاب الغرب الحاقـدين علـى الإسـلام والمسـلمين ، مـن أمثـال: "لا مـنس"[١] و "مسـتر موير"[٢] إنما هو محض افتراء مزيف، لا يعتمد على توثيق مـن مصـدر أمـين، ولا مصدر من عقل محترم لنفسه، يعرف أصول النتائج من مقدماتها.

ونحن العرب المسـلمين بمـا لنـا مـن أمجـاد في الفـتح الإسـلامي والحضـارة

(١) هنري لامنس: مستشرق بلجيكي المولد، فرنسي الجنسية، لبناني الإقامة، قال عنه عبـد الـرحمن بدوي في موسوعته عن المستشرقين: لامنس مستشرق بلجيكي، وراهـب يسـوعي شـديد التعصـب ضد الإسلام، يفتقر افتقارًا تامًا إلى النزاهة في البحث.

(٢) مستر وليام موير: مستشرق بريطاني مؤلف كتاب "حياة محمد".

العالمية، وإسعاد الإنسانية، نثق كل الثقة في أصول البيت النبوي الكريم الشريف، وفي القيم الحضارية المنزلة، التي تدثرت به والتي انبثقت عنه [(١)].

ولذلك كان من عناية الله بمحمد ﷺ : أن وضعه في نهاية سلسلة فاضلة من الناس أتته من قبل والديه، فأبوه عبد الله وجده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة.

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فهما يلتقيان معاً في الجد الخامس كلاب بن مرة [(٢)].

وعبد المطلب هو جد النبي ﷺ وابن هاشم من زوجته سلمى بنت عمرو، وقد شرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه.

إذ أحبه قومه، وعظم خطره فيهم، وهو شيخ مكة يوم قدوم أبرهة، وهو الذي حفر بئر زمزم، بعد أن هدى إليها.

وهو الذي قدم أحد أبنائه العشرة، للذبح عند الكعبة، وفاء لنذره بأن يقوم بذبح أحد أولاده، إن رزق عشرة ذكور، فلما رزقهم أقرع على الذبيح فجاء على عبد الله، وكاد يذبحه، لولا نصح القرشيين له، لكنه استبدل بالذبح الفداء، بناء على نصيحة عرافة خيبر [(٣)].

والذبيح الذي أفدى هو: عبد الله – أصغر – أبناء عبد المطلب ووالد النبي ﷺ وقد اشتهر بالعفة والطهر.

---

(١) د. رؤوف شلبي: بيت الرسول وقيمه الحضارية، ص ٣٦٤، من كتاب: السيرة والسنة النبوية.

(٢) محمد عفيف الزغبي: مختصر السيرة النبوية، ص ١٣ – ٢٤، ط دار المطبوعات بجدة.

(٣) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١١٧.

ومما روي في هذا الباب: أنه مر ذات يوم بعد فدائه على فاطمة بنت مر الخثعمية فقالت له: هل لك أن تغشاني وتأخذ مائة من الإبل؟ فرد عليها بقوله:

أما الحرام فالممات دونه ... والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريم عرضه ودينه[١]

قال ذلك ولم يلتفت إليها، ثم تزوج من آمنة، نزولاً على مشورة والده، ثم ترك آمنة بعد الزواج بقليل للتجارة، لكنه مات وهو عائد من الرحلة.

ومما يجدر أن يذكر: أن نسب النبي ﷺ من جهة أمه عالٍ هو الآخر، إذ يصف ابن هشام آمنة بقوله: إن أباءها من فضلاء قريش، وسادة بني زهرة[٢].

فالنبي محمد ﷺ نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله تعالى على الله وعباده.

وأعداؤه ﷺ كانوا يشهدون له بذلك ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك: أبو سفيان بن حرب، بين يدي ملك الروم، قال ملك الروم لترجمانه: سله. كيف حسبه فيكم؟.

يقول أبو سفيان، قلت: هو فينا ذو حسب[٣].

فأشرف القوم قومه ، وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذه ﷺ .

---

(١) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج ١ ص ٣٩٢، عباس محمود العقاد: مطلع النور، أو طوالع البعثة المحمدية، ص ١٣٨، طبع ونشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ص ١٢١.

(٣) رواه البخاري في مواضع من صحيحه مع فتح الباري، في كتب بدء الوحي، والجهاد، والأحكام، والإيمان، والشهادات، وفي بدء الوحي، وغيرها، ج١ ، ص ٣١- ٤٥.

قال الله تعالى: ﴿.... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ....﴾[١]

وما قاله الله تعالى يختص به من يشاء من خلقه، لا ينالها أحد بحسب، ولا يتوصل إليها بسبب ولا نسب، وعلى أنه تعالى لا يختص بهذه الرحمة العظيمة والمنقبة الكريمة، إلا من كان أهلاً لها، مما أهله هو من سلامة الفطرة، وعلو الهمة، وزكاء النفس، وطهارة القلب، وحب الخير والحق.

وكان أذكياء العرب في الجاهلية على شركهم بالله تعالى يعلمون: أن الصادقين محبي الحق، وفاعلي الخير، من الفضلاء، أهل لكرامته تعالى، وعنايته .[٢]

لقد كان بيت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، جد النبي ﷺ لأبيه، وبيت وهب بن عبد مناف: جد النبي عليه السلام لأمه، من أعلى البيوت في قريش.

إذ كان عبد المطلب بن هاشم سيد بني هاشم، وكان وهب بن عبد مناف، سيد بني زهرة.

وكان كلا البيتين موسوماً بالشرف، والكرامة، والطهر، والعفاف، ورعاية الدين، والفضيلة.

فكان زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب زواجاً موفقاً ميموناً، اتحد فيه عنصر طيب بعنصر طيب وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم،

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٤.

(٢) محمد رشيد رضا تفسير المنار، ص ٣٥، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٣م.

وأصهر بيت عريق في شرف الآباء، وطهر الأمهات إلى بيت يكافئه بالشرف، والطهارة.

فكان من الطبيعي أن تكون ثمرة هذه المصاهرة ثمرة طيبة مباركة، وأن يكون نسل هذا الزواج، نسلاً طاهراً كريماً (١) .

وما أجل قول العقاد، كان بنو هاشم أصحاب عقيدة، وأريحية، ووسامة، وجمال.

عرفوا بالنبل، والكرم، والعفة، والهمة، والوفاء، ولم تكن أخلاقهم هذه من مناقب الأماديح التي يتبرع بها الشعراء، أو من الكلمات التي ترسل إرسالاً على الألسنة، ولا يراد بها معناها.

وابن هاشم عبد المطلب: سيد قريش غير مدافع، وكان عبد المطلب متديناً، صادق اليقين مؤمناً بمبادئ دينه في الجاهلية، لأن ثقة الإيمان طبيعة في وجدانه.

وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله وكان في الحق نمطاً فريداً بين أصحاب الطبائع التي فطرت على الاعتقاد، ومناقب النبل والإيثار.

إن أسرة النبي ﷺ أسرة عزيزة الآباء والأجداد، فخرها بالنسب، أعظم من كل فخر، وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة، ثم ينشأ لها من بنيها نبي ينعي على الآباء والأجداد، ما كانوا عليه من ضلالة.

لقد نشأ محمد ﷺ في الأسرة، التي تعطيه خير ما تعطي الأسرة بنبيها، ولكنه

---

(١) أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص ٣٧، ط الأولى، القاهرة، عبد الله بن حمد الشبانة، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، ص ١٣٧ - ١٤٠، بتصرف واختصار. ط: الأولى، دار الهدى للنشر والتوزيع، بالرياض، سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

جاء بالنبوة التي لا يعطيها غير الله، فكانت الأسرة ، تمهيداً لما ورث منها [١].

ويروى: أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم" [٢].

ويقول العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر، فقال: "من أنا؟".
قالوا: أنت رسول الله.

قال: "أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً" [٣].

والذي عليه أهل السنة والجماعة، أن قريشاً أفضل العرب وأن بني هاشم: أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً [٤].

وعن عكرمة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [٥].

---

(١) العقاد: الإسلاميات، المجلد السابع، ص ٣٢٣- ٣٥٤، ط:دار الكتاب اللبناني ببيروت، سنة ١٣٩٤- ١٩٧٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، ج ٤، ص ١٧٨٢، ٢٢٧٦.

(٣) رواه الترمذي في صحيحه، كتاب المناقب، باب فضل النبي ﷺ، ج٥، ص ٥٨٤، رقم الحديث ٣٦٠٧، وقال: حديث حسن.

(٤) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، المجلد الأول، ص ٣٧٠، تحقيق وتعليق: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، ط الأولى، سنة ١٤٠٤هـ.

(٥) سورة الشعراء آية: ٢١٩.

قال: "من صلب نبي إلى صلب نبي حتى صرت نبياً" [١] .

وجاء في حاشية الجمل على الجلالين: أن أصول محمد ﷺ لم يدخلهم الشرك، ما دام النور المحمدي في الذكر والأنثى، فإذا انتقل منه إلى ما بعده، أمكن أن يعبد غير الله [٢].

وجاء فيه – أيضاً– أي: يراك متقلباً في أصلاب وأرحام المؤمنين ، من لدن آدم وحواء إلى عبد الله وآمنة، فجميع أصولهم رجالاً ونساء مؤمنون [٣] .

وهناك إجماع على: أن نسب الرسول ﷺ ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم أبي العرب المستعربة.

نسب شريف وآباء طاهرون، وأمهات طاهرات، لم يزل – عليه الصلاة والسلام– ينتقل من أصلاب أولئك إلى أرحام هؤلاء، حتى اختاره الله هادياً مهدياً، من أوسط العرب نسباً.

فهو من صميم قريش، التي لها القدم الأولى في الشرف، وعلو المكانة بين العرب.

ولا تجد في سلسلة آبائه، إلا كرماء، كلهم سادة وقادة، وكذلك أمهات آبائه، من أرفع قبائلهن شأناً.

---

(١) رواه البزار، في مسنده (كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي، ج٣، ص ٦٢، ط الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩م.

(٢) الجمل: الفتوحات الإلهية، ج ٣، ص ٢٩٦، ط عيسى البابي الحلبي.

(٣) المرجع السابق.

ولا شك: أن شرف النسب، وطهارة المولد، من شروط النبوة، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته، كان شرعياً حسب الأصول العربية [(١)].

ومما يحسن أن نشير إليه: أن هناك مزيتين، في آباء النبي ﷺ ، وأجداده، علينا أن نعرض لهما:

المزية الأولى:

أن الآباء المباشرين من والد وجد، وهكذا إلى النهاية لم ينغمسوا في الشرك، والوثنية على غير عادة معاصريهم، وتلك إرادة الله في آبائه- ﷺ - إذ بقى فيهم هذا الفهم الديني.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [(٢)].

ويذكر العلماء: أن الكلمة الواردة هي قوله تعالى: ﴿..... لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ .....﴾ [(٣)].

وبذلك فسرها مجاهد وقتادة، وغيرهما.

وقد بقيت هذه الكلمة، فلا يزال في ذريته، من يقولها [(٤)]، ويوحد الله، ويدعو إلى توحده [(٥)].

---

(١) محمد الخضري: نور اليقين، ص ١٢، ط دار القلم، بيروت، تحقيق: عبد العزيز سيروان.

(٢) سورة الزخرف آية: ٢٨.

(٣) سورة محمد آية: ١٩.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ٧، ص ٢١٢.

(٥) الزمخشري، الكشاف جـ ٣، ص ٤٧٤، ط دار المعرفة، بيروت.

وقد ذكر السيوطي: أن أجداد النبي ﷺ من آدم إلى إبراهيم، كانوا مؤمنين بيقين [١].

فلما أتى إبراهيم بولده إسماعيل، قال قبل أن يتركه، داعياً له: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [٢].

ويقول الطبري في روايته عن مجاهد: "استجاب الله لإبراهيم، دعوته في ولده، فلم يعبد أحد، من ولده صنماً بعد موته" [٣].

المزية الثانية:

وأما عن المزية الثانية، فإن النبي ﷺ ينتسب إلى بطن بني هاشم، وبنو هاشم بطن يبطن مكة، ويرتبط مع سائر بطون قريش في قرابة [٤] وتلك سيرة لداعية يظهر بين الناس، إذ يجد نفسه مرتبطاً بقربى مع سائر البطون.

وأخرج البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : "أن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا وله قرابة فيه" [٥].

وهكذا كانت تهيئة الله – سبحانه وتعالى – لنبيه ﷺ قبل ميلاده، فجعل آباءه

---

(١) السيوطي: الحاوي للفتاوى، جـ ٢، ص ١٢٦، دار الفكر ببيروت.

(٢) سورة إبراهيم آية : ٣٥.

(٣) الطبري: جامع البيان في تفسير آيات القرآن، جـ ١٣، ص ٢٢٨.

(٤) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٢١.

(٥) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب، جـ ٤، ص ٢١٧ن ورواه البزار، في كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب علامات النبوة باب قدم نبوته ﷺ، ج٣، ص ١١٢، ورواه الطبراني في الأوسط.

من خير الخلق خلقاً، وديناً ومسلكاً، وجعل آباءه من بطن، يتصل بكل بطون قريش، اتصالاً قائماً على النسب والقربى.

وكان النبي ﷺ مثال الصدق والأمانة في سلوكه، حتى اشتهر بهاتين الصفتين، وسماه الناس: بالصادق الأمين.

وتجلت عناية الله- سبحانه وتعالى – به في هذه المرحلة، فلم يسجد لصنم قط، وكان يلتمس الهدى، متبعاً ما بقي من دين إبراهيم عليه السلام.

■ ■ ■



الفصل الثانى

اختيار الأمة الأولى للإسلام



ا

يذكر العلماء، أن كمال كل نوع إنما هو محصول صفاته الخاصة به وصدور آثاره المقصودة به، وبحسب زيادة ذلك ونقصانه، يفضل بعض أفراده بعضاً، إلى أن يعد أحدهما سماء، والآخر أرضاً.

والإنسان مشارك لسائر الأجسام في الحصول في الحيز والفضاء والنباتات في الاغتذاء والنشوء....

وللحيوانات في حيويته بأنفاسه وحركته بإرادته وإحساسه ، وإنما يتميز بما أعطى من القوة النطقية وما يتبعها من العقل، والعلوم الضرورية، والأعمال الصالحة المرضية وأهليته للنظر والاستدلال، وترقيه بذلك في مدارج الكمال، وعلمه بما أمكن واستحال.

فإذاً كماله إنما هو بتعقل المعقولات واكتساب المجهولات، وبالأخلاق الحسنة التابعة للأعمال الصالحات، فللإنسان فضل على سائر الحيوانات كلها في نفسه وجسمه [(١)].

ولقد كان لظهور الإسلام في الأمة العربية، دليل على مميزات وضعها الله سبحانه وتعالى في العرب، واختارهم من أجلها ليكونوا أمة يبعث النبي ﷺ فيها وبلسانها، وينزل القرآن الكريم بلغتها، مراعياً جانب التفوق العربي، في إعجازه ودقته.

ولابد أن تكون هذه الأمة على مستوى ارتباط العالم كله بها، واتجاهه إليها

---

(١) الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، جـ ١، ص ١٨، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

عند كل صلاة وحج، وعلى قدرة تحمل مسؤولية إبلاغ الدعوة إلى كل الآفاق[١].

فأي أمة لها كل هذا في تاريخ الإنسانية؟

إنها أولاً: الأمة التي يتحقق للباحثين من استقراء التاريخ: أنها نطفة البشر الأولى [٢]، وأنها بدء حياة الإنسان.

فإن سلامة الفطرة في البشرية ، لا تكون على أتم ظهورها بالبداهة، إلا في هذه الأمة، التي تنطوي فيها الأمم، والتي تنفجر من صخريتها ينابيع الخصائص الأولى، نقية قبل أن تتدنس بصراعات الحياة، وتسقط في أخاديد القهر، وتدور في منعرجاته ومأزقه.

وهذه الأمة التي يقرر التاريخ الصحيح ابتداء البشر بها هي: الأمة العربية لا جدال. ضاربين صفحاً من القول الشائع: بقدم التاريخ المصري، أو البابلي، فكلاهما ليس إلا أثراً متأخراً من آثار الهجرات العربية القديمة، التي فاض بها قلب الجزيرة على أطراف الوطن العربي [٣] .

وهي ثانياً: الأمة التي يقوم الدليل على أن الله – عز وجل – خاطبها بالفعل، وجعل لسان الحق لسانها، ودعوة الخير في الناس دعوتها، وكتاب العدل في البشر كتابها.

---

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٩٩.

(٢) أي: أنهم كانوا أكثر الناس حفاظاً على الأنساب، حتى لا تختلط. أحمد موسى سالم، لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب؟ المقدمة، ط دار الجيل، بيروت.

(٣) أحمد موسى سالم: لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب، ص ١٤٧ – ١٤٨.

ولقد قام الدليل الناصع الخالد على أنها هي: الأمة العربية، أمة القرآن، وأمة الإسلام، وأمة البيان [١] .

وهي ثالثاً: الأمة التي يثبت بالدليل: أن لها من عناصر البيئة التي تحيا فيها ما يحفظ عليها كمال الفطرة الإنسانية التي نشأت عليها في قوام البدن، وتقويم النفس، ذلك أن النفس والبدن في اتحادهما على كمال الفطرة، يؤلفان اتجاه العقل السليم [٢].

وقد أشار القرآن الكريم إلى خصائص العرب التي أهلتهم لحمل أكبر رسالة وأبقاها.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [٣] .

جاء في تفسير الفخر الرازي: ووصفه لذريته بذلك، لا يليق إلا بأمة سيدنا محمد ﷺ فعطف عليه بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [٤].

وهذا الدعاء يفيد كمال حال ذريته من وجهين:

أحدهما: أن يكون فيهم رسول، يكمل لهم الدين والشرع، ويدعوهم إلى ما يثبتون به على الإسلام.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٣) سورة البقرة آية: ١٢٨ - ١٢٩.

(٤) ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، جـ ١، ص ٧٩، ط بيروت.

وثانيهما: أن يكون ذلك المبعوث منهم، لا من غيرهم [(١)].

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما - : "ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت رسول الله ﷺ مضريها وربيعيها ويمانيها" [(٢)].

والله – سبحانه وتعالى – تخير العرب من خلقه، وتخير الرسول ﷺ منهم [(٣)].

قال ابن تيمية – رحمه الله: "والذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد: أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، عبرانيهم وسريانيهم ، روميهم وفرسيهم، وغيرهم.

وإن قريشاً أفضل العرب، وإن بني هاشم: أفضل قريش، وإن سيدنا رسول الله ﷺ: أفضل بني هاشم.

فهو: أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً.

وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم، لمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك يثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفساً ونسباً" [(٤)].

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ : "خلق الله الخلق، فاختار من الخلق بني آدم، واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب

---

(١) الرازي التفسير الكبير، ج ٢، ص ٧١ – ٧٢.

(٢) ابن الجوزي، الوفا بأحوال المصطفى، جـ١، ص ٧٩.

(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، جـ١، ص ٢٦٩.

(٤) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، جـ ١، ص ٣٧٠- ٣٧١.

مضر، واختار من مضر قريشاً، واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار".

وعن واثلة بن الأسقع – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ "إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى كنانة من بني إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم".

ويذكر ابن خلدون فضل العرب، فيقول: "وهم أسرع الناس قبولاً للحق والهدى، لسلامة طباعهم عن اعوجاج الكلمات وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة، المتهيئ لقول الخير، ببقائه على الفطرة الأولى، وبعده عما ينطبع في النفوس، من قبيح العوائد، وسوء الملكات"[1].

وأهم ما حفظ ديار العرب من اكتساح غيرها لها من الأمم في غابر الدهر: "كون العرب أهل شدة وبأس، وإباءة ضيم، لا ينامون إلا على الثأر، ويصبرون على شظف العيش، ويتبلغون بميسوره.

وليست الرفاهية من شأن أكثر المعمور من أرضهم، ولذلك خاب الفرس والرومان والفراعنة والحبشة يوم حاولوا أن يستولوا على اليمن والحجاز، وما إليهما.

مقدرين أن جزيرة العرب، لا تساوي اكتساحها، وإن من الصعب إجراء الأحكام على أهلها، لبعد المسافات في فلوات، لا أول لها ولا آخر" [2].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٣٢، ط: كتاب التحرير، سنة ١٣٨٦هـ، القاهرة.

(٢) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ج١، ص ١٢٠، ط الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، سنة ١٣٨٨ – ١٩٦٨م.

لقد أفادت البحوث: أن لبيئة العرب – عند ظهور الإسلام – مقومات لم تكن متوفرة في غيرها، في بيئات العالم القديم، لقد كانت مبرأة من القهر السياسي، والترف الحضاري [١].

وأهم عوامل المدنية في جزيرة العرب، كون أهلها عرفوا في كل العصور معاناة التجارة، ينقلون مع حاصلاتهم حاصلات الشرق إلى الغرب، وحاصلات الغرب إلى الشرق، واشتهروا بذلك.

وكانت معرفة العرب بالأقطار المجاورة لا غبار عليها، وكثيراً ما كانوا ينزلون الولايات المجاورة، يساكنون أهلها، كأن تلك البلاد أجزاء متممة لديارهم، على اختلاف بينهم، وبين ساكنيها في الطبائع والألسن [٢].

وإن البحث يقف بنا على صفات إنسانية عديدة، أهلت العرب لتحمل مسئولية الدعوة الإسلامية، ومن تلك الصفات:

أولاً: إن الأمة العربية جمعت بين صفات البدو والحضر.

ومن هنا: كان عصبيتهم الحادة، التي جعلت كل فرد يتصور نفسه ملكاً لا يخضع لغير قبيلته، ولم تقم لهم بذلك دولة واحدة.

وكان الرئيس فيهم كواحد منهم، بل كان يتقرب إليهم بالحيل وتحسين المعاملة، كسباً لودهم، وفوزاً برضاهم عنه [٣].

---

(١) د. عبد العزيز كامل: الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ ١، ص ٦٣٣، من كتاب: البحوث والدراسات المقدمة لمؤتمر السيرة، ط قطر، سنة ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

(٢) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، جـ ١، ص ١٢٠.

(٣) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٠٦.

وهذه العصبية فاقت حدها، فانقلبت إلى ضد المطلوب منها.

لكن ما فيهم من سلامة الطبع وبعدهم قليلاً من البداوة، جعلهم يقبلون الخضوع للدعوة الدينية على أساس أن الوازع في هذا الخضوع، لم ينشأ بسبب قهري بشري، أو استذلال سلطان، وإنما سببه من داخل أنفسهم.

كما أنه ليس خضوعاً لفرد أو لقبيلة، ولكنه خضوع لدين الله، الذي يبعد المرء كلية عن التحاسد والتنافس والبغضاء [(١)].

وقد لاحظ ابن خلدون: طبيعة العرب في الإباء، والشمم. فذكر: "أنهم لا يجتمعون إلا بعقيدة دينية، فإذا كان الوازع لهم من أنفسهم ذهب خلق الكبر والمنافسة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس.

فإذا كان فيهم النبي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذموم الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم، لإظهار الحق، ثم اجتماعهم حصل لهم التغلب والملك" [(٢)].

وهكذا ظهرت الدعوة الإسلامية في أمة جمعت بين البدو والحضر هي: أمة العرب، فحملتها بكفاءة، وبلغتها إلى الناس أجمعين.

ثانياً: عرف العرب بدواً وحضراً بالشجاعة والجرأة، والكبرياء العنيد، كبرياء الرجل الحر، حتى صار العرب أشجع الناس [(٣)].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٣٢.

(٣) د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ٧٣، ط الأولى، دار المعارف، بمصر. د. علي عبد الحليم محمود: عالمية الدعوة الإسلامية، جـ ٢، ص ٥٠٦، ط الثانية، سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م، الناشر: دار عكاظ للطباعة والنشر.

وأما كون العرب أشجع من غيرهم، فلأن الشجاعة من الصفات الغريزيـة، والسجايا الطبيعية، وقوة للنفس معنوية، لا تدرك إلا بآثارها وغاياتها ولا تعلـم إلا بمقتضياتها.

وهي: الإقدام في مواضع الإحجام. وعدم المبالاة بالحياة، وكلما كانت هـذه الآثار أعظم، كان مبدؤها أقوى وأتم.

والعـرب لم تـزل رمـاحهم متشـابكة، وأعمـارهم في الحـروب متهالكـة، وسيوفهم متقارعة، وأبطالهم في ميـادين القتـال متنازعـة، قـد رغبـوا في الحيـاة، وطيب اللذات [1].

ويكفي أن نعـرف: أن العربـي لم يسـمح بمـرور قوافـل أجنبيـة للتجـارة في أرضه، إلا تحت إمرته، وبعد موافقته.

ولقد كان لأيام العرب التي نشبت قبيل ظهور الدعوة، واسـتمرت طـويلاً، في أمـاكن متعـددة، أثـر في تكـوين العـرب علـى الشـجاعة والتحمـل، وقبـول المخاطر.

وإن الجيل الذي عاصر ظهـور الـدعوة هـو: الجيـل الـذي ولـد ونشـأ بـين حديث الدم، وصوت الرياح، ولذلك تعد هذه الأيام مدرسة ناجحـة في تخـريج رجال الدعوة الأقوياء [2].

ثالثاً: ما تمتع به العرب من صفات أهلتهم لأن يكونوا الأمة الأولى للـدعوة

---

(١) الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ص ١٠٣ – ١٠٤.

(٢) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٠٧.

الإسلامية: ما تمتعوا به من ملامح العلم في القول والعمل فقد كان العرب أقرب للعلم من غيرهم.

"لأن الحلم إمساك النفس عن هيجان الغضب، كما أن التحلم: إمساكها عن قضاء الوطر، والحلم من آثار العقل، وغير منفك عنه" [١].

وما الكناية في كلام العرب، ولغتهم إلا حساسية مرهفة، وصيانة للسان من القول البذيء ، يستعان بها في الأسلوب، عوضاً عن التصريح بالقبح وما يستكره [٢].

وقد كان عندهم كلمة يقولونها في مواطن الثورة والغضب، فيسكن الغضب، وتهدأ الثورة.

هذه الكلمة هي: "إذا ملكت فأسجح" [٣].

ومن حلمهم العملي : ما روي أن قيس بن عاصم المنقري كان يحدث أصحابه يوماً وهو جالس حبوا، فجاءوا بابن له قتيل، وابن عم له كتيف.

فقالوا: "إن هذا قتل ابنك هذا" . فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته.

ولما فرغ من حديثه التفت إليهم، وقال: أين ابني فلان فجاء.

فقال: يا بني قم إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فأدفنه، وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة، فإنها غريبة، لعلها تسلو عنه [٤].

---

(١) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ص٩٩.

(٢) د. احمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٠٧.

(٣) أي: إذا ظفرت فأحسن، وإذا قدرت فسهل وأحسن العفو، الألوسي: بلوغ الأرب، ص ١٠١. ابن منظور: لسان العرب، جـ ١، ص ١٠٢.

(٤) الألوسي، بلوغ الأرب، جـ ١، ص١٠٢.

رابعاً: ومما اتصف به العرب وتمتعوا به: الوفاء، وهو يعد دليلاً على سمو نفسياتهم، واستقامة شجاعتهم، واعتدال حياتهم، فما نقضوا عهداً، أو خالفوا وعداً.

وكانوا يرون: أن الغدر من كبائر الذنوب، فحكموا بذلك قوتهم وسيطرتهم على أنفسهم [١]، فمع الشجاعة في العرب كان الحلم الواسع، والوفاء الرائع.

وهاتان الصفتان تجعلان الشجاعة تبذل في موضعها، وتظهر حين يستدعيها المقام، ولا تبدو في تهور أو طغيان، وإنما تكون حماية للشرف، وصيانة للمنزلة والعز والسلام [٢].

وإن اجتماع الشجاعة، والحلم، والوفاء في أمة، يجعلها بعيدة عن الاستذلال، وعن الاعتداء، وعن الضرر، وإذا ما اشتهروا بهذه الصفات حازوا الثقة، ونالوا التقدير، واستحقوا التصديق في كل ما يقولون [٣].

وهكذا كان العرب الأمة التي ظهرت فيها الدعوة، فحملتها إلى الناس في كل أرجاء الأرض، تصحبهم ثقة الناس فيهم، ومعهم في كل مكان التقدير والتصديق والأمان.

خامساً: لقد كان العرب أكمل الناس في الفهم، وكانوا لا يبارون قوة ذكاء، وإصابة حدس، وحدة ألمعية، وصدق فراسة.

---

(١) د. احمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٠٨.

(٢) د. احمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٠٧.

(٣) السابق، ص ١٠٨.

يخبرون عن الغائب بقوة ذكائهم، كأن قد شاهدوه، ويصف لهم الحدس الصائب حال الورد قبل أن يروه [١].

سادساً: كذلك قد تمتع العرب بفكر عقلي متقدم، جعلهم يلامسون التوحيد عن قرب، فجميعهم أقر بالإله الأعظم، الذي يعلو كافة الآلهة التي هي وسطاؤهم عنده، وشفعاؤهم إليه [٢].

وتعد ظاهرة الحنفاء: دليلاً على مستوى التقدم العقلي عند العرب، فقد خطب الحنفاء في المجتمعات بأفكارهم، ولم يقف في وجههم عربي.

بل إن المشركين العرب، كانوا يعتزون ببقايا دين إبراهيم – عليه السلام – ويعدون خدمة البيت، وحجيجه شرفاً يورثونه لأبنائهم وأحفادهم [٣].

ويبدو سمو العرب جميعاً في فكرتهم عن الإله الأعظم، حين نقارنهم بسائر الأمم في إيجاز، ذلك لأننا نرى الروم برغم أن المسيحية دين التوحد، فإنهم أبعدوها عن حقيقة التوحيد.

واشتغل مفكروها بفلسفات جوفاء عقدت الدين، وجردته من بساطته وجعلت العامة في حيرة من فكرة الطبيعة الواحدة ذات المسيح، أو الطبيعتين، وقدسية العذراء، وبشريتها، إلى غير ذلك [٤].

---

(١) الألوسي، بلوغ الأرب، جـ ١، ص ١٩.

(٢) د. محمد رشاد خليل: ملامح من دور الإسلام في بناء العمارة العربية قبل البعثة المحمدية، ص ٦٠، ط الأولى، سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٣) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ١٠٨.

(٤) المصدر السابق: ص ١٠٩.

واليهودية تحولت إلى مذاهب متناقضة، لا يجمعها إلا الإيمان بعنصرية جنس مقدس هو العنصر اليهودي، ولا يوحدها إلا شعار الخداع لكل البشر، ما عدا اليهود [١].

والفرس بعد أن كانوا يتقربون للنور والظلمة، على أساس أنهما رمزان للخير والشر، أصبحا يعبدانهما على أساس أنهما إلهان اثنان ويعبدون غيرهما من المظاهر الطبيعية.

سابعاً: من الصفات التي تميز بها العرب: أنهم أحفظ من غيرهم، فحفظوا على سبيل التفصيل أيام حروبهم ووقائعهم، وما قيل فيها من شعر وخطب[٢].

وعلى الجملة فهم يملكون قوة حفظ خارقة عند الخاصة والعامة، ومع مرور الأيام، صار الحفظ ملكة لديهم، توارثوها جيلاً عن جيل [٣].

فالدعوة الإسلامية أثمرت أكلها بظهورها في الأمة العربية.

إذ ناسبتها طبيعتهم البدوية الحضرية، وأخلاقهم الرفيعة، وشجاعتهم الحليمة الوفية، وذكاؤهم الحاد، وفهمهم الدقيق، وحافظتهم القوية إذ جاءت الدعوة إلى كل هذه المزايا، فشطتها وسعت بها، وأزالت منها السلبيات الموروثة.

فوجد العرب أنفسهم بعد الإسلام تلقائياً يبذلون حماستهم وقوتهم للدعوة الإسلامية، ويعطون شجاعتهم وإمكاناتهم إلى رسول الله ﷺ وفي خدمة دعوته، فتحركوا إلى كل مكان من أجل نشرها، تاركين كل ما يهمهم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢)المصدر السابق.

(٣) الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب، جـ ١، ص ٣٨.

وأصبح تعصبهم اندفاعاً لتنفيذ أوامر الدعوة الإسلامية وتعاليمها[١].

وهذه الصفات التي اتصف بها العرب دون كثير من الناس ساعدت بغير شك، على أن ينجحوا في نشر الدين، وأن يذهبوا به إلى حيث شاء الله.

ولكن بعد أن هذب الإسلام أخلاقهم، وأصلح من عيوبهم، وحال بينهم، وبين كثير من الشرور التي كانوا عليها... في جاهليتهم [٢].

وهكذا وضح السر في اختيار الأمة العربية ، لتظهر الدعوة الإسلامية فيها أولاً. والله – سبحانه وتعالى – أعلم حيث يجعل رسالته.

■ ■ ■

---

(١) لمعرفة المزيد من خصائص وصفات العرب، أنظر: عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، وهو: ضبط مفاوضات ومفردات مؤتمر النهضة الإسلامية، سنة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م، طبع ونشر: دار الرائد العربي، بيروت.

(٢) د. علي عبد الحليم محمود: الدعوة الإسلامية، جـ ٢، ص ٥٠٧.



الفصل الثالث

عناية الله في اختيار المكان

لظهور الإسلام



من دلائل الحكمة الإلهية: أنه – سبحانه – لما اختار مكة لتكون أماً لبلاد العالم، واختار مسجدها ليكون أول بيت وضع للناس، فقد هيأ بيئتها، ومناخها وطبيعتها، لتكون أصلح مكان في الأرض، لبناء وثبات عقيدة الإسلام العالمية[١].

وقد اشتهرت مكة منذ القديم بوضعها الخاص المتميز عن سائر المدن، وقد حفظ العرب لها هذه المنزلة، فأحاطوها بما يليق بها من حب وعناية وتقدير.

فهي عندهم (أم القرى) وأصل المدائن، وبها الكعبة المشرفة، التي تحمل في ثناياها ذكرى إبراهيم – عليه السلام – وترمز إلى الخير المبارك من الله تعالى [٢].

ولقد توارث العرب منذ القديم حقيقة تتضمن: أن العرب بسبب الكعبة في أمن وشبع، لدرجة أنه لما ضاق الأمر ببني إسرائيل، وجُرْهُم وهم في مكة، تفسحوا في البلاد، وأخذوا معهم بعضاً من حجارة الحرم يعظمونه،و يلتمسون فيها الخير، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة [٣].

وتذكر كتب السيرة: أن العرب كانوا يعتقدون أنه ما من ظلم يقع في مكة، إلا وتنزل العقوبة بالظالم أياً كان [٤]، وما أراد مكة أحد بسوء إلا أهلكه الله [٥].

---

(١) عبد القادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول في مكة، ص١٤، ط: دار العلوم للطباعة بالقاهرة، سنة ١٣٩٩هـ – ص ١٩٧٩م.

(٢) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٧٦.

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، جـ ١، ص ٤٦، ط الثانية، ١٣٥٢هـ الناشر: المطبعة الماجدية.

(٤) د. أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية، ص ٧٦.

(٥) فؤاد علي رضا، أم القرى، مكة المكرمة، ص ١١٧.

وكثيراً ما حذر العرب حكماءهم، لهذا يقول أحدهم: "إياكم والإلحاد فيه - الحرم - فإنه بوار، وأيم الله لقد علمتم أنه ما سكنه أحد قط، فظلم فيه وألحد، إلا قطع الله - عز وجل - دابرهم، واستأصل شأفتهم" [(١)] .

وكان العرب جميعاً في الجزيرة العربية، يعرفون لمكة، وللكعبة هذه المكانة، فيحيطونها بالجلال والتقدير.

ويذكرون دائماً أن أهل مكة أهل الله، ولم يندهشوا كثيراً يوم هلك أبرهة وجيشه في مكة بل قالوا: أهل الله دافع الله عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم [(٢)].

كان هذا التقدير لمكة، أحد أسباب اختيارها لظهور الدعوة، كما أن الموقع الجغرافي للجزيرة العربية على العموم، ولمكة على الخصوص ساعد على نشر الدعوة وإبلاغها.

ومما يجدر أن ننتبه له أن هناك بعض الخصائص التي يحسن عرضها، لنلتمس من معرفتها: الحكمة التي كانت من وراء اختيار المكان لظهور الدعوة.

ويمكن عرض الخصائص على النحو التالي:

أولاً: أن آخر ما وصل إليه العلم في الدراسات التي قامت بها أقسام المساحة التصويرية بمراكز البحوث، والتي استخدمت فيه الأجهزة الإلكترونية، والآلات الإحصائية، والحسابات الرياضية، والمنحنيات الاعتبارية لخطوط الطول والعرض، والتي استهدفت تعيين مواقيت الصلاة في أي زمان ومكان،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، جـ ١، ص ٤٨.

(٢) المصدر السابق.

على سطح الأرض، لجميع أيام السنة، هو أن أم القرى هي وسط اليابسة في الكرة الأرضية تماماً.

وأن الكعبة الشريفة لذلك هي المركز تحديداً، ولأن الأرض وهي تتحرك حول نفسها، وحول الشمس لا تنقلب على نفسها فإن هذا المركز لا يتغير، وتستمر الكعبة المشرفة هي الوسط دائماً [1].

وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [3].

وأم القرى: أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت، ومقام إبراهيم.

والعرب تسمى أصل كل شيء: أم، ومن حولها من أهل البدو والحضر [4] ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم [5]، وسائر البلاد شرقاً وغرباً.

وسميت مكة أم القرى، لأنها أشرف من سائر البلاد [6].

قال رسول الله ﷺ : "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله" [1].

---

(١) د. عبد الرازق: أم القرى مركز الوسط الأمين. مقال بمجلة: العرب، المجلد ٥١، العددان: رجب وشعبان، سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص ٤١، الباكستان.

(٢) سورة الأنعام آية: ٩٢.

(٣) سورة الشورى آية: ٧.

(٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير، المجلد ١٤، ص ١٤٨.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ٣، ص ٢٩٤.

(٦) المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٧٩.

يقول السهيلي رحمه الله تعالى: "وفي التفسير أن الله سبحانه وتعالى لما قال للسموات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (٢) لم يجبه بهذا إلا أرض الحرم" (٣).

ويقال- استناداً إلى روايات: "إن موضع البيت أول بقعة وضعت من الأرض".

فقد روي البيهقي في الشعب عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ : "أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت، ثم مدت منها الأرض، وأن أول جبل وضعه الله – تعالى – على وجه الأرض. أبو قبيس (٤)، ثم مدت منه الجبال" (٥).

وليس في الوجود كله مكان حظى بالشرف والطهر والمكانة في مصير الإنسانية عبر أجيالها وعصورها المتعاقبة كما حظى المسجد الحرام ومن ثم جمل التاريخ به، واحتفى حفاوة لم تعهد لغيره في دنيا الناس.

---

(١) رواه أحمد في مسنده جـ ٤، ص ٣٠٥، ورواه الترمذي في صحيحه كتاب/ المناقب، باب فضل مكة، جـ ٥ن ص ٧٢٢، وقال: حديث حسن غريب صحيح.

(٢) سورة فصلت آية: ١١.

(٣) السهيلي: الروض الآنف، جـ ١، ص ١٢٨.

(٤) أبو قبيس، هو: الجبل الشرقي المشرف على الصفا. الأزرقي: أخبار مكة، جـ ٢، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس، ولم ينسبه السيوطي في الدر المنثور، جـ ٢، ص ٢٦٦.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ (١) .

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت في تلك البقعة، التي سماها الله: المسجد الحرام، وسماها: البيت العتيق.

فأي مسجد ذاك؟ وأي بيت هو؟

هو الكعبة التي جمع الله لها وصف المسجدية والحرمة والبيتية في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ (٣) .

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ (٤).

وإن في وصفه بالعتاقة لإيذاناً بالأصالة في الشرف، وتأكيداً بأنه أول بيت وضع في الأرض للعبادة.

فالبيت الحرام: هو النقطة الوحيدة التي تميزت دون سائر بقاع الدنيا، وتمركزت فيها وحدها ركائز الحق، وتغلغل في أعماقها جوهر التوحيد.

وكأنها تفردت لتمثل بؤرة للضوء، صالحة لإشعاع الهداية في الضمير الإنساني (٥) .

---

(١) سورة آل عمران آية، ٩٧.

(٢) سورة البقرة آية: ١٤٩.

(٣) سورة المائدة آية: ٩٧.

(٤) سورة الحج آية: ٢٩

(٥) د. أحمد عبد الرحيم السايح: مكانة الحرمين في الإسلام، بحث ألقى بمؤتمر قدسية الحرمين، الذي عقد بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية بالقاهرة، من ٢٣- ٢٥ ربيع الأول، سنة:=

ثانياً: فإن البحث الموضوعي يبرز لهذه البيئة، مقومات لم تكن متوفرة في غيرها من بيئات العالم القديم، وإن كانت لها – كأي بيئة أخرى – مشكلاتها التي ينبغي عليها أن تقابلها.

فلقد كانت الجزيرة العربية متوسطة بين قارات العالم القديم.

كانت مفتوحة على أفريقيا من الجنوب الغربي، والشمال الغربي، ولها صلات بها برية وبحرية عبر سيناء والبحر الأحمر، ومضيق باب المندب، وخليج عدن، وبحر العرب.

وظلت هذه الصلات قائمة عبر التاريخ، وكانت على صلة بأرض الروم في ديار الشام وقتئذ، وما وراءها في الغرب والشمال الغربي.

وكانت على صلة بأرض فارس وما وراءها براً وبحراً إلى قلب أسيا، وأقطارها الموسمية في الجنوب والشرق [١].

ولهذا تعد الجزيرة العربية بموقعها الجغرافي سرة العالم لأنها تقع في وسطه، وتتصل بكل أجزائه وأقاليمه.

ففي شرقها: توجد الدولة الفارسية.

وفي شمالها: توجد الدولة الرومانية.

=١٤٠٨هـ الموافق: ١٥ – ١٧ نوفمبر ١٩٨٧م، وقد نشرته مجلة الجندي المسلم في العدد الرابع والخمسين، ص ٢٤ – ٢٩، الصادرة في شهر ذي الحجة سنة ١٤٠٩ هـ، الموافق يوليو ١٩٨٩م، من السنة السادسة عشر.

(١) د. عبد العزيز كامل: الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ ١، ص ٦٣٢، من البحوث والدراسات التي قدمت لمؤتمر السيرة والسنة الثالثة الذي عقد بقطر.

وفي غربها: توجد مصر والحبشة.

وفي جنوبها: توجد الهند، وغيرها.

وقد ساعد على التغلب على عوائقها الطبيعية من مرتفعات وبحار: أن العربي كان على خبر كامل بشعابها، وطرق مواصلاتها [١].

وقد انعكس هذا على علاقات السلالات البشرية فيها، فكانت من أنسب الأماكن وقتئذ، إن لم تكن أنسبها جميعاً للقاء السلمي، والتعايش بين البشر.

كانت – أيضاً – وسطاً من حيث المكان، ولم تكن الجزيرة العربية منطقة نائية، كالشرق الأقصى، أو جنوب أفريقيا أو غرب أوروبا [٢].

ثالثاً: تقع مكة والحجاز بوجه عام في نطاق منطقة الحرارة القصوى ويرجع الجغرافيون ذلك إلى: أن قسماً كبيراً من الجزيرة العربية يقع في منطقة الرهو المدارية، ذات الضغط العالي، والمطر القليل.

والقسم الآخر: يقع في حيز الرياح التجارية الشمالية الشرقية الجافة، التي تزداد حرارتها كلما تقدمت إلى الجنوب [٣].

ولقد أدى هذا الوضع: إلى حالة جدب شديدة، نشأت من قلة المطر، وندرة سقوطه، لدرجة أنه لا يسقط المطر في بعض أماكن الجزيرة إلا كل ثلاث سنوات، أو أربع.

---

(١) عطية صقر: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص ٩٨- ٩٩، ط: الأولى: مؤسسة الصباح للنشر والتوزيع، سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

(٢) د. عبد العزيز كامل: الدعوة الإسلامية، ص ٨٢.

(٣) د. عبد العزيز كامل: الرسول وموقفه من التفرقة العنصرية، جـ ١، ص ٦٣٢.

وبجانب قلة المطر لا توجد أنهار في الجزيرة تمد الأرض بالري، وتعطي للناس معاشهم وأسباب الحياة، هذا الجدب الصعب جعل الناس يتجهون إلى السماء، ضاجين بالاستغاثة ضارعين بالدعاء [1].

وقد ذكر الباحثون: أن العرب تأتيهم الأمطار في أوقات، وتنقطع عنهم في غيرها، فكانوا لذلك شديدي التعلق بها، وتراهم كثيراً ما يقلبون وجوههم في السماء، وذلك من أعظم المذكرات التي تذكرهم بالله وحاجاتهم إليه [2].

رابعاً: فإن حالة الجدب - المذكور - جعلت الغالبية في العرب بعيدة عن الترف والنعيم، منغمسة في الفقر والحاجة.

وهذا الوضع بدوره جعل الطبقة الثرية قليلة العدد، مشهورة بالاستعلاء على الناس، والاستغلال لبقية الفقراء والمحتاجين.

وكان من مفاسدها: أن نشرت الربا الفاحش بمكة، وجعلت الفائدة أضعاف المال الأصلي.

وقد صور القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى وهو ينهي المؤمنين عنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [3].

يقول المفسرون: كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله، زاد في الأجل، حتى يستغرق بالقدر الطفيف مال المدين كله [4].

---

(١) د. يوسف خلف: الشعراء والصعاليك، ص ٦٢.

(٢) د. احمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٧٧٧.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٣٠.

(٤) الزمخشري: الكشاف، جـ ١، ص ٤٦٣.

وأيضاً: فلقد أطبق أغنياء مكة على جميع الشؤون الاقتصادية بها، فاشتروا الرقيق واستعبدوا الفقراء في توجيه قوافل التجارة الضخمة.

وهذا وضع يجعل الفقراء يستجيبون تلقائياً لدعوة عادلة، قائمة على المساواة، وتحريم الظلم وإحساس الفرد أياً كان، ويندفعون إلى مساعدة هذه الدعوة التي تمنوها لخلاصهم، واستشعروها من قبل، في أنفسهم وخيالاتهم.

ومن هنا كان الفقراء ينصتون للدعوة، ويتدبرونها.

أما المترفون الأثرياء، فهم أعداء كل صلاح، وهم معارضون للرسالات دائماً، خفاظاً على وضعيتهم واستغلالهم [١].

لكن سرعان ما انهارت الطبقة المترفة أمام الدعوة، فدخل الناس في دين الله أفواجاً بعد الفتح.

يقول ابن خلدون: "عن الترف يبدو في بدايته قوة لكنه في النهاية ضعف يمضي ولا أثر له" [٢].

والمعروف عند الناس: أن الترف مفسدة، وأنه يميل بالقوى إلى الدعوة، لما يتعود عليه أثناء الترف من حياة راغدة لينة [٣].

خامساً: لقد أدى هذا الجدب – الذي أشرنا إليه – بالعرب وأهل مكة، إلى أن يبحثوا عن وسيلة للعيش، فكانت التجارة، وقد نظموها في رحلتين:

إحداهما: إلى الشمال صيفاً.

---

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٧٩.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٩٢.

(٣) فؤاد علي رضا: أم القرى، مكة المكرمة، ص ١١٥.

وثانيهما: إلى الجنوب في أثناء الشتاء.

وأدى اختلاط التجار العرب بالروم والفرس والهنود والأحباش، خلال جولات التجارة: أن أخذوا كثيراً من نظمهم، ونقلوها إلى الجزيرة العربية وقد اشتملت الحياة العربية على سائر النظم والعقائد [١].

ويلاحظ أن مكة ضمت العدد العديد، من الملل والأعراف، بسبب وقوفها في مكان تلتقي فيه جميع الطرق الآتية من كل الجهات.

فالطريق الغربي الذي يبدأ من ظفار جنوباً، وينتهي عند تيماء، يمر بمكة.

والطريق الشرقي الذي يبدأ من ظفار جنوباً، وينتهي عند صور بلبنان يتصل بمكة بواسطة طريق عرضي يبدأ من مكة، وينتهي عند القطيف.

وتتصل مكة – أيضاً – بالبحر الأحمر عن طريق مينائها جدة، وبذلك كانت مكة معبراً رئيسياً للقوافل الآتية من الشمال أو الجنوب فتأثرت بأوضاعهم [٢].

وهذا الأمر ساعد على وضع الأسس الإصلاحية التي لا تختلف من مكان إلى مكان، وتناسب كل الأجناس، وتناقش كل المعتقدات على اختلافها.

سادساً: إن البيئة المكية بيئة طاردة نافية لمن يقيم فيها ويدل على هذا المعنى: تسمية مكة: بكة. في القرآن. وهو اسم مشتق من البك، وهو الطرد والنفي.

وسميت بذلك، لأنها تبك المقيمين فيها، وتدفعهم إلى غيرها من البلدان والأقطار [٣].

---

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٨٠.

(٢) د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك، ص ١٢٥.

(٣) عبد القادر أحمد عطا: لماذا بعث الرسول في مكة، ص ١٥.

وإنما كانت مكة طاردة، لقسوة الحياة فيها، في الأحقاب البعيدة من التاريخ.

فقد وصفها إبراهيم الخليل – عليه السلام – وهو يودع ولده إسماعيل، وأمه هاجر عند البيت الحرام، قائلاً: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [١].

فهي بيئة مقفرة متحجرة الأرض، كثيرة الجبال، ملتهبة الجو، منخفضة المكان، تحيط بها الجبال من كل جهاتها، فإذا تسعرت الشمس، كانت نيرانها مسلطة على مكة من كل أقطارها.

فالصخور على أرضها، ومن حولها تلفح الأجساد، إلى جانب اللهب المسلط على أهلها، من أشعة الشمس المباشرة لرؤوسهم من فوق، فلا ماء، ولا زرع، ولا ثمر.

ومن ثم فلم تكن مكة أبداً بلداً يهاجر إليها الغريب، إلا لأسباب مادية بحتة.

أما قريش: فقد كان منصبها اللغوي والديني سبباً رئيسياً في بقائها في مكة[٢].

فالمادة وحدها، أو الضرورة وحدها، هي التي كانت تتحكم في بقاء سكان مكة في مكة، في تلك الأيام البعيدة.

أما أن تكون مكة أرضاً صالحة لنماء الأفكار الإنسانية، وتفاعلها مع غيرها

---

(١) سورة إبراهيم آية: ٣٧.

(٢) عبد القادر أحمد عطا، لماذا بعث الرسول في مكة؟، ص ١٥، ١٦.

من الأفكار الفلسفية التي كانت في تلك العصر، فهذا شيء أبعد ما يكون في التصور وفي الواقع.

فالفكر ولا سيما الفلسفة- لا يمكن أن ينمو إلا في بيئة مستقرة ورفيقة بالإنسان [١].

سابعاً: لقد فرضت الصحراء على العرب طباعاً وأخلاقاً خاصة تناسبهم، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولاً.

ثم صارت لهم على مر السنين جبلة وفطرة، وصارت لهم عنواناً بين الناس، وصقلتهم الحروب التي اكتوت الجزيرة بنارها ردحاً من الزمن.

ونستطيع أن نزعم بأن تلك الحياة الجاهلية الضنكة، والحروب التي اشتعلت، قد صهرتا ذلك المجتمع وتقاليده.

فنشأت وتكونت مجموعة من القيم والمثل، تعارف عليها المجتمع ، وآمن بها، واحترمها، والتزم بها [٢].

ثامناً: فإن التأخر الاقتصادي في الجزيرة تسبب في وجود طبقة عرفت بطبقة الصعاليك، وقد أخذت هذه الطبقة لنفسها مراكز في الخلاء الواسع [٣].

ووجود هذه الطبقة دليل على ضيق موارد الجزيرة حتى مع وجود موارد التجارة.

---

(١) السابق، ص ١٦ بتصرف.

(٢) د. عفيف عبد الرحمن: المثل والقيم، ص ١٢٧، من مجلة: مجمع اللغة العربية.

(٣) الأردني، المجلد ١٣- ١٤، ذو الحجة، ط: الأردن.

ومن هنا: نستطيع فهم السبب في الهجرات [1] التي خرجت من الجزيرة العربية في أفواج متتابعة.

إلا أن ثقل القوة في العالم، وتمركزها آنذاك في دولتي الفرس والروم اللتين استولتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة العربية، حسب القبائل في مكانها.

الأمر الذي أدى إلى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب القنص والصعلكة. فقامت المنازعات المتكررة بينهم.

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من هذا الوضع فلم تصطدم بتكتل واحد، يطغى بقوته، بل كان هناك دائماً صوت مع النبي ﷺ مع القبائل في أثناء ضعف المسلمين وقلتهم.

---

(١) د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص ١٣٤. أما هجرات الفتوحات الإسلامية: فقد كانت أسبابها ودوافعها تنطلق من الإيمان بالإسلام، وتبليغ الرسالة، وحباً في أن يكون كل مهاجر ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم". فهجرة الفتوحات الإسلامية غير الهجرات التي حدثت في الجزيرة العربية قبل الإسلام إذ إن الدوافع مختلفة وأثبتت الدراسات أن هجرة المسلمين لتبليغ الإسلام لم تكن أسبابها اقتصادية. بدليل، العربي الذي كان له ثراء عريض في مكة، وهو: ضمرة بن جندب حينما علم بهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، قال: احملوني إليه، وكان مريضاً لا يستطيع المشي، وقد حملوه حتى مات في الطريق، واختلف أهل المدينة في شأنه. فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء آية: ١٠٠]، وبهذا لا تنسحب هذه الهجرات على هجرة المسلمين، لنشر الإسلام وتبليغه في كافة الأصقاع المعمورة فيما بعد. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ ٢، ص ٣٤٦، ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٣، ص ٦١.

واستفادت العودة كذلك بأن صفت ما بين العرب من خلاف، وأزالت الاضطرابات الموجودة فيهم، فتوحدوا.

تاسعاً: يرى كثير من أهل الدراسة: أن الجزيرة العربية أحيطت بحواجز طبيعية منيعة. إذ وجدت المياه في ثلاث من جهاتها والجهة الرابعة كانت مرتفعات وسهولاً في الشمال.

وهي حواجز تحتاج في عبورها إلى تدريس وتمرس شاق، ما يتعلمها العربي إلا لحاجته، أما غيره: فليس له إلى ذلك حاجة.

وبذلك وقفت هذه الحواجز كسد قوي أمام المجموعات الغازية، من الفرس أو الروم [١].

وقد ترتب على ذلك، أن الغزاة لم يستطيعوا الوصول إلى سر الجزيرة العربية، فاحتفظ العربي بسجيته وفطرته، ولم تداخله تناقضات الفكر، ولا متاهات الفلسفة والجدل.

ولو قارنا سائر الأماكن، بالمكان الذي اختير لظهور الدعوة الإسلامية، لوجدنا تلك الأماكن غير صالحة، لأن تظهر الدعوة فيها.

فالفرس والروم ملكا قوة سياسية وعسكرية، استعملت في العنف والقسوة، كما أن سائر الأمم في هذا العصر كانت مهتمة بأفكار دينية خاصة بها.

ولم يحدث أن جمعت واحدة منها ما جمعته الجزيرة العربية من مختلف الملل والعقائد.

---

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٨٢.

كما أن كافة الهيئات حرمت أبناءها من النشاط الذي اكتسبه العربي بسبب مكة أم القرى، والكعبة، كما أن الجزيرة العربية تقع في وسط العالم المعروف آنذاك مع صيانتها بالحواجز [١].

فالمكان الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية، أحاطه الله بمجموعة من الظروف البيئية، جعلته مكاناً للدعوة الإسلامية [٢] .

■ ■ ■

(١) محمد حسنين هيكل: حياة محمد، ص ٧١، ط السابعة، دار القلم، بيروت.

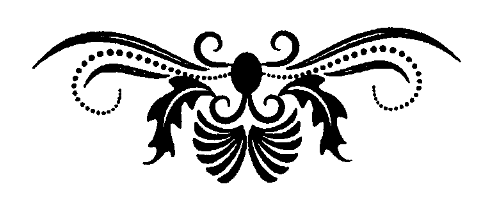
(٢) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٨٥.



الفصل الرابع

عناية الله في اختيار الزمان

لظهور الإسلام



إن عناية الله - سبحانه وتعالى - التي تجلت في اختيار المكان الأول لظهور الدعوة، تدفع بالباحث والمفكر إلى تلمس بعض مميزات الزمان، الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية، للوقوف على بيان فضل الله وكمال عنايته- جل شأنه.

ففي أوائل القرن السابع، وعلى حين فترة من الرسل، ظهرت الدعوة الإسلامية، هداية للناس أجمعين.

وأول ما يطالع الباحث في الإشارة إلى عناية الله سبحانه وتعالى قول الرسول ﷺ : "بعثت من خير قرون بني آدم، قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه" [(١)].

والمراد بالبعث - كما يقول العلماء - : "تقلبه في أصلب الآباء من الأبعد إلى الأقرب فالأقرب" [(٢)].

ولا يخفى على أحد: أن العلم يتعلق بسائر الحيثيات التي تحتاجها الدعوة، لكي تصل إلى هدفها.

ومن بين هذه الحيثيات المختارة، الزمن الذي ظهرت فيه الدعوة.

إذ لم يكن العالم كله في تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء، ولا يقال فيها بالإجمال، إلا أنها حالة فساد وإنحلال. فلا حالة للعلم، ولا للسياسة، ولا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مع فتح الباري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ، جـ ٦، ص ٥٦٦. ورواه أحمد في المسند، جـ ٢، ص ٣٧٣- ٤١٧. ورواه ابن سعد في الطبقات الكبرى، جـ ١، ص ٢٥.

(٢) أبو الطيب البخاري، عون الباري لحل أدلة صحيح البخاري، جـ ٥، ص ٣٧، ط مطابع قطر الوطنية، سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

للأخلاق، ولا للمرافق العامة، لا توصف بتلك الصفة، إلا وتغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات.

وإذا نظرنا إلى الأحوال في جملتها، وجدنا أنها هي الأحوال التي تنادي في كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية.

إن ظاهرة واحدة، كانت تلف تلك الظواهر جميعاً في طياتها وهي فقدان الثقة بكل شيء، ولا معنى لذلك في كلمة موجزة، إلا أن الثقة هي المطلوبة، وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذي استشرى في كل مكان [1].

الحالة الدينية:

كانت حالة الناس قد وصلت من الفساد إلى النهاية، وبلغت البشرية الدرك الأسفل من الانحطاط، وغشيت العالم كله ظلمات كثيفة من الكفر، والجهل، والفجور.

وغير الناس، وبدلوا في الدين، وحرفوا كثيراً مما أنزل الله على رسله من الكتب، وعبدوا من دون الله آلهة شتى.

فالبوذيون كانوا يعبدون "بوذا" والهندوس كانوا يعبدون البقر، والمجوس كانوا يعبدون النار.

وكانت أمم تعبد الملائكة والجن، وأمم تعبد الصور والتماثيل، وأمم تعبد آثار الموتى، وأرواحهم.

---

(١) العقاد، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ ٧، ط دار الكتاب اللبناني، سنة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م، ص ٢٣٦.

وكانت أمم تعبد مظاهر الطبيعة وتقدسها، منهم: من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم: من يعبد الحجارة [(١)].

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[(٢)]

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[(٣)].

وتفرق أهل كل دين مذاهب وشيعاً، واشتد بينهم الخلاف والجدل، حتى غدا الدين الواحد خليطاً من المذاهب المتناقضة، وسادت الخلافات والخرافات والأوهام، وشاعت الإباحية والفوضى، وارتكبت الفواحش باسم الدين[(٤)].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[(٥)].

وكان العرب أسوأ الناس حالاً، وأشدهم إمعاناً في الجهالة والضلالة، فقد أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، وعبدوا العديد من الأصنام، والأوثان، والأنصاب والتماثيل، والأشجار، وكثبان الرمال، وعبدوا الملائكة والجن.

واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والحجارة تتصرف في أمورهم، وفي مستقبل حياتهم.

---

(١) محمود الحسيني: الدين المقارن، ص ١٤٣.

(٢) سورة البقرة آية: ١١٣.

(٣) سورة التوبة آية: ٣٠.

(٤) أمين دويدار: صور من حياة الرسول ﷺ، ص ١٠٦، ط الأولى، القاهرة.

(٥) سورة الروم آية: ٤١.

وكان إيمانهم بالله إيماناً مشوشاً مضطرباً، يعتقدون أنه الإله الأكبر، الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾[1].

ولكنهم يؤمنون بأن هناك آلهة أخرى، تخلى لها سبحانه عن بعض التصرفات كشفاء المرضى، ومنح الذرية، وإنزال الغيث، وتصريف الرياح، وإبعاد المجاعة، وكشف الضر، وجلب الخير.

وإن هؤلاء الآلهة وسائط بينهم وبين الله، يتوسلون بهم إليه في طلب ما ينفعهم، ودفع ما يضرهم، ويستشفعون بهم لديه في التجاوز عن ذنوبهم، والعفو عنهم[2].

حالة الإمبراطورية الرّومانية:

إذا ذهب الباحث إلى البلاد المجاورة للبلاد العربية، ليتعرف على أحوالها قبل بعثة محمد ﷺ، فلا يجد إلا اضطراباً سياسياً، شاملاً، وفوضى دينية عامة، وانحلالاً اجتماعياً فاشياً.

فالإمبراطورية الرومانية كانت في القرن السابع الميلادي مفككة الأوصال، وكانت قد قسمت إلى إمبراطوريتين:

إمبراطورية شرقية عاصمتها، القسطنطينية.

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٦١.

(٢) أمين دويدار: صوّرة من حياة الرسول ﷺ، ص ١٠٧.

وإمبراطورية غربية، عاصمتها: رومية.

وكانت علامات الضعف وإمارات التفرق، بادية في كل من الإمبراطوريتين، وكان ذلك بسبب تنازع الأحزاب السياسية، والفرق الدينية[١] .

لقد حل الدمار بالإمبراطورية الرومانية، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت حضارتها قائمة على أكتاف الفقراء، الذين كانوا يعملون لحساب الأغنياء.

فتاريخ هذه الدولة عبارة عن : إهمال، وفساد، واختلال، وهرج، ومرج، وفوضى. عمت جميع فروع الحكومة، وقد تخاطفت أجزاءها الأمم الضعيفة، وفتكت بها ثورات القائمين بخدمة القصر، وأخضعها محبو الظهور، من رجال الجندية، فظهرت بها الجرائم وأعمال النهب والسلب، واختفت آثار الثقافة والكرامة الشخصية [٢].

لقد ساءت الأحوال الاجتماعية والسياسية في جميع أنحاء الممالك الخاضعة للمسيحية، فقد حال النظام القائم في تلك الجهات، دون حرية التفكير، وحرية الحكم على الأعمال، ولم يتورع أتباع المسيح الخاضعون لسلطانه، أن يشوهوا وجه العصر، ويجعلوه عصر اضطهاد وإزهاق للأرواح، وذبح كل ثائر أو خارج

---

(١) حامد عبد القادر: الإسلام وظهوره، ص ٧٥ – ٧٦، عمر رضا كحالة: العالم الإسلامي، جـ ١، ص ٩٧– ٩٨.

(٢) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول ﷺ، ص ٣٥، ط وزارة الأوقاف المصرية، سلسلة مكتب الإمام رقم ٥٢ن ربيع الأول، سنة ١٣٨٩هـ.

على الكنيسة الرسمية [١] .

يضاف إلى ذلك: أنه لم تبق نحلة - في هذه الإمبراطورية - من النحل الكثيرة، إلا وحكمت على متناقضيها بالمروق.

وتعددت هذه النحل بين "الأريوسية"[٢] و "النسطورية" و "اليعقوبية" و "الملكانية"[٣]. على تباعد الأقوال في الطبيعة الإلهية، ومنزلة الأقانيم الثلاثة منهم.

ويأتي النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية، فيقضي على البقية من الثقة والطمأنينة، ولا يدع ركناً من أركان العقيدة بعيداً من الجدل والإتهام [٤].

حالة الإمبراطورية الفارسية :

وكثيراً ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح وينهبون أموالهم،و أحياناً

---

(١) حامد عبد القادر: الإسلام وظهوره، ص ٨٠.

(٢) الأريوسية: هي مذهب مسيحي، وإحدى الطوائف التي لم يعد لها وجود، تنسب إلى آريوس (٢٥٦م- ٣٣٦م) أحد كهنة الإسكندرية، وتنص عقيدة التوحيد المسيحي التي تبناها آريوس على أن "الله واحد فرد غير مولود، لا يشاركه شيء في ذاته تعالى، فكل ما كان خارجًا عن الله الأحد إنما هو مخلوق من لا شيء، وبإرادة الله ومشيئته"

تقول الدكتورة زينب عبد العزيز، أستاذ الحضارة الفرنسية بالجامعات المصرية:

"وأهم ما تمسك به آريوس الرافض لتأليه يسوع، هو أن الإبن أقل من الأب لأنه مخلوق ولا يمكن مساواته بالخالق، ولا يمكن للإبن أن يكون بنفس خلود الله وأزليته، وهو ما يهدم العقيدة المسيحية من أساسها...، وفي واقع الأمر، لم يكن ذلك فكر آريوس وحده، وإنما كان بمثابة الإطار العام الذي ينتمي إليه منطقيا السواد الأعظم من الأتباع ومن رجال الدين لأنه الأقرب إلى العقل والمنطق".

(٣) النسطورية واليعقوبية والملكانية: جميعها من كبار الفرق والمذاهب والطوائف المسيحية القديمة.

(٤) العقاد: المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ ٧، ص ٢٤١. عمر رضا كحالة، العالم الإسلامي (العرب قبل الإسلام- البعثة المحمدية)، جـ ١، ص ٩٨.

كانت تدور الدائرة على الفرس، فيغلبهم الروم، ويقتلون منهم، ويأسرون، ويخربون ديارهم، ويضمون أملاكهم إلى أملاكهم.

وكذلك كان القياصرة والأكاسرة متنازعين، لا يكفون عن المقاتلة إلا قليلاً[١].

وفي أوائل القرن السابع الميلادي: اشتبكت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية في حروب، كانت سبباً في ضعفهما معاً، وضعف فارس بوجه خاص[٢].

وفي الفترة التالية، حدثت بفارس اضطرابات، وفتن داخلية، وتنافس على العرش عدد من الأكاسرة، فكان الواحد منهم يولى، ثم يعزل، بعد مدة قصيرة.

ومن المعروف أن ستة منهم تولوا العرش في أشهر قلائل، وذلك بتدخل الجنود، ورجال الحرس الإمبراطوري، الذي أطلقوا أيديهم، وكانوا أصحاب التصرف المطلق، في شؤون الدولة، فكانوا هم الذين يولون الأكاسرة، ويعزلونهم كما يشاءون، وبذلك سقطت هيبة الملك، وقلت قيمة العرش، وعمت الفوضى، وانتشر الفساد وساءت حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية، إلى درجة لا تطاق[٣].

ثم كانت الطامة الكبرى في عهد قباذ ابن كسرى أنوشروان الذي حضر بعثة النبي ﷺ وتلقى رسالته بالسخط والوعيد.

(١) عمر رضا كحاله: العالم الإسلامي، جـ ١، ص ١٠١، المكتب الفني الأوقاف (جوانب من حياة الرسول) ص٣٦.

(٢) المكتب الفني بوزارة الأوقاف، جوانب من حياة الرسول، ص ٣٦.

(٣) حامد عبد القادر: الإسلام وظهوره، ص ٨٨.

ففي عهد قباذ ظهر مزدوك داعية الإباحية والفوضى، في الأولاد والأعراض، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية إلى التوحيد، أو ما يشابه التوحيد.

وقال: ما قال ماني من قبله: إن العالم كله في قبضة الله إله النور، وإله الظلام.

غير أنه زاد عليه: أن النور يفعل بالقصد والاختيار، وأن النور عالم حساس، والظلمة جاهلة عنها [١].

وبالرغم من نتائج المصلحين الذين اجتهدوا غاية الاجتهاد في تطهير الديانة المجوسية من الوثنية،و المراسم الهيكلية، لم تزل عقيدتهم جميعاً في الأرواح والشياطين حائلاً بينهم وبين التوحيد، فإن موالاة الأرواح، ومحاذرة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار، عدا الإلهين الأقدمين: إله النور وإله الظلام [٢].

حالة الهند:

وأما في الهند، فقد انتشر مذهب إباحة النساء، بواسطة دعاة أقوياء.

وقد بلغ من الفحش: أن الكاهن الهندي كان يحظى بالعروس في اللقاء الأول، لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة.

وكانت الأناشيد التي تنوء بالمنكرات والفضائح، تلقى في الاحتفالات

---

(١) العقاد: المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، جـ ٧، ص ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق، الجزء نفسه، ص ٢٣٨.

العامة، فتمد مستمعيها من الغواية بأسباب، وتفتح لهم من الآثام كل باب"[1].

حالة بلاد العرب:

كانت حالة العرب قبل الإسلام طوائف متنازعة، وقبائل متباغضة، وديانات متنافرة، ونحلاً متحاسدة، ولم تستطع اليهودية، ولا النصرانية – بالرغم من نشاط دعاتهما – أن تجمع شملهم، وتؤثر في نفوسهم.

وكانت أطراف الجزيرة العربية، لقمة سائغة في أفواه المغيرين من الأجانب، فقوي نفوذ الأكاسرة في الحيرة، وما حولها، وظهر سلطان الروم في الشام وبلاد الغساسنة.

ودخل الأحباش ثم الفرس بلاد اليمن، وكان هؤلاء الأجانب يحرضون أنصارهم من العرب على أعدائهم، ومن يناصرهم من العرب.

فكان العربي يعادي أخاه العربي ويقاتله، ويريق دمه، لا لسبب سوى الانتصار للأجانب[2].

وقد ظلت بلاد اليمن محلاً للنزاع، ومسرحاً للقتال، قروناً متعددة وكانت الحروب تقع لأسباب دينية، بين يهود خيبر، ونصارى الأحباش ومجوس فارس[3].

والأمة العربية كانت قبائل متخالفة في النزعات خاضعة للشهوات، فَخْرُ

---

(١) محمد جاد المولى: محمد المثل الكامل، ص ٦٤، ط دار إحياء الكتاب العربي بمصر.

(٢) حامد عبد القادر: الإسلام وظهوره، ص ٧٧.

(٣) المكتب الفني بوزارة الأوقاف (جوانب من حياة الرسول)، ص ٣٧.

كل قبيلة في قتل أختها، وسفك دماء أبطالها، وسبي نسائها، وسلب أموالها... تسوقها المطامع إلى المعامع، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات [١].

ويضاف إلى ما سبق: أن نظام حياة العرب كان قائماً على الظلم. ظلم القوي للضعيف، وتحكم القادر في العاجز، وكان اعتمادهم على القوة وحدها.

فكانت الإغارة، والسلب، والنهب، والأخذ بالثأر، وحب الانتقام، هي العلاقة التي تربط بين القبائل بعضها وبعض، حتى صارت الحرب نظامهم المألوف وحياتهم المعتادة.

وكانت مناقشة تافهة، تكفي لإشعال حرب طاحنة، وثارات يتوارثها الخلف عن السلف، وكان القتال إذا اشتعلت ناره، دام عدة سنين، وقد يدوم عشرات السنين، حتى غدا تاريخهم في الجاهلية، سلسلة من الحروب الداخلية لا تكاد تنتهي.

ولم يكن لهم نظام جامع ولا حكومة موحدة، بل كانوا قبائل متفرقة، كل قبيلة تؤلف وحدة قائمة بذاتها، مستقلة في نظامها، وتقاليدها، وأحكامها [٢].

ومن مظاهر الظلم في حياة العرب: أن المرأة عندهم، لا تكاد تبرز حتى يعرف فيها طالع الشؤم.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ [٣].

(١) محمد عبده : رسالة التوحيد، ص ١٨٠، ط دار الهلال، سنة ١٢٨٢هـ.

(٢) أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ص ١٢.

(٣) سورة النحل آية: ٥٨- ٥٩.

ولعل الأبيات الثلاثة التالية لإحدى البدويات، تعبر تماماً عن هذه الحالة، عندما وضعت أنثى وغضب زوجها، فامتنع عن المجيء إلى بيته، وأقام عند الجيران، اشمئزازاً، فقالت زوجته متعذرة:

ما لأبي حمزة لا يأتينا	يقيم في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا	والله ما ذلك في أيدينا
فنحن كالأرض للحارثينا	ننبت ما قد غرسوه فينا [(١)]

تستقبل شر استقبال، ولا ترث، وتُملك ولا تملك وكان البعض القليل ممن يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه [(٢)] إلى غير ذلك من مظاهر الظلم، والاستبداد، والإذلال.

وكانت الأنثى على العموم مجلبة الحزن، ومظنة العار والفقر [(٣)].

تلك أحوال كانت في العرب والروم والفرس وغيرهم، وهذه الأحوال التي عرضنا لها بإيجاز، كانت مقدمات، والمقدمات لا تأتي بنتائجها على وتيرة الداء الذي يتبعه الفناء.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ ٣، ص ٤٨٢، ترجمه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ب القاهرة، سنة ١٣٦١هـ، ١٩٤٢م. الجاحظ: البيان والتبيين، جـ ١، ص ١٨٦، ط مصر، سنة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٦م. د. نايف محمود معروف: طرائف ونوادر من عيون التراث العربي، الكتاب الأول، ص ١٧٤ - ١٨٣، ط دار النفائس.

(٢) صبري عبد الرؤوف وأحمد السايح: المرأة المسلمة وقضايا العصر، ص٥، ط الأولى، دار الطباعة المحمدية بالقاهرة، سنة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

(٣) أمين دويدار، صور من حياة الرسول، ص ١١٢.

ولكنها مقدمات العناية الإلهية التي تدبر الدواء للداء المتحكم على غير انتظار وبغير حسبان، عالم إذا صح أن يقال عنه: أنه كان ينتظر شيئاً من وراء الغيب، فإنما كان ينتظر عناية الله.

وإذا كنا عرضنا لأحوال العرب والفرس والروم والهنود، فإنه يجدر بالباحث أن يتعرف على أهم خصائص العصر الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية.

والدراسة والبحث يقفان بنا إلى أن هذا العصر قد تميز بالخصائص الآتية:

أولاً: تعدد الصراع:

فقد ساد العالم في هذا الزمان صراع مهم، فلم تخل أمة أو منطقة منه، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة، أو بينها وبين غيرها.

وأهم ما تميز به هذا العصر: هو تكرار الصراع تكراراً متلاحقاً، فمن هزم اليوم ينتصر غداً، وهكذا دواليك، من غير توقف.

وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي أو اقتصادي، أو ديني، تبعاً لاختلاف البيئات.

ففي البيئة العربية، لم ينشأ صراع بسبب السلطة، خصوصاً بعد أن وزع قصي الأعمال بين القبائل، وجعلها فيهم وراثية وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان [1].

وإذا ذهبنا نبحث عن الصراع في البيئة الرومانية، وجدنا أن الصراع ينحصر في الدين والسياسة.

---

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٨٧.

وفي الفرس كان الصراع هو الدين.

وفي الحبشة كان السبب كذلك هو الدين.

وفي الهند كان هو نظام الطبقات.

إلا أنه من تنوع أسباب الصراع، فإن هناك أسباباً كانت موجودة في سائر الأمم، من أمثال: ظاهرة الرق [١].

لقد كانت دولتا العالم دولة الفرس في الشرق، ودولة الرومان في الغرب، في تنازع وتجالد مستمر، دماء بين العالمين مسفوكة، وقوى منهوكة وأموال هالكة[٢].

ومما يذكر: أن الصراع الداخلي ساد سائر الأمم، في الدولة الرومانية الشرقية فقد قامت ثورات عدة، أشهرها: ثورة الزرق والخضر في أثناء حكم جستنيان سنة ٥٣٢م، التي طالبت بإقصاء وزير المالية، وإجراء تعديلات كثيرة، وقد قضى "جستنيان" على هذه الثورة بإهراق دماء كثيرة، وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً [٣].

وفي الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية، وقامت ثورات عدة وحروب كثيرة، من أشهرها في بلاد الغال "فرنسا" إذ ظهر الصراع على أشده.

وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس، الذي استمر مدة طويلة وكذلك

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٨٧.

(٢) محمد عبده: رسالة التوحيد، ص ٧٧.

(٣) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٨٨.

حرب البسوس، وحرب داحس بين الأوس والخزرج، وقد استمرت إلى قبيل الإسلام [١].

ومع الصراع الإقليمي وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم، إذ اشتبكت الإمبراطوريتان، الفارسية والرومانية، في حروب كانت سبباً في ضعفهما [٢].

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره، يؤدي حتماً إلى تغيرات اجتماعية ومن المتغيرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع، ظهور قوى جديدة وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة.

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا، لأن القوى الجديدة التي ظهرت في مكة ممثلة في الحنفاء والحكماء، كانت ركيزة لانطلاق الدعوة.

ثانياً: تفتح الأذهان على خطورة هذه الصراعات:

إن التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع، كما أن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص، والهروب مما هي فيه.

وذلك لأن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى، يفيدان الدعوة في كثير، فبالذهن الصافي، تفهم التعاليم والأفكار، وبذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها.

---

(١) المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢) حامد عبد القادر: الإسلام وظهوره، ص ٨٩.

كما أن فكرة البحث عن قيمة راقية، وخلاص للضعفاء، بدأت تأخذ وضعاً مطرداً.

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول والعمق. إذ انتشرت في العالم كله بشكل مستمر ومتجدد، كما أنها لامست سائر حياة الناس وعاشت في نفوسهم وأحلامهم، ولذلك كانت نهايتها أمينة صادقة، على مستوى هذا الشمول وهذا العمق [١].

ومن هنا: فإن الإنسان لا يعدو الحقيقة، حين يذكر: أن صراع ذاك العصر، كان من حكمة ظهور الدعوة فيه.

وجلت حكمة الله القدير وحاشاه- أن يختار زماناً غير ملائم للدعوة، أو يكون اختياره لهذا الزمان بالذات غير مقصود، لأن الحقيقة الثابتة بكل إتقان ودقة، والمتعلقة بكل شيء تنبع من قوله تعالى: ﴿....وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[٢].

ثالثاً: النضج الفكري:

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقلياً في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس، حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده، وأعادته الحوادث الماضية إلى رشده [٣].

ولعل المراد من النضج العقلي المذكور: هو وصول الإنسان إلى التفكير

---

(١) د. احمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٨٩ بتصرف.

(٢) سورة الرعد آية: ٨.

(٣) محمد عبده: رسالة التوحيد، ص ٢٢٥.

الكلي المنظم، الذي يستنتج من المحسوس، ومن القضايا العقلية، أشياء أخرى غيرها، وينظر للحياة نظرة فيها الرضا، القائم على التحليل والنقد، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم.

ذلك أن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط، إذ تبهر بالعجائب، وتسحر بالظواهر الخارقة [(١)].

فالنضج العقلي قد ساد العالم كله، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان، متجهاً إلى الناحية الدينية وأوهامها.

ففي العالم المسيحي الواسع، بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلانية.

من أمثال: المناداة بألوهية المسيح، وتركيبه من طبيعتين مع إصرار هذه الأصوات على مذهب الفطرة، القائل: ببشرية المسيح، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة.

وقد اختاره الله – سبحانه وتعالى ليكون رسولاً نبياً من قبل الإله الواحد وأحاطه بالحواريين، دفعاً إلى تصديقه في دعواه.

وما دفعهم إلى هذا الرأي إلا عقلهم الذي أبى التصديق بما هو وهم وخيال[(٢)] .

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم، لوجدنا أن الهنود قد أيدوا ثورة بوذا

(١) د. أحمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٩١.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

على الهندوكية [١] في بعض تعاليمها، ومحاولتها تبسيط العقائد والاهتمام بالأخلاق، والعودة إلى الفطرة [٢].

وفي الجزيرة العربية – وبالرغم من تعمق القوم في تقديس الأصنام وتعظيم الحجر – فإن النضج الذي اتسم به العصر، بدأ يظهر في العرب، إذ اتجهوا بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام [٣].

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلي عند العرب: ظاهرة الحنفاء الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم، فساد ما عليه الناس، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق والطريق إليه [٤].

رابعاً: انتظار رسول جديد:

كان للنضج الذي ساد العالم، وكثرة الصراع وتنوعه قبيل الدعوة، أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يوم ذلك.

والنقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال النقد في هذه العقائد، التي توجه النقد إليها.

ومن هنا: صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبي من العرب، يصلح فساد هذا العالم، ويضع الحقيقة الفاصلة في مسألة العقيدة، والسلوك، وكل ما يسنده الناس إلى الأصنام ويطلبونه منها.

---

(١) الهندوسية، وفي لفظ يطلقه الأوربيون على ديانة اليهود.

(٢) د. محمد عبد المنعم الشرقاوي: ملامح الهند وباكستان، ص ١٤٣، ط الأولى، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٥٢م.

(٣) د. احمد غلوش: الدعوة الإسلامية، ص ٩٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٩٥.

وقد وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد، لدرجة أن اليهود في المدينة "يثرب" كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين، وكثيراً ما ذكروا لجيرانهم من الأوس، والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي ﷺ فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم، وتملك الناس، وقتل الأوس والخزرج، قتل عاد وإرم [(١)].

والقرآن الكريم يقص ما كان منهم في هذا الشأن، بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [(٢)].

أي: كانوا قبل مجئ هذا الرسول، بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين، إذا قاتلوهم،و يقولون: إنه سيبعث نبياً في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم [(٣)].

وكانوا يقولون: "اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد نعته وصفته في التوراة، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا. فنقتلكم معه قتل عاد وإرم [(٤)].

وكانوا يسألون العرب عن مولده ويصفونه بأنه نبي من صفته كذا وكذا، ويتفحصون عنه، والآية نزلت في بني قريظة والنضير، فقد كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج، برسول الله قبل البعث [(٥)].

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٨٩.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ ١، ص ١٧٨.

(٤) الزمخشري: الكشاف، جـ ١، ص ٨١.

(٥) الرازي: التفسير الكبير، جـ ٣، ص ١٩٤.

ورأى اليهود له وزنه عند جيرانهم، قبل البعثة، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم ببعض أسرار الوحي وعلاماته.

فلقد روي أن مشركي مكة – لما بعث محمد ﷺ : أرسلوا وفداً منهم يسأل اليهود عن رأيهم في هذا الرسول الذي أتاهم ودعاهم بدعوته [١].

ولم تكن هذه المعرفة مخصوصة بيهود المدينة وحدهم، فلقد انتشر خبرها في أماكن كثيرة، ووصلت إلى أقصى الشمال.

لدرجة أن سلمان الفارسي، حينما أراد أن يترك المجوسية، ويبحث عن الدين الحق ليعتنقه، سمع من يقول: أنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم – عليه السلام – يخرج بأرض العرب، مهاجر إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، وبه علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة.

وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى، لأنهم: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ [٢].

يقول ابن كثير في تفسيره: وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أممهم ببعثه، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم [٣].

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ ١، ص ٣٢٠.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٥٧.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ ٣، ص ٤٨١.

لقد أكدت النصوص القرآنية والسنة النبوية وجود البشارة بالنبي محمد ﷺ، في كتب الأنبياء، وقد أمروا أممهم باتباعه ونصرته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [(١)].

وقال علي رضي الله تعالى عنه: "ما بعث الله نبيا آدم فما دونه إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد ﷺ وهو حي، ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنه" [(٢)].

وأهل الكتاب يعرفونه ﷺ كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [(٣)].

والبشارة بالنبي ﷺ، وذكر صفاته جاءت في كتب اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [(٤)].

وكما وصل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال، وصل كذلك إلى أقصى

---

(١) سورة آل عمران آية: ٨١.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٣٣٢).

(٣) سورة الأنعام آية: ٢٠.

(٤) سورة الأعراف آية: ١٥٧.

الجنوب، فقد روى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير، أفضى سيف بن ذي يزن لعبد المطلب، بما علمه من كتبه من أن نبياً سوف يظهر في العرب، يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة [١].

وهكذا ظهرت ملامح وطوالع النبوة في عقول الناس، وفي كثير من الأماكن وهذه الملامح والطوالع في حد ذاتها تمهد للدعوة، وتدعو إلى استماعها بشوق.

خصوصاً وقد حدثت أحداث كثيرة، جعلت الناس ينتظرون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر للدعوة الإسلامية، وظهورها في العالمين.

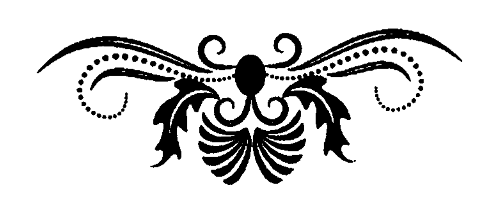
■ ■ ■

(١) الأزرقي: اخبار مكة، جـ ١، ص ٩٤ - ٩٦ بتصرف.



الفصل الخامس

الرسل وطبيعتهم



الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان، فيجب الاعتقاد بأن الله أرسل رسلاً من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه.

قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبين لسلطانه القاهم على عباده، وتفصيل أحكامه،وفي فضائل أعمال، وصفات يطلبهم بها، وفي مثالب فعال (نقائض،فعال)، وخلائق ينهاهم عنها.

وأن يعتقد بوجوب تصديقهم في أنهم يبلغون ذلك عن الله، ووجوب الاقتداء بهم في سيرهم، والائتمار بما أمروا به، والكف عما نهوا عنه.

كما يجب الإيمان بأن الرسل يؤيدون من العناية الإلهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية، وأن هذا الأمر الفائق المعروف للبشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه، فمتى ادعى الرسول النبوة، واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته.

ومن لوازم ذلك بالضرورة: وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم، وصحة عقولهم،و صدقهم في أقوالهم وأمانتهم في تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة، وأنهم منزهون عما يضاد شيئاً من هذه الصفات المقدمة.

وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية [١].

(١) رسالة التوحيد: ص ٨٢، ط. دار المعارف.

بشرية محمد ﷺ

ولقد كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بشراً قبل أن يبعثه الله رسـولاً. له طبيعة البشر. يأكل ويشرب ويصحو ويغضـب ويفـرح علـى غـير ذلـك مـن أعمال البشر.

ولقد أنكر الكفـار قـديماً علـى رسـل الله أن يكونـوا مثـل النـاس يـأكلون وينكحون ويمشون في الزحام.

وكذلك قال كفار قريش في رسول الله ﷺ .

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾[1] .

في هاتين الآيتين: يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم، وتكذيبهم لحق بـلا حجة ولا دليل فهم يستنكرون أن يأكل الرسول الطعام ويحتاج إليـه، ويـتردد في الأسواق للتكسب والتجارة مثلهم، ثم يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له مشاهداً على صدق ما يدعيه، وهذا كما قال فرعون لموسى:

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

وقد رد سبحانه وتعالى عليهم هذا القول بقوله:

---

(١) سورة الفرقان الآيتان: ٧، ٨.

(٢) سورة الزخرف: آية ٥٣، ابن كثير جـ ٣ ص ١١.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾(١)

ومعنى ذلك: أننا لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه.

ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر.

فمن رحمة الله أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم يدعو بعضهم بعضاً وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾(٢).

بشرية جميع المرسلين إلى البشر

فالرسول ﷺ يجري عليه كل ما يجري على البشر، وإنما يمتاز عنهم بوحي الله إليه وبتنشئته تنشئة تليق بمهمته، وكذلك الشأن بالنسبة لجميع المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾(٣).

---

(١) سورة الأنعام الآيتان: ٨، ٩.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٦٤، ابن كثير جـ ٢ ص ١٢٤.

(٣) سورة يوسف آية: ١٠٩.

ومعنى الآية: أن الرسل لم يكونوا من أهل السماء كما طلب الكفار.

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾[2].

أي جميع الرسل الذين أرسلوا إلى البشر للتبشير والإنذار والتعليم كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، ولكي تدركوا صدق ذلك اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟.

وإنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم[3].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾[4].

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ إنما أنا بشر، أنسى كما تنسون،

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ١١.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٧، ٨.

(٣) سورة الأنبياء الآية: ٧، ٨.

(٤) سورة الكهف الآية: ١١٠.

فإذا نسي أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس" رواه أحمد وابن ماجه (صحيح)[١].

وإنما قال رسول الله ﷺ ذلك حين اعتراه السهو في الصلاة. وغني عن التنبيه أن السهو هنا وإن كان من طبيعة البشر إلا أنه وقع للرسول ﷺ للتشريع حتى إذا سها أحد أفراد أمته في صلاته سجد سجدتي السهو.

وعن أم سلمة رضي الله عنها. أن الرسول ﷺ قال: "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى فعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته [٢] من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها" رواه مالك وأحمد والبخاري ومسلم [٣].

وفي الحديث السابق أوضح الرسول ﷺ أنه حين يحكم بين الناس إنما يحكم بينهم حسب النمط البشري الذي يزن الحجة بصرف النظر عن الواقع والحقيقة.

حاجة الناس إلى الرسل

قال ابن القيم:

"إنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم.

ولا ينال رضى الله ألبتة إلا على أيديهم فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم

---

(١) الجامع الصغير جـ ١ ص ١٧٦.

(٢)الجامع الصغير جـ ١ ص ١٧٦.

(٣) ألحن بحجته: افصح وابلغ.

وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها.

فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة.

فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسول كهذه الحال بل أعظم ولكن لا يحس بها إلا قلب حي.

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب منجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلية، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم" (١).

قال تعالى في وصف النبي ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (٢).

---

(١) ابن القيم: في زاد المعاد على هامش الزرقاني جـ ١ ص ٤٦، ٤٧.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٥٧.

وقال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري: "مثلي كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، هلم عن النار فتغلبوني تقحمون فيها "اللفظ لمسلم" [١].

بين الفلاسفة والمرسلين

قال رشيد رضا:

إن حكمة الحكماء وعلوم الفلاسفة آراء بشرية ناقصة وظنون لا تبلغ من عالم الغيب إلا أنه موجود مجهول. وهي عرضة للتخطئة والخلاف ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس.

وما كل من يفهمها يقبلها، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته، إذ لا سلطان لها على وجدان العالم بها، فلا يكون لها تأثير الإيمان وإسلام الإذعان والتعبد.

لأن النبوغ البشري يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله في بشريته وإن فاقه في علمه وحكمته وإنما يدين الإنسان لمن يعتقد أن له سلطاناً غيبياً عليه بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه.

وأضرب لهذا مثلاً:

---

(١) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم جـ ٢ ص ٣٩٤ – ٣٩٦.

أنه كان للفيلسوف الرئيس ابن سينا خادم متعلم معجب بعلومه وفلسفته وكان يعجب منه كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه وهو في رأيه أعلم منه وأرقى؟

وكان يكاشفه بذلك فيعرض عنه أو يوبخه، فاتفق أن كانا في مدينة أصفهان في ليلة شديدة البرد كثيرة الثلج، فأيقظ الرئيس خادمه في وقت السحر وطلب منه ماء ليتوضأ به فاعتذر بشدة البرد، حتى إذا قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله.

قال الرئيس لخادمه اسمع ماذا يقول المؤذن. قال: أنه يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله.

قال الرئيس: الآن قد آن لي أن أبين لك ضلالك القديم. إنك خادمي لا عمل لك غير خدمتي وإنك أشد الناس إعجاباً وإجلالاً وتعظيماً لي، حتى إنك تفضلني على رسول الله ﷺ وتنكر علي أن أؤمن به وأتبعه. وإنك على هذا كله تخالف أمري في أهون خدمة أطلبها منك في داخل الدار معتذراً بشدة البرد.

وإن هذا المؤذن الفارسي يخرج من بيته قبل الفجر ويصعد هذه المنارة وهي أشد مكان في البلد برداً حتى إذا لاح له الفجر أشاد أذانه بذكر محمد العربي بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته إيماناً وإذعاناً وتعبداً واحتساباً.

فتأمل هذا وتدبره في نفسك يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس وسلطان العلم والفلسفة"[1].

ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده:

---

(١) الوحي المحمدي لرشيد رضا ص ٤٧ ، ٤٨.

وهل كفى في إقناع جماعة أو أمة قول عاقلهم: إنهم مخطئون وأن الصواب فيما يدعوهم إليه وإن أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء؟.

لم يعرف ذلك في تاريخ الإنسان ولا هو مما ينطبق على سننه ... وكل إنسان مهما علا فكره وقوي عقله ضعفت فطنته وانحطت فطرته يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته... وتشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوى العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها تارة أخرى، ولا سبيل لها إلا الطريق التي حددت لنوعها وهي طريق النظر فذهب كل من طلبها وراء رائد الفكر....

فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم، وأيد ذلك زيادة في الإقناع بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول.

فيستخذي الطامح ويذل الجامح، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده وينبهر لها بصر الجاهل فيرتعن غيه، يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له.

ويستوي في الركون لما يجيئون به المالك والمملوك والسلطان والصعلوك والعاقل والجاهل والفضول والفاضل، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري.

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه

من شئون ذاته وكمال صفاته: "أولئك هم الأنبياء والمرسلون" صلوات الله وسلامه عليهم ومن متممات كون الإنسان ومن أهم حاجاته في بقائه ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أتمها الله [١]: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [٢].

والرسل طائفة مختارة من الله :

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [٣]

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالته [٤].

وقال الطبري في تفسيرها: "إن الله يختار من الملائكة رسلاً كجبريل وميكائيل اللذين كان يرسلهما إلى أنبيائه ومن شاء من عباده، ومن الناس كأنبيائه الذين أرسلهم إلى عباده من بني آدم.

وسبب نزول هذه الآية: أن المشركين لما قالوا: أأنزل عليه الذكر من بيننا؟ قال الله لهم ذلك إلي وبيدي دون خلقي – فاختاروا من شئتم للرسالة" [٥]

---

(١) رسالة التوحيد: ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) سورة النساء آية: ١٦٥.

(٣) سورة الحج آية: ٧٥.

(٤) ابن كثير جـ ٣ ص ٣٥.

(٥) الطبري جـ ١٧ص ١٤٢.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾ (١).

يقول الطبري عند تفسير هذه الآية: إن هؤلاء الذين ذكرنا عندنا لمن الذين اصطفيناهم لذكرى الآخرة الأخيار الذي اخترناهم لطاعتنا ورسالتنا إلى خلقنا(٢).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ(٣) عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ (٤).

روي جعفر بن محمد عن أبيه في هذه الآية قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية.

وقال ﷺ: "خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح".

وعن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يمسني من سفاح الجاهلية شيء"(٥) رواه الطبراني في الأوسط، وابن عسكر.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

---

(١) سورة ص الآية: ٤٧.

(٢) الطبري جـ ٢٣ ص ١١.

(٣) وفي قراءة: أنفسكم بفتح الفاء أي من النفاسة: أي من أشرفكم الجمل جـ ٢ ص ٣٣١.

(٤) سورة التوبة الآية: ١٢٨.

(٥) ابن كثير جـ ٢ ص ٤٠٣ شرح الزرقاني جـ ص ٦٧.

وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني في خيرهما فأخرجت مـن بـين أبـوي – بتشديد الياء – فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية.

وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيـت إلى أبـي وأمي، فأنا خيركم نسباً وخيركم أباً. رواه البيهقي [(١)].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "بعثت من خير قـرون بـني آدم قرناً فقرنا حتى كنت من القرن الذي كنت فيه". رواه البخاري [(٢)].

٣- وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة واصطفي من بـني كنانـة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشـم". رواه الترمـذي وقال: هذا حديث حسن صحيح وأخرجه مسلم [(٣)].

وعن العباس بن عبـد المطلـب ﷺ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: "إن الله خلـق الخلق فجعلني من خير فرقهم، وخير الفريقين، ثم خير القبائل فجعلني من خـير القبيلة، ثم خير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهـم بيتـاً". رواه الترمذي [(٤)].

وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : "إن الله اختار خلقه فاختـار منهم بني آدم ثم اختار من بـني آدم العـرب ثـم اختـارني مـن العـرب فلـم أزل

---

(١) الجامع الصغير جـ ١ ص ١٨٤.

(٢) شرح الزرقاني: جـ ١ ص ٦٨.

(٣) تحفة الأحوذي على الترمذي جـ ١ ص ٧٤.

(٤) تحفة الأحوذي جـ ١٢ ص ٧٥.

خياراً. ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فبغضني أبغضهم. رواه الطبراني في الأوسط [١].

وظيفة الرسول محمد ﷺ وهي وظيفة كل الرسل

تلقي الوحي من الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [٢].

فهذه الآية تنص على أن محمداً رسول الله قد تلقى الوحي كما تلقته الأنبياء قبله، يبلغ ما تلقاه من الوحي إلى الناس:

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [٣].

في هذه الآية يخاطب الله سبحانه عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وآمراً له بإبلاغ جميع ما أنزل إليه من ربه.

وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم القيام.

قال البخاري بسنده المتصل إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قال: من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب. وهو يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ وعن هارون بن عنترة عن أبيه قال:

---

(١) شرح الزرقاني: جـ ١ ص ٦٨.

(٢) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٣) سورة المائدة الآية: ٦٧.

كنت عند ابن عباس، فجاء رجل فقال: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبده رسول الله ﷺ للناس.

فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء. رواه ابن أبي حاتم بإسناد جيد [١].

يوضح لأمته ما أنزل الله إليها:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والمعنى إنا أنزلنا إليك القرآن لتبين للناس ما أنزل إليهم، أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له.

ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل، ولعلهم يتفكرون: أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين [٢].

معلم البشرية ومربيها:

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [٣].

---

(١) ابن كثير جـ ٢ ص ٧٧.

(٢) ابن كثير جـ ٢ ص ٧٥١.

(٣) سورة الجمعة الآيات: ٢، ٣، ٤.

وهكذا بعث الله عبده ورسوله محمدًا ﷺ ليعلم من كان معه من العرب الأميين وغيرهم، فرسالته لم تقتصر على هؤلاء، بل تعدتهم إلى كافة الخلق.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ... ﴾[2].

قال البخاري بسنده عن أبي هريرة: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة "وآخرين منهم لما يلحقوا بهم".

قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى لسئل ثلاثاً. وفينا سلمان الفارسي. فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال: "لو كان الإيمان في الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء" متفق عليه [3].

ففي هذا الحديث دليل على عموم بعثته للأميين وغيرهم لأنه فسر قوله تعالى: "وآخرين منهم" بفارس، ولهذا كتب إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى إتباع ما جاء به.

داع إلى دين الله بالتبشير والإنذار:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة سبأ الآية: ٢٨.

(٢) سورة الجمعة الآية: ٣.

(٣) ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٣.

(٤) سورة الأحزاب الآيات: ٤٥-٤٧.

فمن وظائف الرسول ﷺ التي ذكرتها الآية: الشهادة والبشارة والإنذار، وكلها وسائل لهداية الخلق إلى طرق الحق فهو السراج المنير كما صرحت الآية.

ومن شأن الضوء الكشف والتوضيح، فهو صلى الله عليه وسلم يشهد لهم وعليهم بالصدق الذي ليس فيه لبس، ويبشر وينذر بالحق الذي لا يخالطه شك.

التطبيق الرائد الكامل الملتزم:

قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[1].

واستقم: أمر بالاستقامة في جميع أموره ﷺ ، والاستقامة أن يكون على خط مستقيم، ولا تتبع شيئاً من أهوائهم الباطلة.

وقل آمنت بجميع الكتب المنزلة، وفي هذا القول بيان لاتفاق الكتب السماوية في الأصول، وتأليف لقلوب أهل الكتابين اليهود والنصارى. وتعريض بهم حيث لم يؤمنوا بجميعها.

وأمرني الله تعالى مما أمرني به لأعدل بينكم في تبليغ الشرائع والأحكام فلا أخص منها شخصاً دون شخص.

وقيل: لأعدل بينكم في الحكم إذا تخاصمتم.

وقيل: لأسوي بيني وبينكم ولا آمركم بما أعلمه ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ولا فرق بين أصاغركم وأكابركم في إجراء حكم الله عز وجل [2].

---

(١) سورة الشورى آية: ١٥.

(٢) روح المعاني جـ ٧ ص ١٥١٤.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (١).

والمعنى: ثم جعلناك على طريقة من الدين من حيث يرد الناس منها أمر الله تعالى ورحمته والقرب منه عز وجل – فاتبع يا محمد هذه الطريقة ولا تتبع أهواء الجهلة وآراءهم التابعة للشهوات ومن كفار قريش وكل ضال غيرهم فإن هؤلاء جميعاً لن يغنوا عنك شيء.

وهؤلاء ظالمون لا يواليهم ولا يتبع أهواءهم إلا من كان ظالماً مثلهم.

والله ولي المتقين الذين أنت قدوتهم. وهذا الاتباع للشريعة بمنزلة البصائر للقلوب وهدى ورحمة لقوم يوقنون.

ولذلك أوجب الله الاقتداء به ﷺ (٢)، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (٣).

والمعنى: والله لقد كان لكم في رسول الله خصلة حسنة من حقها أن يؤتي ويقتدي بها كالثبات في الحرب ومقاساة الشدائد، وغير ذلك من أفعاله ﷺ (٤).

عن حفص بن عاصم قال: قلت لعبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: رأيتك في السفر لا تصلي قبل الصلاة (لا تصلي نافلة) ولا بعدها.

---

(١) سورة الجاثية الآية: ١٨ – ٢٠.

(٢) روح المعاني للألوسي جـ ٢٥ ص ١٤٩ بتصرف.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٢١.

(٤) روح المعاني جـ ٧ ص ٢٠.

فقال: يا ابن أخي. صحبت رسول الله ﷺ كذا كذا. فلم أره يصلي قبل الصلاة ولا بعدها. ويقول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

وعن قتادة قال: هم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن ينهي عن الحبرة (بكسر الباء: نوع من الكساء).

فقال رجل: أليس قد رأيت رسول الله ﷺ يلبسها؟

قال عمر: بلى. قال الرجل: ألم يقل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[2].

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، أنه سئل عن رجل معتمر (زائر الكعبة) طاف بالبيت، أيقع على امرأته قبل أن يطوف بين الصفا والمروة؟

فقال: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى خلف المقام ركعتين وسعي بين الصفا والمروة ثم قرأ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[3]

الحكم بين الناس بما أراه الله

١ - قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾[4]

---

(١) رواه ابن ماجه وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنف.

(٣) مصدر هذه الأحاديث تفسير الألوسي: جـ ٧ ص٢١.

(٤) سورة النساء الآية: ١٠٥، ١٠٦.

ومعنى الآية: لتحكم بين الناس بما عرفك، وأعلمك، وأوصى به إليك. سمى ذلك العلم بالرؤية لأن العلم اليقيني المبرأ عن جهات الريب يكون جارياً مجرى الرؤية في القوة والظهور.

وعن عمر ﷺ: لا يقولن أحدكم: قضيت بما أراني الله. فإن الله لم يجعل ذلك إلا لنبيه ﷺ.

ولكن ليجتهد رأيه. لأن الرأي من رسول الله ﷺ كان مصيباً لأن الله كان يريه إياه وهو منا الظن والتكلف.

والحق: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يقضي بين الناس بالاجتهاد[1].

فإذا كان الحكم حقاً في الواقع أقره الله عليه، فإن خالف اجتهاده الواقع نزل للتصويب من السماء.

٢- وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ .

ومعنى الآية: أي أنزلنا إليك الكتاب فيه حكم الله، وأنزلنا إليك فيه أن احكم بما أنزل الله إليك فيه.

ولا تتبع أهواءهم بالاستماع لبعضهم وقبول كلامه ولو لمصلحة في ذلك وراء الحكم كتأليف قلوبهم وجذبهم إلى الإسلام، فإن الحق لا يتوسل إليه بالباطل، احذرهم أن يفتنوك: أي يستنزلوك باختبارهم إياك وينزلون عن بعض ما أنزل الله إليك لتحكم بغيره.

---

(١) تفسير القاسمي، جـ ٥ ص ١٥٣٦.

عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وعبد الله بن صوريا. وشاس بن قيس من اليهود: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا: يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك.

فأبى ذلك. وأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني أن الحكمة في إنزال هذه الآية:

إقرار النبي ﷺ على ما فعل من عدم الحكم لهم وأمره بالثبات على الدوام على ما جرى عليه من التزام حكم الله وعدم الانخداع لليهود، وتسجيل هذه العبرة في كتاب الله [١].

الوحي وتعريفه

وسائل الاتصال بين الله تعالى ورسله لتبليغ دينه عديدة، أهمها الوحي وقد عرفه الأستاذ الإمام محمد عبده:

بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة –و الأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت [٢].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا

---

(١) تفسير المنار جـ ٦ ص ٤٢٠، ٤٢١.

(٢) رسالة التوحيد ص ١٠٤.

كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[١].

ظاهرة حصر التكليم في ثلاثة أقسام:

الأول –الوحي، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إلا وحياً﴾. وفسره بعضهم: بالإلقاء في القلب لسواء كان في اليقظة أو في المنام.

والإلقاء أعم من الإلهام. فإن إيحاء موسى إلهام. وإيحاء إبراهيم عليه السلام إلقاء في المنام وليس إلهاماً إيحاء الزبور إلقاء في اليقظة كما روي عن مجاهد وليس بإلهام.

والفرق: أن الإلهام لا يستدعي صورة كلام نفساني فقد يكون وقد لا يكون. وأما اللفظي: فلا. وأما نحو إيحاء الزبور فيستدعيه.

والثاني – إسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه كما كان موسى، وكذا الملائكة الذين كلمهم الله تعالى في قضية خلق آدم عليه السلام ونحوهم.

وهو المراد بقوله سبحانه: ﴿أو من وراء حجاب﴾، فإنه تمثيل له سبحانه بحال الملك المتحجب الذي يكلم بعض خواصه من وراء حجاب يسمع صوته ولا يرى شخصه.

والثالث– إرسال الملك كالغالب من حال نبينا ﷺ وهو حال كثير من الأنبياء عليهم السلام. وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أو يرسل رسولاً﴾ أي ملكاً فيوحي

---

(١) سورة الشورى الآية: ٥١، ٥٢.

ذلك للرسول إلى المرسل إليه الذي هو الرسول البشري بإذنه أي بأمره تعالى تيسيره سبحانه ما يشاء أن يوحيه [١].

■ ■ ■

(١) روح المعاني ٧ ص ٥٣٦، ٥٣٧.

إزالة شبهة إيمان

الرسول قبل الوحي

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (١).

استشكلت الآية بأن ظاهرها يستدعي عدم الاتصاف بالإيمان قبل الوحي ولا يصح ذلك لأن الأنبياء – عليهم السلام- جميعاً قبل البعثة مؤمنون لعصمتهم عن الكفر بإجماع من يعتد به.

وأجيب بعدة أجوبة:

الأول: إن الإيمان هنا ليس المراد به التصديق المجرد، بل مجموع التصديق والإقرار والأعمال.

فإنه كما يطلعه على ذلك يطلعه على هذا شرعاً. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ﴾ (٢) والأعمال لا سبيل إلى درايتها من غير سمع فهو مركب والمركب ينتفي بانتفاء أجزائه.

فلا يلزم من انتفاء الإيمان المركب بانتفاء الأعمال انتفاء الإيمان بالمعنى الآخر.

أعني التصديق وهو الذي أجمع العلماء على اتصاف الأنبياء به عليهم السلام قبل البعثة.

---

(١) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٢) سورة البقرة آية: ١٤٣.

ولذا عبر بتدري دون أن يقال لم تكن مؤمناً وهو جواب حسن لا يلزمه نفي الإيمان عمن لا يعمل الطاعات ليكون القول به اعتزالاً كمالاً يخفي.

الثاني: إن الإيمان: إنما يعني به التصديق بالله تعالى وبرسوله عليه الصلاة والسلام.

والنبي ﷺ مخاطب بالإيمان برسالة نفسه، كما أن أمته ﷺ مخاطبون بذلك.

ولا شك أنه قبل الوحي لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلم أنه رسول الله، وما علم ذلك إلا بوحي.

فإذا كان الإيمان هو التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ ولم يكن هذا المجموع ثابتاً قبل الوحي بل كان الثابت هو التصديق بالله تعالى خاصة الجمع على اتصاف الأنبياء عليهم السلام به قبل البعثة استقام نفي الإيمان قبل الوحي، وعلى هذا ذهب ابن المنير. أهـ.[١]

المعجزة

المعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة عند تحدي المنكرين مع عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله.

فالمعجزة على هذا هي التي يثبت بها الرسول أنه مرسل من عند الله وإن طاعته واجبة.

والمعجزة ليست من نوع المستحيل عقلاً. فإن المعجزة وإن خالفت ناموس الكائنات الطبيعية فإن واضع هذا الناموس هو موجد الكائنات.

---

(١) الألوسي: جـ ٧: ٥٣٩.

وليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها ولكنا نرى أثرها على يد من اختصه الله تعالى بفضل من عنده.

على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة وتابعاً لأي سبب إذا سبق في علمه أنه يحدث كذلك.

والشرط الوحيد للمعجزة: أن تكون مقرونة، بالتحدي عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبي يستند إليها في دعواه أنه عن الله.

وهذا الشرط واضح تماماً في معجزة عقلية دائمة التحدي لجميع البشر في كل زمان ومكان وهي القرآن.

والقرآن الكريم أخذ سمت المعجزة من أول لحظة. إذ أن رسول الله ﷺ قرن تلاوته بالتحدي.

وجاء التحدي بالقرآن على مراحل: تحداهم أن يأتوا بمثله.

ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة واحدة مثله. وتحدي الإنسان أن يجئ بمثل القرآن فعجزوا.

قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[1]

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ

---

(١) سورة الطور الآية: ٣٤.

ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [2].

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [3].

وبلغ التحدي منتهاه حين أعلن الله في أول سورة البقرة عجز الناس الآن وفي المستقبل عن معارضة القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [4].

وقد شهد الكفار على أنفسهم بالعجز الكامل عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن شهادة سلبية بعدم الإتيان بمثلها، وإيجابية باعترافهم بالعجز.

روى ابن إسحاق: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم.

فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب

(١) سورة هود الآية: ١٣، ١٤.

(٢) سورة يونس الآية: ٣٨.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٨٨.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٣- ٢٤.

تستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة [(١)] الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته [(٢)].

قالوا: فنقول شاعر.

قال: ما هو بشاعر. عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد الشمس.

---

(١) الزمزمة: صوت ضعيف تفعله الكهان.

(٢) الوسوسة: حالات تعتري المجنون.

قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لغدق وإن فرعه لجناة [1] وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل.

وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء زوجته وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك [2].

وروى ابن اسحاق: أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة – رضي الله تعالى عنه- ورأوا أصحاب ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا ابا الوليد، قم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة [3] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أسمع. قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا

---

(١) إن فرعه لجناة: استعاره من النخلة التي ثبت أصلها وقوي وطال فرعها.

(٢) سيرة ابن هشام مع الروض الآنف ص ١٧٣، ١٧٥.

(٣) السطة: المنزلة الرفيعة.

دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا[١] تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه من أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾[٢].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على

(١) الرئي: التابع من الجن.

(٢) سورة فصلت: الآيات: ١-٥.

العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[١].

الفرق بين الكتب السابقة وبين القرآن الكريم

١- إن الكتب التي نزلت قبل القرآن قد ضاعت نسخها الأصلية وما بقي بأيدي الناس إلا ترجمتها.

أما القرآن فلا يزال محفوظاً بعين الكلمات والأحرف التي نزل بها من عند الله تعالى.

٢- قد خلط الناس كلامهم بكلام الله في الكتب السابقة. بحيث لا يمكن أن يعرف كلام الله من كلام غيره.

أما القرآن فنجد فيه كلام الله تعالى خالصاً نقياً غير مشوب بشيء من كلام آخر.

٣- إن جميع الكتب التي توجد اليوم عند مختلف أمم الأرض لا يمكن أن يثبت عن واحد منها باستناد تاريخي أنه نزل على النبي الذي نسب إليه.

أما القرآن فقد تضافرت الشواهد التاريخية القوية القاطعة بنزوله على محمد ﷺ، مما لا يكاد يشك فيه أحد.

٤- إن اللغات التي نزلت بها الكتب القديمة قد أكل عليها الدهر وشرب وأصبحت في خبر كان منذ زمن بعيد.

(١) السيرة النبوية لابن هشام: جـ١، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

فلا يوجد المتكلمون بها في أي بقع من بقاع الأرض اليوم وقليل جداً أيضاً أولئك الذين يقدرون أن يفهموها.

أما اللغة التي نزل بها القرآن الكريم فلغة حية يتكلم بها عشرات الملايين من البشر ويفهمها مئات الملايين منهم في هذه المعمورة، فضلاً عن أنها تعلم وتدرس في جميع دور العلم الكبرى العالمية.

٥- إن جميع ما عند مختلف أمم الأرض اليوم من الكتب الدينية إنما وجه الكلام في كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم، وكذلك أحكامها كانت لزمن خاص، فهي بذلك كانت خاصة.

أما القرآن فإن الخطاب موجه فيه إلى جميع الناس في كل مكان وعبر كل زمان بل ولا يخطر ببال القارئ عند أية آية من آياته أنها خاصة بأمة دون سائر الأمم.

٦- والكتب القديمة وإن جاء كل كتاب منها مشتملاً على أمور من الصدق والخير، إلى أن أي كتاب منها لمستوف الحسنات والفضائل كلها حيث لم يترك منها شيئاً، والذي يمتاز به القرآن عن سائر هذه الكتب أنه قد استجمع فيه كل ما كان في الكتب القديمة من الفضائل منتشرة.

وقد بين فيه ما لم يأت فيها من الحسنات والخيرات.

٧- ولأجل ما كان من الإنسان من التدخل في الكتب، تسرب فيه كثير من الأمور التي لا توافق العقل والحقيقة وتقوم على الظلم والشطط وتفسد على الإنسان عقيدته وعمله.

بل تحتوي بعض هذه الكتب على أمور من قبيل الفحشاء والمنكر والانحلال الخلقي.

لكن القرآن منزه كل النزاهة عن مثل هذه الأمور وليس في شيء يخالف العقل أو يمكن تخطئته بالبرهان أو التجربة، وما في أمر من أوامره ظلم أو اعتداء.

وكله مليء بالحكمة العالية، والموعظة الحسنة، وتعليم الناس العدل. وإرشادهم إلى الصراط المستقيم وعلى أحسن الأحكام والقوانين.

وبعد.... فهذه أبهى المزايا، التي لأجلها أمر أهل الأرض جميعاً أن يؤمنوا بالقرآن وحده، ويتبعوه دون سائر الكتب [1].

ما يجب للرسول محمد ﷺ نحو أمته

من الواجبات على الأمة نحو الرسول ﷺ ما يلي:

أولاً: الطاعة:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [2].

واستجابة المؤمنين لحضرة رسول الله ﷺ تشمل كل شيء.

بل قال بعض العلماء: إنه كان إذا دعا شخصاً وهو يصلي يجب عليه أن

---

(١) مبادئ الإسلام للمودودي ص ٨٠- ٨٣.

(٢) سورة الأنفال آية: ٢٤.

يترك الصلاة استجابة لرسول الله، وأن الصلاة لا تبطل بإجابته، بل لـه أن يـبني على ما كان صلى، ويتم.

واستدلوا على ذلك بحديث رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد بـن المعلـي ﷺ قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت.

قال: فأتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟

قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي.

قال: ألم يقل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾[1].ثم قال لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد.

قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد.

قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن.

قال: نعم "الحمد لله رب العالمين" هي السبع المثاني والقرآن العظيم الـذي أوتيته"[2].

وروى الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة، أنه ﷺ دعا أبـي بـن كعب وهو في الصلاة. وذكر نحواً مما ذكره الإمام أحمد عن أبي سعيد وصححه.

وفي الحديث: إن الأمر يقتضـي الفـور لأنـه صـلي الله عليـه وسـلم عاتـب الصحابي على تأخير إجابته.

---

(١) سورة الأنفال آية: ٢٤.

(٢) ابن كثير جـ ١ ص ٩.

وفيه: إن إجابة النبي ﷺ، لا تفسد الصلاة، وذلك عند جماعة الشافعية وغيرهم [١].

٢- وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)﴾ [٢].

٣- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ [٣].

وفي الآية الأخيرة أمر بطاعة الله وهي العمل بكتابه العزيز وأمر بطاعة الرسول لأنه هو الذي يبين للناس ما أنزل إليهم.

وقد أعاد لفظ الطاعة لتأكيد طاعة الرسول لأن دين الإسلام دين توحيد محض لا يجعل لغير الله أمراً ولا نهياً ولا تشريعاً ولا تأثيراً فكان ربما يستغرب في كتابه الأمر بطاعة غير الله.

ولكن قضت بأن يبلغ عنه شرعه للناس رسل منهم وتكفل بعصمتهم في التبليغ وذلك وجب أن يطاعوا فيما يبنون به الدين والشرع، مثال ذلك: أن الله تعالى هو الذي شرع لنا عبادة الصلاة وأمرنا بها ولكنه لم يبين لنا في الكتاب كيفيتها وعدد ركعاتها ولا ركوعها وسجودها ولا تحديد أوقاتها.

---

(١) المنار جـ ٩ ص ٥٨٣.

(٢) سورة النساء الآيتان، ٨٠، ٨١.

(٣) سورة النساء الآية: ٥٩.

فبينها الرسول ﷺ بأمره تعالى إياه في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

فهذا البيان بإرشاد من الله تعالى بإتباعه لا ينافي التوحيد ولا كون الشارع هو الله تعالى وحده (٢).

وقد يأمر الرسول بأشياء وينهي عن أشياء باجتهاده، فإذا جزم بذلك ولم يقم دليلاً على أن الأمر للإرشاد أو الاستحباب، والنهي للكراهة أو الاستهجان وجبت طاعته في ذلك سواء كان في العبادات أو الأمور السياسية والقضائية لأنه إمام الأمة وحاكمها.

وقد أجمع المسلمون على أن الله تعالى لا يقر رسله على خطأ في اجتهادهم بل يبين لهم ذلك مع ذكر العفو، كقوله لنبينا ﷺ عندما أذن لبعض من استأذنه من المنافقين في التخلف عن غزوة تبوك: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾ (٣).

أو يقرهم من العتاب عاتب نبينا ﷺ على اجتهاد الموافق لاجتهاد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قبول الفداء من أسرى بدر بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩)﴾ (٤).

---

(١) سورة النحل الآية: ٤٤.

(٢) تفسير المنار: جـ ٥ ص ١٨٠.

(٣) سورة التوبة الآية: ٤٣.

(٤) سورة الأنفال الآيات: ٦٧-٦٩.

ولا يدخل في هذا المقام ما يقوله ﷺ في الأمـور الدنيويـة المحضـة كالعـادات والزراعة ونحوها لأنه ليس ديناً ولا قضاء ولا سياسة.

لـذلك قـال ﷺ في مسـألة تـأبير النخـل: "أنـتم أعلـم بـأمور دنيـاكم". في الصحيح(١). فطاعته ﷺ واجبة في حياته وبعد مماته فيما علم أنه دعـا إليـه دعـوة عامة من أمر الدين الذي بعثـه الله تعـالى بـه كبيانـه لصـفة الصـلوات وعـددها والمناسك ولو بالفعل مع قوله : "صلوا كما رأيتموني أصلي". وقوله: "خذوا عـني مناسككم ومقادير الزكاة وغير ذلك من الأمور العملية الدينية المتواترة".

وكذا أقواله المتواترة التي أمر بتبليغها فيما تدل عليه دلالة قطعية.

وأما غـير القطعـي روايـة: أن كانـت آحـاداً. ودلالـة: كـأن كانـت محتملـة للتخصيص أو للتقييد... فهو محل الاجتهاد. فكـل مـن ثبـت عنـده شـيء منهـا ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم على أنه من أمر الدين فينبغي له الاهتـداء به فيما دل عليه مـن الأحكـام الخمسـة بحسـبها – الوجـوب والنـدب والحرمـة والكراهة والإباحة.

لأن الأمور العملية الاجتهادية يكتفي فيهـا بـالظن الـراجح في الـدليل وفي دلالته.

ولكن لا يملك أحد من المسلمين أن يجعل اجتهاده تشريعاً عاماً يلزمه غـيره أو ينكر عليه مخالفته أو مخالفة من قلده هو فيـه، إلا لأئمـة أولـي الأمـر فتجـب طاعتهم في اجتهادهم في أحكام المعاملات القضائية والسياسية.

---

(١) المنار جـ ٤ ص ٤٢٨.

إذا حكموا بها لإقامة الشرع وصيانة النظام العام وعلى هذا كله جرى السلف الصالح وجميع أئمة الأمصار.

أما من يقولون: إن النبي ﷺ إنما كانت تجب طاعته في عهده ولا يجب العمل بعده إلا بالقرآن وحده فهم زنادقة ضالون مضلون يريدون هدم الإسلام بدعوى الإسلام.

بل تجب طاعة الرسول كما أطلقها الله تعالى. ويجب التأسي به في كل زمان إلى يوم القيامة [(١)].

٤- وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ٦٤﴾ [(٢)].

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى. رواه البخاري [(٣)].

وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان[(٤)].

---

(١) المنار جـ ٩ ص ٥٨٣، ٥٨٤.

(٢) سورة النساء: ٦٤.

(٣) مصابيح السنة ص ١٢١ الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٥٣.

(٤) العريان: الذي لقى العدو فسلبوا ما عليه من الثياب.

فالنجاة في إطاعة طائفة من قومي فأدلجوا[١] على مهلهم[٢]. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم.

فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق. رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصي الأمير فقد عصاني" متفق عليه [٣].

وعن جابر ﷺ قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ، وهو نائم فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً.

فقال بعضهم: إنه نائم.

وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان.

فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أصاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة.

فقالوا: أولوها له يفقهها.

قال بعضهم إن العين نائمة والقلب يقظان.

---

(١) أدلجوا: ساروا من أول الليل.

(٢) مهلهم: بضم الميم وسكون الهاء.

(٣) رياض الصالحين ص ٢٩٧.

فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس". رواه البخاري ومسلم [١].

وعن المقداد بن معد يكرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله". رواه البخاري ومسلم [٢].

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ فقال: "أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن. ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي فرض عليهم". رواه أبو داود [٣].

ثانياً: محبته صلى الله عليه وسلم:

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين". رواه أحمد والشيخان وغيرهم [٤].

قال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما. المحبة ثلاثة أقسام:

محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد.

---

(١) مصابيح السنة للبغوي جـ ١ ص ١٢٢.

(٢) المصدر السابق. جـ ١ ص ١٣.

(٣) مصابيح السنة جـ ١ ص ١٤.

(٤) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٣٦٦.

ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد.

ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس.

فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته.

قال ابن بطال: ومعنى الحديث: أن استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ أكد من حق أبيه وابنه والناس أجمعين لأن به ﷺ استنقذنا من النار، وهدينا من الضلال.

وقال القاضي عياض: ومن محبته ﷺ نصرة سنته والذب عن شريعته وتمني حضور حياته فيبذل نفسه وماله دونه.

قال: وإذا تبين ما ذكرنا تبين أن حقيقة الإيمان لا تتم إلا بذلك، ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي ﷺ ، ومنزلته على كل والد وولد ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن [١].

ثالثاً: تعظيمه صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [٢] .

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: إنا أرسلناك شاهداً على الخلق، ومبشراً للمؤمنين، ونذيراً للكافرين [٣].

---

(١) شرح النووي على مسلم جـ ١٥، ١٦.

(٢) سورة الفتح آية: ٨، ٩.

(٣) ابن كثير جـ ٤ ص ١٨٥.

ثم أوجب الله سبحانه وتعالى تعزيزه وتوفيره وألزم إكرامه وتعظيمه [١] .

رابعاً: التزام الأدب معه في الفتوى وفي أثناء حديثه ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [٢].

نهى الله عز وجل عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام.

قال سهل بن عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاسمعوا له، وانصتوا، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه، وأن يفتاتوا بشيء في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره.

ثم قال: بعد ذلك لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا له بالخطاب ولا تنادوه به. ثم خوفهم الله تعالى بحبط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك وحذرهم منه [٣] .

عن أنس بن مالك ﷺ: إن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس ﷺ. فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر: كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا.

قال موسى أحد رواة الحديث: فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة .

(١) مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا جـ ٢ ص٢١.

(٢) سورة الحجرات الآيات: ١-٣.

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣١- ٣٤ مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا.

فقال: اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة". تفرد به البخاري [١].

خامساً: تقديمه في الطاعة على النفس والرضا بحكمه وسننه:

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾ [٣].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به" [٤].

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان:

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار". متفق عليه [٥].

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن

---

(١) ابن كثير جـ ٤ ص ٢٠٦.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٦.

(٣) سورة النساء الآية: ٦٥.

(٤) مصابيح السنة جـ ١ ص ١٤.

(٥) رياض الصالحين ص ١٧٨.

الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي.

فقال النبي ﷺ : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ : الآن يا عمر... رواه البخاري [١] .

سادساً: الصلاة عليه ﷺ:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [٢].

ومعناه كما قال ابن عباس: إن الله وملائكته يباركون على النبي.

وقيل: إن الله يترحم على النبي وملائكته [٣].

اعلم: إن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب وأجمعوا عليه...

والواجب منه الذي يسقط به إثم ترك الفريضة مرة في العمر كالشهادة له بالنبوة وما عدا ذلك فمندوب مرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله.

وقد أجمع الفقهاء على أنها ليست بفرض في التشهد.

وقد شذ الشافعي في ذلك فقال: من لم يصل على النبي من التشهد الأخير

---

(١) صحيح البخاري ٢٣٥ ص ٩٦.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٥٦.

(٣) الشفاء جـ ٢ ص ٥١.

قبل السلام صلاته فاسدة وإن صلى عليه قبل ذلك لم تجزه. ولا سلف له في هذا القول يتبعه ولا سنة [١].

وقال ابن كثير: وقد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة، فمنها واجب ومنها مستحب على ما يأتي بيانه:

فمنه بعد الأذان للصلاة. لحديث: "إذا سمعتم المؤذن يؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي". أخرجه مسلم وغيره [٢].

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه: لحديث: كان رسول الله ﷺ "إذا دخل المسجد صلى على محمد ﷺ، ثم قال اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك.

وإذا خرج ﷺ قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك". رواه أحمد [٣].

ومن ذلك: صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية لحديث عبد الله: تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك، وتصلي على النبي ﷺ .... إلخ .. رواه النسائي [٤].

ومن ذلك : أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه، لحديث عمر بن

---

(١) الشفاء جـ ٢ ص ٥٣.

(٢) ابن كثير جـ ٣ ص ٥١٢.

(٣) ابن كثير، جـ ٣ ص ٥١٢.

(٤) ابن كثير، جـ ٣ ص ٥١٢.

الخطاب موقوفاً: الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصدر من شيء حتى تصلي على نبيك ... رواه الترمذي [١].

عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ صعد المنبر فقال: آمين. آمين. آمين.

قيل يا رسول الله، إنك صعدت المنبر فقلت: آمين. آمين.

فقال: إن جبريل أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله قل آمين. فقلت آمين.

ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فدخل النار فأبعده الله قل آمين. فقلت آمين. رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحه واللفظ له.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : رغم[٢] أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة. رواه الترمذي [٣].

البخيل من لم يصل عليه :

وعن حسين بن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي. رواه النسائي وابن حبان والحاكم في صحيحهما، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح [٤].

---

(١) ابن كثير، جـ ٣ ص ٥٣.

(٢) رغم بكسر الغين: ذل وهان.

(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٠٨.

(٤) الترغيب جـ ٢ ص ٥١٠.

وعن أبي ذر ﷺ قال: خرجت ذات يوم فأتيت رسول الله ﷺ فقال: ألا أخبركم بأبخل الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله.

قال من ذكرت عنده فلم يصل علي فذلك أبخل الناس. رواه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة عن طريق علي بن يزيد عن القاسم [١].

وإنما كان تارك الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ بخيلاً من أبخل الناس بسبب أنه أتيحت له الحسنات الوافرة ببذل الصلاة على النبي فلم يبذلها، وهذه لا تكلفه مالاً ولا تعباً.

سابعاً: تحري الصدق في الحديث عنه ﷺ:

فإن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره:

عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال: إن كذبا عليّ ليس ككذب على أحد. من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار. رواه البخاري ومسلم [٢].

وفي صحيح مسلم روى هذا الحديث من الصحابة علي بن أبي طالب. وأنس بن مالك ، وأبو هريرة [٣].

قال النووي عن هذا الحديث: أنه عظيم في نهاية من الصحة وقيل: إنه متواتر، ذكر أبو بكر البزار في مسنده أنه رواه عن النبي عليه الصلاة والسلام نحو من أربعين نفساً من الصحابة رضي الله عنهم. وحكى الإمام أبو بكر الصيرفي في شرحه لرسالة الشافعي رحمهما الله: أنه روي عن أكثر من ستين صحابياً

---

(١) الترغيب جـ ٢ ص ٥١١.

(٢) زاد المسلم جـ ١ ص ٨١.

(٣) صحيح مسلم جـ ١ ص ٧.

مرفوعاً وذكر ابن منده عدد من رواه فبلغ بهم سبعة وثمانين ثم قال وغيرهم.

وقال بعض الحفاظ: إن من جملة رواته العشرة المشهود لهم بالجنة [١]. وليس هناك من حديث اجتمع عليه العشرة إلا هذا.

وفي الحديث: تعظيم تحريم الكذب عليه ﷺ، وأنه فاحشة عظيمة وموبقة كبيرة، ولكن لا يكفي بهذا الكذب إلا أن يستحل وهذا هو المشهور.

وقال الجويني والد إمام الحرمين: يكفر بتعمد الكذب عليه ﷺ. ويراق دمه.

وقد ضعف ابنه إمام الحرمين هذا القول وقال إنه لم يره لأحد من الأصحاب وأنه هفوة عظيمة.

والصواب ما قدمناه عن الجمهور. والله أعلم أ.هـ.

ثم إن من كذب على رسول الله ﷺ في حديث واحد فسق وردت رواياته كلها وبطل الاحتجاج بجميعها. فلو تاب وحسن توبته، فقد قال جماعة من العلماء: لا تؤثر توبته في ذلك، ولا تقبل روايته أبداً بل يحتم جرحه دائماً.

ولا فرق في تحريم الكذب عليه صلى الله عليه وسلم ما كان في الأحكام وما لا حكم فيه كالترغيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك فكله حرام من أكبر الكبائر وأقبح القبائح بإجماع المسلمين الذي يعتد بهم في الإجماع.

ويحرم كذلك رواية الحديث الموضوع على من عرف كونه موضوعاً أو غلب على ظنه وضعه.

---

(١) العشرة المشهود لهم بالجنة هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهم.

فمن روى حديثاً علم أو ظن وضعه ولم يبن حاله في هذا الوعيد مندرج في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ.

ويدل عليه أيضاً الحديث الذي رواه المغيرة بن شعبة، وسمرة بن جندب قالا: قال رسول الله ﷺ: "من حدث عني بالحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين". صحيح مسلم جـ ١ ص ٧.

قال العلماء: وينبغي للراوي وقارئ الحديث إذا اشتبه عليه لفظه فقرأها على الشك أن يقول عقيبه و كما قال: والله أعلم.

ويستحب لمن روي بالمعنى أن يقول بعده أو كما قال، كما فعلته الصحابة فمن بعدهم، والله أعلم [(١)].

ثامناً: الحذر من تنقيصه أو سبه أو الاستهانة به أو بسنته:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣﴾ [(٣)].

---

(١) ملخص من شرح النووي على مسلم جـ ١ ص ٦٥- ٧٢.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٥٧.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٥٣.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١].

قال القاضي عياض: أعلم وفقنا الله وإياك: إن جميع من سب النبي صلى الله عليه وسلم أو ألحق به نقصاً في نفسه أو دينه أو نسبه أو خصلة من خصاله أو عرض بالتشديد به أو شبهه بشيء عن طريق السب له أو الازدراء عليه أو التصغير بشأنه فهو ساب له والحكم فيه حكم الساب، وكذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم.

حكم من تنقصه وسبه :

قال القاضي أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي ﷺ يقتل، وممن قال بذلك مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم.

وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر. والوعيد جار عليه بعذاب الله له وحكمه عند الأمة القتل ومن شك في كفره فقد كفر.

بل إن مالكاً كان يقول: من سب رسول الله ﷺ أو شتمه، أو عابه أو تنقصه قُتِل مسلماً كان أو كافراً ولا يستتاب.

فعن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال: من سب نبياً فاقتلوه ومن سب أصحابي فاضربوه [٢].

وفي الحديث الصحيح أمر النبي ﷺ بقتل كعب بن الأشرف بقوله: من لكعب بن الأشرف فإنه يؤذي الله ورسوله. ووجه إليه من قتله.

---

(١) سورة التوبة الآية: ٦١.

(٢) الدار قطني.

وكذلك أمره (بسكون الميم) يوم الفتح بقتل ابن خطل وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان بسبه عليه السلام. وغير ذلك من الأدلة الصحيحة [١].

عن أبي برزة: أن رجلاً سب أبا بكر الصديق ﷺ، فقلت: ألا أضرب عنقه يا خليفة رسول الله؟ فقال: ليست هذه لأحد بعد رسول الله ﷺ [٢].

وعن أبي هريرة قال: لا يقتل أحد بسب أحد إلا بسب النبي ﷺ [٣].

وعن ابن عباس: أن أعمى كانت له أم ولد على عهد رسول الله ﷺ تكثر الوقيعة في رسول الله ﷺ وشتمه، فقتلها الأعمى.

فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: أشهد أن دمها هدرْ. رواه البيهقي [٤].

وعن علي أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دمها [٥].

مكانة محمد ﷺ عند المرسلين وفي الكتب المنزلة عليهم:

١ - قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [٦].

---

(١) ملخص من مناهل العرفان جـ ٢ ص ٢٢٤ - ٢٤٦.

(٢) رواه الحاكم وصححه البيهقي.

(٣) رواه ابن عدي والبيهقي.

(٤) الخصائص للسيوطي جـ ٣ ص ٣٢٨.

(٥) نقل هذا من الخصائص للسيوطي جـ ٣ ص ٣٢٨.

(٦) سورة البقرة الآيات: ١٢٧ - ١٢٩.

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الأخيرة:

يقول تعالى: إخباراً عن تمام دعوى إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيه رسولاً منهم، أي من ذرية إبراهيم.

وقد وافقت هذه الدعوى المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجمين من الإنس والجن.

وعن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: إني عند الله لخاتم النبيين وأن آدم لمجندل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين يرين. رواه أحمد والحاكم وصححه وأقره الذهبي [(١)].

والمعنى أني عند الله ... الخ الحديث: أي في علم الله القديم. وليس معنى ذلك أن رسول الله ﷺ خلق قبل آدم فهذا معلوم الاستحالة بداهة.

وقال أبو أمامة قلت: يا رسول الله، ما كان أول بدء أمرك؟

قال: دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى بي ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، رواه أحمد، والمراد: أن أول من نوه بذكر وشهرة في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسبًا وهو عيسى بن مريم عليه السلام حيث قام في بني إسرائيل خطيباً وقال: إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.

---

(١) ابن كثير: جـ ١ ص ١٨٤.

والنور الذي رأته أمه عليه السلام كان مناماً رأته حتى حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم [(١)].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)﴾ [(٢)].

قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن بمحمد ولينصرنه [(٣)].

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى في الآية، قال: لم يبعث نبي قط من لدن نوح إلا أخذ الله ميثاقه ليؤمنن بمحمد ولينصرنه إن خرج وهو حي والأخذ على قومه أن يؤمنوا به وينصروه إن خرج وهم أحياء [(٤)].

٣- وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ

---

(١) ابن كثير: جـ ١ ص ١٨٤.

(٢) سورة آل عمران الآيتان: ٨١ – ٨٢.

(٣) ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٨.

(٤) الخصائص الكبرى للسيوطي جـ ١ ص ٢٢.

عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[1].

وفي هذه الآية صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء. بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم.

فعن أبي صخر العقيلي قال: حدثني رجل من الأعراب قال: جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه. قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً للتوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجل الفتيان وأحسنها.

فقال رسول الله ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟

فقال برأسه هكذا، أي لا فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك.

وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

فقال: أقيموا اليهودي عن أخيكم، ثم تولى كفنه والصلاة عليه.. رواه أحمد.

وقال ابن كثير: حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس[2].

عن عبد الله بن سلام قال: إن الله لما أراد هدى زيد بن سعنة، قال زيد ابن

(١) سورة الأعراف الآية: ١٥٧.

(٢) ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥١.

سعنة: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه،يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله.

فابتعت منه تمراً معلوماً إلى أجل وأعطيته الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو بثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ.

ثم قلت: ألا تقضي يا محمد حقي فوالله إنكم يا بني عبد المطلب لمطل ولقد كان لي بمخالطتكم علم.

فقال عمر بن الخطاب: أي عدو الله: أتقول لرسول الله ما أسمع، فوالله لولا ما أحاذر قوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر بسكون وتودة وتبسم.

ثم قال: أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر.أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن البياعة.

اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً مكان ما روعته ففعل.

فقلت: يا عمر كل علامات النبوة قد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد خبرتهما.

فأشهدك أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً. وبمحمد نبياً، رواه الطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي وأبو نعيم صحيح [١].

---

(١) الخصائص الكبرى: جـ١ ص ٣٨.

٤- قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾[1].

عن عبد الله بن مسعود قال:بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحواً من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى، فأتوا النجاشي. وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الولدي بهدية، فلما دخل على النجاشي سجدا له ثم ابتدره عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا.

قال: فأين هم؟

قالا: هم في أرضك، فابعث إليهم، فبعث إليهم.

فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتبعوه فسلم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟.

قال:أنا لا أسجد إلا لله عز وجل: قال وما ذلك؟

قال: إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا ألا نسجد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة.

قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، قال: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟

قال: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسسها بشر ولم يعترضها ولد.

---

(١) سورة الصف الآية: ٦.

قال: فرفع عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم، أنزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهم. رواه أحمد (١).

ما اختص به محمد رسول الله ﷺ دون غيره من الرسل:

لقد اختص الله نبينا محمد ﷺ: دون غيره من الرسل بأمور زاده بها تشريفاً وتكريماً أهمها:

إرساله إلى كافة الناس:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٤).

---

(١) ابن كثير، جـ ٤، ص ٣٦٠.

(٢) سورة سبأ آية: ٢٨.

(٣) سورة آل عمران آية: ٢٠.

(٤) سورة الأعراف آية: ١٥٨.

قال قتادة في الآية الأولى: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل.

وقال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ فضله الله على أهل السماء وعلى الأنبياء قالوا: يا ابن عباس فبم فضله على الأنبياء.

قال: إن الله تعالى قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [١].

وقال للنبي ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [٢].الآية. فأرسله الله إلى الجن والإنس [٣].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار". رواه مسلم [٤].

وجاء في الحديث المتفق عليه عن جابر بن عبد الله ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: "أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (بفتح الطاء) فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل. وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي. وأعطيت

(١) سورة إبراهيم آية: ٤.
(٢) سورة سبأ آية: ٢٨.
(٣) ابن كثير: جـ ٣، ص ٥٣٨.
(٤) ابن كثير: جـ ٣ ، ص٢٥٥.

الشفاعة. وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة". متفق عليه[1].

وليست خصائصه منحصرة في الخمس، بل هي تزيد كثيراً كما بينه الأئمة والتخصيص بالعدد لا ينفي الزيادة، ولا مانع من كونه اطلع أولاً على البعض ثم على البقية بعد ذلك.

وقد ذكرت هذه الخصائص الخمس مستوفاة في كتاب (جوانب من حياة الرسول) وإليك بعض هذه الخصائص:

إسلام قرينه ﷺ من الشياطين:

عن ابن مسعود ؓ قال: قال ورسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا ومعه قرينه من الجن وقرينه من الملائكة".

قالوا: وإياك يا رسول الله؟

قال: وإياي، ولكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير". رواه مسلم[2].

أمته خير الأمم:

وقد اختص ﷺ بأن أمته خير الأمم وآخر الأمم: فعن معاوية بن حيدة أنه سمع النبي ﷺ يقول، في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[3]. قال:

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير، جـ ١، ص ٥٩٦.

(٢) الخصائص الكبرى للسيوطي، جـ ٣، ص ١٣٩.

(٣) سورة آل عمران آية: ١١٠.

إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى". رواه أحمد والترمذي وحسنه ابن ماجة [١].

أمته ﷺ أقل عملاً وأكثر أجراً:

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ومن خصائصه أن أمته أقل عملاً من الأمم السابقة وأكثر أجراً قاله في رسالة "بداية السول في تفضيل الرسول[٢]".

وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس".

أوتي أهل التوراة فملوا بها حتى إذا انتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر، ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن أكثر عملاً. قال تعالى: "وهل ظلمتكم من أجركم من شيء"؟ قالوا: لا. قال: "فهو فضلي أوتيه من أشاء". أخرجه الشيخان [٣].

رحمة للعالمين:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [٤].

---

(١) الخصائص الكبرى جـ ٣، ص ١٩٧.

(٢) بداية السول في تفضيل الرسول: رسالة قيمة للإمام عز الدين بن عبد السلام، جمع فيها ما يوضح وجوه تفضيل رسولنا الكريم على سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة والناس أجمعين، ذاكرا لكل وجه ما يؤيده من القرآن الكريم والسنة النبوية.

(٣) الخصائص الكبرى جـ ٣، ص ٢١٧.

(٤) سورة الأنبياء آية: ١٠٧.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾[(١)].

وهذه الآية مرتبطة كل الارتباط بقوله تعالى قبلها: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٢﴾[(٢)].

فإن الكفار طلبوا من الرسول ﷺ تعجيل العذاب والرسول موجود بينهم ولذلك نزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[(٣)]. كذا في صحيح مسلم[(٤)]. ومعنى ذلك: أن الرسل قبله ﷺ كانوا يدعون على مخالفيهم بالبوار والخسف فيصيبهم ذلك مع وجود الرسل بينهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب.

فإن أقوامهم عذبوا مع وجود هؤلاء الرسل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠﴾[(٥)].

غير أن سيدنا رسول الله ﷺ كان رحمة لأمته، فلم يصبهم أذى في حياته من شدة ضرواتهم عليه وعدواتهم له.

---

(١) سورة الأنفال آية: ٣٣.

(٢) سورة الأنفال آية: ٣٢.

(٣) سورة الأنفال آية: ٣٣.

(٤) الطبري جـ ٧، ص ٣٩٨.

(٥) سورة العنكبوت آية: ٤٠.

روى البخاري ﷺ قال: "قيل يا رسول الله ادع على المشركين. قال: إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة". انفرد به مسلم [١].

الكوثر:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾ [٢].

عن أنس بن مالك ﷺ قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة: فرفع رأسه مبتسماً، فإما قال لهم وإما قالوا له: يا رسول الله، لم ضحكت؟ فقال: نزلت على آنفاً سورة فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها فلما قرأها قال: "هل تدرون ما الكوثر.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: "فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة وعليه خير كثير عليه حوض حتى ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب" [٣].

عن أنس عن النبي ﷺ قال: "بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف.

قلت: ما هذا يا جبريل؟

قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه أو طيبه مسك أذفر". رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

---

(١) ابن كثير: جـ ٣، ص ٢٠١.

(٢) سورة الكوثر آية: ٣٠١.

(٣) رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج" رواه الترمذي بسند صحيح [١].

وعن أنس بن مالك قال: "لما أسري برسول الله ﷺ مضى به جبريل في السماء الدنيا فإذا هو بنهر عليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد، فذهب يشم ترابها فإذا هو مسك. قال: يا جبريل، ما هذا النهر؟ قال: هو الكوثر الذي خبأ لك ربك". رواه ابن جبير، قال ابن كثير: وهو مخرج في الصحيحين [٢].

٣ - أمور أختص الله بها محمداً ﷺ دون غيره من الناس:

أ - خاتم النبيين:

كان للنبي ﷺ بضعة ناشزة كبيضة الحمامة بين كتفه، وهذه هي التي يطلق عليها خاتم النبوة.

١- عن السائب بن يزيد قال: "قمت خلف ظهر النبي ﷺ فنظرت إلى خاتمه - بفتح التاء - بين كتفه مثل زر الحجلة [٣] - بفتح الحاء والجيم". رواه الشيخان[٤].

٢- وعن عبد الله بن سرجس - بفتح السين والجيم وسكون الراء - قال:

---

(١) أحاديث الكوثر في (التاج الجامع: جـ ٥ ص ٤٠٥).

(٢) ابن كثير جـ ٤، ص ٥٥٧.

(٣) معنى زر الحجلة: ما يجعل في عروة الخيمة من خشب بيضاوي لتشد به والزر في الملابس معروف. والحجلة: خيمة لها أزرار كبارى وعرى وتطلق الحجلة أيضاً على اسم طائر كالحمامة. وزرها بيضتها. القاموس - شرح مسلم - اللؤلؤ والمرجان.

(٤) اللؤلؤ والمرجان، جـ ٣ ص ١٤١.

جمعاً – بضم الجيم وسكون الميم – (كقبضة الكف) عليه خيلان (جمع خال: وهو الحسنة) كأمثال الثآليل (وأحدهما ثؤلول وهو حلمة الثدي) [١].

والمقصود: أن خاتم النبوة في أعلى كتفه ﷺ أسفل العنق من الناحية اليسرى، وهو يشبه قبضة اليد الصغيرة، التي يعلوها كثير من الخيلان التي تشبه حلمات الأثداء [٢].

٣- وفي قصة سلمان الفارسي ﷺ، ذكر: أن من علامات النبوة، أنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، وأن خاتم النبوة على كتفه.

أخرج البيهقي عن سلمان الفارسي في هذه القصة قال: "أتيت رسول الله ﷺ، فألقى إلي رداءه وقال: أنظر إلى ما أمرت به فرأيت الخاتم بين كتفيه مثل بيضة الحمامة" [٣].

ولقد استفاضت الأخبار في ذكر خاتم النبوة حتى كادت أن تبلغ حد التواتر.

ب - يرى من خلف كما يرى من أمام:

١- أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "هل ترونه قبلتي ها هنا ، فوالله ما يخفي على خشوعكم ولا ركوعكم.إني لأراكم من وراء ظهري". متفق عليه [٤].

---

(١) مسلم جـ ٧، ص ٨٦.

(٢) القاموس وشرح مسلم جـ ١٥، ص ٩٨، ٩٩.

(٣) الخصائص الكبرى جـ ١، ص ١٤٨.

(٤) زاد المسلم جـ ٣، ص ٤٧٧.

والرؤية هنا حقيقية.

فمعنى الحديث: إني لأراكم رؤية حقيقية أختص بها عنكم والرؤية عند أهل السنة لا تشترط لها المواجهة ولا المقابلة ولا القرب وإنما تلك أمور عادية يجوز حصول الإدراك مع عدمها عقلاً.

ولذلك قال الجمهور: إن رؤيته ﷺ من خلف ظهره من خصائصه، وإن إبصاره إدراك حقيقي انخرفت له فيه العادة [(١)].

٢- وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: أقيموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من بعدي - بفتح الباء - ربما قال: من بعد ظهري إذا ركعتم وسجدتم [(٢)].

٣- وأخرج الحميدي في مسنده وابن المنذر في تفسيره، والبيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [(٣)] قال: كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه من الصفوف كما يرى من - بفتح الميم - بين يديه .

وقيل: إن الرؤية خاصة بحال الصلاة لأن الأحاديث واردة في ذلك [(٤)] .

ج - تنام عيناه ولا ينام قلبه:

١- عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟

---

(١) زاد المسلم جـ ٣ ص ٤٧٨.

(٢) اللؤلؤ والمرجان: جـ ١، ص ٩٨.

(٣) سورة الشعراء الآيتان: ٢١٨، ٢١٩.

(٤) الخصائص الكبرى مع الهامش، جـ ١، ص ١٥٢.

فقال: "يا عائشة: إن عيني تنامان ولا ينام قلبي". متفق عليه [١].

٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "حضرت عصابة من اليهود يوماً عند النبي ﷺ فقال لهم: "أنشدكم بالله الذي نزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟".

قالوا: اللهم نعم،

قال: "اللهم أشهد". رواه أبو نعيم.

وهذه الخصوصية بالنسبة لرسول الله ﷺ وإخوانه من الأنبياء والمرسلين الذي تقدموه، فهو ينفرد بها عن سائر البشر كما أنه يشترك فيها مع بقية المصطفين الأخيار من المرسلين والأنبياء [٢].

٣- أخرج الشيخان عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "الأنبياء تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم" [٣].

د - شق صدره ﷺ قبل البعثة:

١- عن أنس بن مالك ﷺ قال إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست (بفتح الطاء وسكون السين) من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه (أي ضم بعضه إلى بعض)، ثم أعاده في مكانه.

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره (مرضعه) فقالوا: إن محمداً قد قتل

---

(١) اللؤلؤ والمرجان، جـ ١ ، ص ١٥٨.

(٢) الخصائص: جـ ١، ص ١٧٣.

(٣) المصدر السابق.

فاستقبلوه وهو منتقع اللون (بضم الميم وفتح التاء والقاف: أي متغير اللون).

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك الخيط في صدره. رواه مسلم (١).

٢- عن أبي ذر ﷺ قال : قلت يا رسول الله، كيف علمت أنك نبي؟ وبم علمت حتى استيقنت.

قال: أتاني وأنا ببطحاء مكة، فوقع أحدهما بالأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه، هو هو، قال: فزنه برجل فوزنني فرجحته.

قال: زنه بعشرة فوزنني فرجحتهم، ثم جعلوا يتساقطون على من كفة الميزان.

ثم قال أحدهما لصاحبه: شق بطنه، فشق بطني فأخرج مني مغمر الشيطان (أي مكان وساوسه) وعلق (قطع) الدم فطرحهما.

فقال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل الإناء واغسل قلبه غسل الملاء (بضم الميم: أي الإزار).

ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه فخاط بطني وجعل الخاتم بين كتفي كما هو الآن ووليا عني.

وكأني أرى الأمر معاينة (أي أمام عيني). أخرجه الدارمي والبزار وأبو نعيم وابن عساكر (٢).

---

(١) صحيح مسلم: جـ ١ ص ١٠١.

(٢) الخصائص الكبرى: جـ ١، ص ١١١.

ليلة الإسراء:

٣- عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين (بين عمه حمزة وابن عمه جعفر).

فأتين فانطلق بي، فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا.

قال قتادة: فقلت للذي معه ما يعني؟ قال: إن أسفل بطنه، فاستخرج قلبه فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشى إيماناً ثم أتيت بدابة أبيض يقال له البراق... إلخ حديث المعراج [١].

٥ - العصمة من الذنوب:

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [٢].

قال السبكي في تفسيره: أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء فيما يتعلق بالتبليغ وفي غير ذلك من الكبائر ومن الصغائر الرذيلة التي تحط مرتبتهم ومن المداومة على الصغائر هذه الأربعة مجمع عليها.

واختلفت في الصغائر التي لا تحط من مرتبتهم.

فذهب المعتزلة وكثير من غيرهم إلى جوازها، والمختار المنع لأنا مأمورون

---

(١) صحيح مسلم جـ ١، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) سورة الفتح الآيات: ١-٣.

بالاقتداء بهم في كل ما يصدر منهم من قول أو فعل فكيف يقع منهم ما لا ينبغي ويؤمر بالاقتداء فيه؟

قال: والذي جوز ذلك لم يجوزه بنص ولا دليل إنما أخذ ذلك من هذه الآية: أول سورة الفتح.

قال: ولقد تأملتها مع ما قبلها وما بعدها فوجدتها لا تحتمل إلا وجهاً واحداً وهو تشريف النبي ﷺ من غير أن يكون هناك ذنب.

ولكنه أريد أن يستوعب في الآية جميع أنواع النعم من الله على عباده الأخروية.

وجميع النعم الأخروية شيئان: سلبية وهي غفران الذنوب، وثبوتية وهي لا تتناهى، أشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ (١).

وجميع النعم الدنيوية شيئان . دينية أشار إليها بقوله تعالى: ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (٢)، ودنيوية وهي قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ (٣).

فانتظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نعم الله إليه المتفرقة في غيره.

ولهذا جعل ذلك غاية الفتح المبين الذي عظمه وفخمه بإسناده إليه بنون العظمة وجعله خاصاً بالنبي ﷺ بقوله: لَكَ قال: وقد سبق إلى نحو هذا ابن عطية فقال: وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولم تكن ذنوب البتة.

---

(١) سورة يوسف آية: ٦.

(٢) سورة الفتح آية: ٢.

(٣) سورة الفتح آية: ٣.

قال: ثم وعلى تقدير الجواز لا شك ولا ارتياب أنه لم يقع منه ﷺ وكيف يتخيل خلاف ذلك: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[1].

فأما الفعل فإجماع الصحابة على إتباعه والتأسي به في محل ما يفعله من قليل أو كثير وصغير أو كبير لم يكن عندهم في ذلك توقف ولا بحث حتى أعماله في السر والخلوة يحرصون على العلم بها وعلى إتباعها.

ومن تأمل أحوال الصحابة معه ﷺ استحيا من الله أن يخطر بباله خلاف ذلك . أ.هـ.

وأخرج الحاكم وصححه عن طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قلت يا رسول الله: أتأذن لي فأكتب ما أسمع منك؟.

قال: نعم.

قلت: في الرضا والغضب؟.

قال: نعم. فإنه لا ينبغي أن أقول عند الرضا والغضب إلا حقاً.

وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: "لا أقول إلا حقاً فقال له بعض أصحابه: فإنك تداعبنا، فقال: "ولا أقول إلا حقاً"[2].

وقال ابن حزم: ذهبت جميع أهل الإسلام من أهل السنة والمعتزلة والبخارية "فرقة من الفرق" والخوارج والشيعة: إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي أصلاً معصية بعمد لا صغيرة ولا كبيرة...

---

(١) سورة النجم الآيتان: ٣، ٤.

(٢) الخصائص الكبرى: جـ ٣، ص ٣٣٥، وما بعدها.

وهذا هو القول الذي ندين لله تعالى به ولا يحل لأحد أن يدين بسواه.

ونقول: إنه يقع من الأنبياء السهو عن غير قصد ويقع منهم قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى والتقرب منه فيوافق خلاف مراد الله تعالى إلا أنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذين الوجهين أصلاً.

بل ينبههم على ذلك ولابد أثر وقوعه منهم ويظهر عز وجل لعباده ويبين لهم كما فعل نبيه. وربما عاتبهم ﷺ في سلامه من اثنتين وقيامه من على ذلك والكلام كما فعل نبيه عليه السلام في أمر زينب أم المؤمنين وطلاق زيد لها رضي الله عنهما.

وفي قصة ابن أم مكتوب ﷺ والأنبياء عليهم السلام بخلافنا في هذا فإننا غير مؤاخذين بما سهونا فيه، ولا بما قصدنا به وجه الله عز وجل فلم يصادف مراده تعالى.

بل نحن مأجورون على هذا الوجه أجراً واحداً.

وقد أخبر رسول الله ﷺ، أن الله تعالى قرن بكل أحد شيطاناً وأن الله تعالى أعانه على شيطانه فأسلم فلا يأمره إلا بخير [1].

والخبر الذي ذكره ابن حزم متفق عليه من حديث ابن مسعود ولفظه: "ما منكم من أحد إلا وله شيطان" قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: "وأنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير" [2].

(١) الفصل في الملل والنحل: جـ ٤، ص ٢٩.

(٢) إحياء علوم الدين جـ ٣، ص٢٦، تخريج العراقي.

ومن البرهان على أنه لم يكن البتة أن يعصي نبي قوله ﷺ: "ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين" لما قال له الأنصاري: هلا أومأت إلي – في قصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فنفي عليه السلام عن جميع الأنبياء عليهم السلام أن تكون لهم خائنة الأعين وهي أخف ما يكون من الذنوب ومن خلاف الظاهر للباطن، فدخل في هذا جميع المعاصي صغيرها وكبيرها وسرها وجهرها [١].

وقصة ابن أبي سرح يرويها ابن كثير في البداية والنهاية:

قال ابن إسحاق، وقد كان رسول الله ﷺ عهد إلى امرأته ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، غير أنه أهدر دم نفر سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهم:

عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان قد أسلم وكتب الوصية ثم ارتد، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقد أهدر دمه فر إلى عثمان وكان أخاه من الرضاعة.

فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: نعم. فلما انصرف مع عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله؟

فقالوا يا رسول الله: هلا أو مأت إلينا؟ فقال: إن النبي لا يقتل بالإشارة.

وفي رواية: إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين... إلى آخر القصة.

قال ابن هشام: ومات وهو ساجد في صلاة الصبح أو بعد انقضاء صلاتها في بيته:

العصمة قبل النبوة:

وقد تعارضت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن النقائص منذ ولدوا

---

(١) الفصل في الملل والنحل، جـ ٤، ص ٥٢.

ونشأتهم على التوحيد والإيمان بل على أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك..

وجاء في حديثه ﷺ: "لما نشأت بغضت الأوثان وبغض إلى الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين فعصمني الله منهما ثم لم أعد".

ولم ينقل أحد من أهل الأخبار: إن أحداً نبئ واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك [(١)].

ويروي الحافظ البيهقي قصة المرتين اللتين هَم رسول الله ﷺ وعصمه الله فيهما. قال بسنده عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من اللهو أو من السمر ليلتين كلتاهما عصمني الله عز وجل فيهما".

قلت: ليلة لبعض فتيان مكة، ونحن في رعاة غنم أهلها.

فقلت لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى.

قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير. فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي. فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً. ثم أخبرته بالذي رأيت.

ثم قلت ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير جـ ٣، ص ٥٦٣.

فسألت: فقيل: نكح فلان فلانة، فجلت أنظر، وضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي. فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر.

والله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله.

٦ - العصمة من الناس:

١- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1].

ومعنى يعصمك من الناس، يمنعك من فتكهم - مأخوذ من عصام القربة وهو ما توكأ به - أي ما يربط به فمها من سير جلد أو خيط.

والمراد بالناس الكفار الذين يتضمن تبليغ الوحي بيان كفرهم وضلالهم وفساد عقائدهم وأعمالهم والنعي عليهم وعلى سلفهم فإن ذلك يغيظهم ويحملهم على الإيذاء[2].

٢- وقال تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[3].

والمعنى: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد الذين يستهزئون بك ويسخرون منك فاصدع بأمر الله ولا تخف شيئاً سوى الله فإن الله كافيك من ناصبك وعاداك[4].

---

(١) سورة المائدة آية: ٦٧.

(٢) تفسير المنار، جـ ٦، ص ٤٧٣.

(٣) سورة الحجر الآيات: ٩٤-٩٦.

(٤) الطبري، جـ ١٤، ص ٤٨.

٣- وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[١].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: "واصبر لحكم ربك يا محمد الذي حكم به عليك وامض لأمره ونهيه، وبلغ رسالته، فإنك بأعيننا.

يقول جل ثناؤه: فإنك بمرأى منا نراك ونرى عملك ونحن نحوطك ونحفظك فلا يصل إليك من أرادك من المشركين بسوء"[٢].

والعين هنا مجاز عنِ الحفظ، ويتجوز بها أيضاً عن الحافظ، وهو مجاز مشهور.

ولوح الزمخشري في سورة "المؤمنون" إلى أن فائدة الجمع الدلالة على المبالغة في الحفظ كأن معه من الله تعالى حُفَّاظاً يكلؤونه بأعينهم[٣].

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية. "والله يعصمك من الناس".

قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال: "يا أيها الناس. انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل"[٤]. (رواه الترمذي وابن أبي حاتم وغيرهما).

٢- وعن محمد بن كعب القرطبي وغيره قالوا: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيل - بفتح الياء - تحتها فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال: "الله عز وجل".

---

(١) سورة الطور آية: ٤٨.

(٢) الطبري، جـ ٢٧، ص ٢٢.

(٣) روح المعاني للألوسي، جـ ٨، ص ٣٤٥.

(٤) ابن كثير، جـ ٢، ص ٧٨.

فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه وضرب برأسه الشجرة حتى انتشر دماغه. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[(١)]. (رواه ابن جرير)[(٢)].

وقد رويت هذه القصة في الصحيح على أن غورث – بفتح الغين وسكون الواو وفتح الراء- بن الحارث صاحب هذه القصة، وأن النبي ﷺ عفا عنه، فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس[(٣)].

وقد روي أنه وقع له ﷺ مثلها في غزوة غطفان بذي أمر مع رجل يقال له دعثور- بضم الدال – بن الحارث، وأن الرجل أسلم، فلما رجع إلى قومه الذين أغروه، وكان سيدهم وأشجعهم. قالوا:أين ما كنت تقول وقد أمكنك؟. فقال: إني نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدري فوقعت لظهري وسقط السيف فعرفت أنه ملك وأسلمت.

قيل: وفيه نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾[(٤)].

٣- وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة على قتل رسول الله ﷺ – قبل إسلامهما – فجئنا منزله فسمعنا له – فافتتح وقرأ الحاقة إلى: ﴿فهل ترى لها من باقية﴾.

(١) سورة المائدة آية: ٦٧.

(٢) تفسير ابن كثير، جـ ٢، ص ٧٩.

(٣) مناهل الصفا للسيوطي، جـ ، ص ٢٩٢، والشفا للقاضي عياض، جـ ١، ص ٢٩٠.

(٤) سورة المائدة آية: ١١.

فضرب أبو جهم على عضد عمر وقال: أنج، وفرا هاربين، فكانت من مقدمات إسلام عمر[١].

٧ - رؤياه في المنام حق:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي". (البخاري ومسلم).

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من رآني في المنام فسيراني في اليقظة أو لكأنما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي.

وقال الراوي فقال أبو سلمة قال أبو قتادة قال رسول الله ﷺ: "من رآني في المنام فقد رأى الحق". (البخاري ومسلم).

وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من رآني في المنام فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي"[٢].

قال في فتح الباري: قال الطيبي.. والذي يظهر لي: أن المراد من رآني في المنام على أي صفة كانت فليستبشر ويعلم أنه قد رأى الرؤيا الحق التي هي من الله لا الباطل الذي هو حلم.

وفي هذه الأحاديث أن الله تعالى عصم مثاله ﷺ أن يتمثل به الشيطان في النوم كما عصم ذاته الكريمة منه في اليقظة.

قال القسطلاني: فإن قيل كيف يكون ذلك وهو بالمدينة والرائي في المشرق أو المغرب؟

---

(١) الشفا، جـ ٢، ص ٢٩٢.

(٢) صحيح مسلم، جـ ٧، ص ٥٤.

أجيب بأن الرؤيا أمر يخلقه الله تعالى ولا يشترط فيها عقلاً مواجهة ولا مقابلة ولا مقارنة ولا خروج شعاع ولا غيره.

فإن قلت: كثيراً ما يرى على خلاف صورته المعروفة ويراه شخصان في حالة واحدة في مكانين والجسم الواحد لا يكون إلا في مكان واحد؟؟

أجيب: بأنه يعتبر في صفاته لا في ذاته فتكون ذاته عليه الصلاة والسلام مرئية وصفاته متخيلة غير مرئية.

فالإدراك لا يشترط فيه تحديق الأبصار ولا قرب المسافة فلا يكون المرئي مدفوناً في الأرض ولا ظاهراً عليها وإنما يشترط كونه موجوداً.

وقال ابن العربي: إن أكثر ما تقع رؤياه ﷺ بالقلب ثم بالبصر لكنها ليست كالرؤيا المتعارفة.

وإنما هي جمعية حالية وحالة برزخية وأمر وجداني فلا يدرك حقيقته إلا من باشره[١].

ورؤيا سيدنا رسول الله ﷺ تدل على الخصب والأمطار وكثرة الرحمة ونصر المجاهدين، وظهور الدين وظفر الغزاة والمقاتلين ودمار الكفار وظفر المسلمين بهم وصحة الدين. هذا إذا رؤى في الصفات المحمودة.

وربما دل على الحوادث في الدين وظهور الفتن والبدع إذا رؤى في الصفات المكروهة.

هل تثبت برؤياه أحكام شرعية؟

---

(١) زاد المسلم، جـ ٣، ص ١٨١- ١٩٠.

حقق الحافظ ابن حجر المسألة وقال:

إن النائم لو رأى النبي ﷺ يأمره بشيء لابد أن يعرضه على الشرع الظاهر، أي فإن وافقه قبل وكان الشرع هو الحجة، وإن خالفه فهو مردود ككل إلهام خالف الشرع.

فلم يبق بعد وفاة النبي ﷺ لعلماء الشريعة في كل عصر وفي كل طبقة إلا اتباع النصوص في القرآن أو في السنة، أو اتباع ما أجمع عليه المجتهدون مما استند على دليل منهما، أو ما استنبط من أدلتها أو قيس قياساً لا قادح فيه على بعض نصوصها أو جزئية أدخلت تحت عموم كلية تشملها [١].

٨ - دفنه ﷺ حيث قبض:

عن عائشة قالت: لما قبض رسول الله ﷺ اختلفوا في دفنه.

فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً ما نسيته. قال: "ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يجب أن يدفن فيه: ادفنوه في موضع فراشه" [٢].

وأخرج البيهقي عن سالم بن عبيد، وكان من أصحاب الصفة.

قال: دخل أبو بكر على رسول الله ﷺ حين مات، ثم خرج.

فقيل له: توفي رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم. فعلموا أنه كما قال.

قيل: وكيف نصلي عليه؟

قال: تجيئون عصباً عصباً (طائفة طائفة) فتصلون. فعلموا أنه كما قال.

---

(١) زاد المسلم، جـ ٣، ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) الخصائص الكبرى، جـ ٣، ص ٣٩٧.

قالوا: هل يدفن؟ قال: نعم. قالوا: أين؟ قال: حيث قبض الله روحه فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيب فعلموا أنه كما قال.

وأخرج أبو يعلي عن عائشة قالت: اختلفوا في دفنه. فقال علي: أن أحب البقاع إلى الله مكان قبض فيه نبيه [١].

٩ - تحريم الزكاة والصدقة عليه وعلى أهله:

١- عن المطلب بن ربيعة أن رسول الله ﷺ قال: "إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد" [٢]. رواه مسلم.

٢- وعن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بطعام من غير أهله سأل عنه، فإن قيل هدية أكل، وإن قيل صدقة لم يأكل [٣]. (رواه أحمد).

٣- وعن ابن عباس قال: استعمل النبي ﷺ الأرقم الزهري على الساعية - جمع الصدقات - فاستتبع أبا رافع مولى النبي ﷺ فأتى النبي ﷺ فقال: "يا أبا رافع إن الصدقة حرام على محمد وعلى آل محمد" [٤].

٤- وعن أبي رافع - بعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني مخزوم على الصدقة، فقال لأبي رافع: اصحبني كيما تصيب منها.

قال: لا. حتى أتى رسول الله ﷺ فأسأله، وانطلق فسأله.

فقال: "إن الصدقة لا تحل لنا، وإن مولى القوم من أنفسهم. رواه الخمسة إلا

---

(١) الشمائل المحمدية.

(٢) الخصائص الكبرى، جـ ٣، ص ٢٦٥- ٢٦٧، والزرقاني، جـ ٥، ص ١٣١.

(٣) الخصائص الكبرى

(٤) الخصائص الكبرى، جـ ٣، ص ٢٦٥- ٢٦٧، والزرقاني، جـ ٥، ص ١٣١.

ابن ماجه، وأخرجه أيضاً ابن خزيمة وابن حبان وصححاه. وصححه الترمذي[١].

٥- وعن المطلب بن ربيعة بن الحارث قال: جئت أنا والفضل بن العباس فقلنا يا رسول الله: جئنا لتؤمرنا على هذه الصدقات. فسكت ورفع رأسه إلى سقف البيت حتى أردنا أن نكلمه.

فأشارت إلينا زينب من وراء حجابها كأنها تنهانا عن كلامه، وأقبل فقال: "إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، وإنما هي أوساخ الناس"[٢]. (رواه مسلم).

١٠ - لا يورث:

عن أبي بكر الصديق ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "لا نورث. ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال. وإني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله ﷺ، ولأعملن فيها ما عمل به رسول الله ﷺ"[٣]. (متفق عليه).

وعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: "لا تقتسم ذريتي ديناراً ولا درهماً. ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤونة عاملي فإنه صدقة"[٤]. (رواه البخاري ومسلم).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر فيسأله ميراثهن من النبي ﷺ.

---

(١) الخصائص الكبرى.

(٢) الخصائص الكبرى.

(٣) زاد المسلم، جـ ٥، ص ١٥٣، ط الشعب.

(٤) مسلم، جـ ٥، ص ١٥٦.

قالت عائشة لهن: أليس قد قال رسول الله ﷺ: "لا نورث ما تركنا فهو صدقة"(١). (متفق عليه).

والحكمة في سبب عدم ميراث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لئلا يظن بهم أنهم جمعوا المال لورثتهم.

وقيل: لما يخشى على وارثهم من أن يتمنى لهم الموت فيقع في محظور عظيم.

وقيل: لأنهم كالآباء لأمهم فما لهم لكل أولادهم. وهو معنى الصدقة (٢).

وقد روي ابن ماجه عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن العلماء هم ورثة الأنبياء لأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"(٣).

وقد ذكر حديث ابن ماجه الأخير بقصد توضيح الإشكال الذي جاء في الآيتين الكريمتين: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ (٤).

وقول زكريا في الآية الكريمة الثانية: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ (٥).

فإن المراد فيهما: إرث النبوة والعلم.

---

(١) مسلم، جـ ٥، ص ١٥٣، ط الشعب.

(٢) زاد المسلم، جـ ٥، ص ٣٠٧.

(٣) الخصائص، جـ ٣،ص ٣١٣.

(٤) سورة النمل آية: ١٦.

(٥) سورة مريم الآيتان : ٥ – ٦.

ما اختصه الله به دون غيره من الأنبياء والمرسلين:

الله سبحانه وتعالى يصطفي [١] من الملائكة رسلاً ومن الناس، ليكونوا وسائل تبليغ لدينه ووسائط رحمة بينه تعالى وبين عباده.

واختار سبحانه من الرسل جماعة، حملهم من الأعباء والمشاق ما لم يتحمل غيرهم من المرسلين، وهم:أولو العزم، الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [٢].

وقد ذكر الله أسماءهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [٣].

وقد اختص الله محمداً ﷺ بأمور لم ينلها غيره من الرسل: زيادة تكريم له ولأمته معه، ولذلك قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [٤].

وإذا أردنا إحصاء ما اختص الله به رسوله محمد ﷺ دون غيره من الأنبياء والمرسلين، فإن ذلك يحتاج إلى كتاب مستقل.

ولكن حسبنا هنا أن نشير إلى أهمها، في بحثنا هذا بادئين بالحديث الصحيح الذي ذكر فيه رسول الله ﷺ: أنه أعطى خمساً لم يعطهن أحد قبله.

ثم نتبعه بباقي الأحاديث محاولين ذكر بعض ما اختص به لا كله. فإن الكل لا يوفيه هذا البحث الموجز.

---

(١) يختار.

(٢) سورة الأحقاف آية: ٣٥.

(٣) سورة الأحزاب آية: ٧.

(٤) سورة آل عمران آية: ١١٠.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطيت خمساً، لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة"[1].

وهذا الحديث ليس للحصر: فليس معناه أنه ﷺ أعطى هذه الخمس فقط ولكنه ﷺ كان يذكر في كل مقام ما يناسبه من الخصوصيات.

وإليك تفصيل بعض ما اختص به ﷺ:

١ - نصرت بالرعب مسيرة شهر:

الغرض من هذا التعبير: أن أعداءه ﷺ كانوا يرهبونه ويخافونه، مع بعدهم عنه. بحيث لو أراد حربهم، لقطع المسافة التي هي بينه وبينهم في شهر بسير الإبل.

وقد تدرك الحكمة النبوية في تحديد الشهر إذا علمت: أن الدولتين العظيمتين اللتين كانتا يخشى حينئذ بأسهما ويخاف منهما. وهما: الفرس بالعراق، والروم بالشام، لم تكن تزيد المسافة بينه ﷺ وبين أي منهما أكثر مما ذكر. وقد كانتا تعلمان خطورته ﷺ عليهما خصوصاً بعد أن دعاهما مع غيرهما إلى الإسلام، وبعد أن انتصر على جميع الجزيرة العربية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

---

(١) متفق عليه شرح الكرماني، جـ ٤، ص ٩٧.

ومع ذلك لم تحاول أي منهما أن تحاربه أو تنال من دولته منالاً، وما ذلك إلا بسبب ما ألقى الله في قلوبهما من رعب.

فإن قيل: فلماذا حاربه إذًا اليهود وكفار قريش ولم يستسلموا له؟؟

فالجواب: أنهما ما حاربوه إلا لخوفهم منه: أن يمتلك ديارهم وأموالهم وانفسهم، بعد أن أذن له بالحرب، وعقد له لواء النصر أينما توجه.

فالرعب إذاً من محمد ﷺ ومن معه، وخوفهم على مناصبهم وزعاماتهم، وشعورهم بالجرم الذي وقعوا فيه بسبب ما أوقعوه بالنبي ومن معه من إيذاء.

كل ذلك حملهم على أن يكابروا بحمية الجاهلية، وادعاء القوة والمنعة، وما هم منها في شيء. لأن الرعب كان يزلزل قلوبهم ويفري أكبادهم.

٢ - وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً:

كانت الأمم السابقة، لا تصلي إلا في أماكن العبادة، كالكنائس والبيع، ولا تتطهر إلا بالماء.

أما الأمة الإسلامية: أمة محمد رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، فقد ميزها الله بخاصيتين:

١- أداء الصلاة في أي مكان من الأرض.

٢- والتطهر بجنس الأرض عند فقد الماء: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [1].

وقال الحافظ بن حجر في الفتح: "ويؤيده: رواية عمرو بن شعيب، بلفظ: "وكان من قبلي، إنما يصلون في كنائسهم".

---

(١) سورة النساء آية: ٤٣.

وروي البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما: "ولم يكن أحد من الأنبياء يصلي، حتى يبلغ محرابه"[1].

٣ - وأحلت لي الغنائم:

الغنائم: هي الأسلاب التي تؤخذ من الكفار عقب الجهاد والانتصار، وكانت محرمة على الأنبياء، وعلى المجاهدين معهم في الأمم السابقة.

وكانت تأتي النار لإحراقها، فلا يستفيد منها الأعداء، ولا تعود أدنى فائدة منها على المجاهدين.

فلما جاء الإسلام: منح الله النبي ﷺ حق الاستفادة بالغنيمة وأنزل آيات تفصل قسمتها على المجاهدين.

جاء في صحيح البخاري: قال رسول الله ﷺ: "غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولما يبن بها، ولا أحد بنى بيوتاً ولم يرع سقوفها، ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات (بفتح الخاء وكسر اللام) وهو ينتظر ولادتها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريباً من ذلك فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور.. اللهم احبسها علينا. فحبست !! حتى فتح الله عليه، فجمع الغنائم.

فجاءت: يعني النار، لتأكلها فلم تطعمها.

فقال: إن فيكم غلولاً: فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده. فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك. فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده. فقال:

---

(١) نيل الأوطار: جـ ٣، ص ٢٦٠.

فيكم الغلول، فجاءوا برأس مثل رأس البقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها... ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا [١].

٤ - وبعثت إلى الناس كافة:

وهذه خاصية أخرى، وهي من الخصائص التي فضلت رسول الله على سائر الأنبياء، وذلك لشمول دعوته الأسود والأحمر، والعربي والعجمي، والإنس والجن.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [٢].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [٣].

٥ - وأعطيت الشفاعة:

والمراد بها: الشفاعة العظمى، لا مطلق شفاعة، فإن الشفاعة المطلقة: أعطيها جميع الأنبياء لأممهم، كما أعطيها العلماء العاملون والصديقون والشهداء.

أما الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة عند الله تعالى من أجل جميع الأمم، فلم يعطها غير نبينا محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [٤].

---

(١) الكرماني على البخاري، جـ ١٣، ص ٩٥.

(٢) سورة سبأ آية: ٢٨.

(٣) سورة الفرقان آية: ١.

(٤) سورة الإسراء آية: ٧٩.

قال الإمام ابن كثير: أي افعل الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود: مقام الشفاعة، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد وقال الحسن البصري.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: إن الشمس تدنو يوم القيامة، حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينا هم كذلك: استغاثوا بآدم فيقول لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ، فيشفع فيقضي بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم.

ونذكر لك بعض ما اختص به ﷺ، مما جاء في غير الحديث السابق.

٦ - أعطيت جوامع الكلم:

قال عليه الصلاة والسلام: أعطيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً.

ومعنى ذلك: أنه ﷺ أنعم الله عليه بأن ينطق بقليل الكلام الذي يحمل الكثير من المعاني.

وهذه الخصوصية: تتمثل في كل أحاديثه وكلماته، لذلك ترى شراح

الحديث يستخلصون من العبارة الواحدة أحكاماً وحكماً وعبراً كثيرة، وما ذكروا إلا القليل من مكنون الحكم وجواهر الكلم.

وإليك أمثلة موجزة من أقواله ﷺ:

"إنما الأعمال بالنيات".

"اليد العليا خير من اليد السفلى"

"إن الله يحب الرفق في الأمر كله".

"لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

٧ - وختمت بي النبوة والرسالة:

لما كانت الرسالات قبل الإسلام خاصة لفئة معينة من الناس، وكان الإسلام عاماً للبشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، فإن محمداً ﷺ قد اصطفاه ربه ليكون خاتماً للمرسلين كلهم، والنبيين جميعهم.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾(١).

ويقول الإمام ابن كثير: "هذه الآية نص في أنه لا نبي بعده. وإن كان لا نبي بعده، فلا رسول بالطريق الأولى، والأحرى. لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة. فإن كل رسول نبي ولا ينعكس"(٢).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل

(١) سورة الأحزاب آية: ٤٠.

(٢) ابن كثير، جـ ٣، ٤٩٣.

رجل بنى بيتاً فأحسنه، وأكمله، إلا موضع لبنة (بفتح اللام وكسر الباء الموحدة، قطعة طين تعجن وتعد للبناء من غير إحراق) من زاوية من زواياه.

جعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين"[١]. (رواه البخاري ومسلم)

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :"إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي"[٢].

رواه أحمد والترمذي والحاكم بإسناد صحيح.

٨ - وهو أفضل المرسلين عند الله:

وإذا كان رسول الإسلام ﷺ خاتم النبيين، ورحمة للعالمين وبعثه الله بشرع كامل عظيم، فقد فضله ربنا على جميع المرسلين، وكل النبيين.

ومبدأ تفضيل بعض الرسل على بعض مقرر في كتاب الله تعالى.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٤].

---

(١) الفتح الرباني، جـ ٥، ص ٢٦٧- ٢٦٨.

(٢) الزرقاني على المواهب، جـ ٥، ص ٢٦٧.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٥٣.

(٤) سورة الإسراء آية: ٥٥.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

يقول ابن كثير: "وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بينها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل"[2].

وعن أبي سعيد سعد بن مالك الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي: آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر. وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر"[3].

■ ■ ■

(١) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٢) ابن كثير، جـ ١، ص ٣٩١.

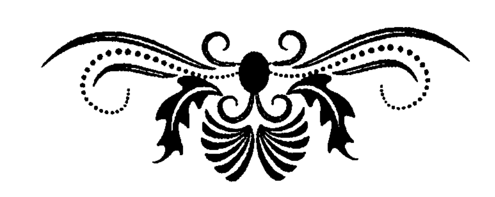
(٣) الزرقاني، جـ ٨، ص ٣٥٢.



الفصل السادس

إنسانية الرسول

* إنسانيته في معاملة أصحابه.
* إنسانيته مع نسائه وأهله وأولاده.
* إنسانيته في معاملة أعدائه.
* إنسانيته في خاصة أمره.
* إنسانيته في حرمة الحيوان.



إنسانيته ﷺ في معاملة أصحابه

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1].

المعاملة العامة:

١- عن أبي أمامة ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، متوكئاً على عصاه، فقمنا له، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً[2].

٢- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: كان ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أصحابه بالمصافحة[3].

٣- وعنه ﷺ قال: كان ﷺ يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويكني أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه، حتى يتجوز قطعه بانتهاء أو قيام[4].

٤- وعنه ﷺ قال: ما التقم أحد أذن رسول الله ﷺ، فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده: حتى يرسلها الآخر، ولم يرد مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له[5].

---

(١) سورة التوبة آية: ١٢٨.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة، (الشفاء، جـ ١، ص ١٠٠).

(٣) رواه ابن سعد، (الشفاء، جـ ١، ص ٩٤).

(٤) رواه الدارقطني: المرجع السابق. يعزم: يحلف ويقسم، يتجوز: يجاوز الموضوع إلى غيره أو ينتهي منه.

(٥) رواه أبو داود والترمذي والبيهقي، المرجع السابق.

٥- وعنه ﷺ قال: "كان ﷺ لا يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه"[١].

٦- وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ إذا لقيه أحد من أصحابه مسحه ودعا له"[٢].

٧- وعن أنس ﷺ قال: كان ﷺ يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح على رؤوسهم [٣].

٨- وعنه ﷺ قال: كان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم، ويجيب دعوة العبد والحر والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر [٤].

٩- وكان ﷺ يقول: "لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر"[٥].

١٠- وعن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: سألت أبي عن مخرج رسول الله ﷺ كيف كان يصنع؟

فقال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعينهم ويؤلفهم ولا يفرقهم، يكرم كريم قوم ويليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منه ممن غير أن يطوي عن أحد منه بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي (كنز العمال،جـ ٧، ص ٨٣).

(٢) رواه النسائي، (المصدر السابق، ص ٩٤).

(٣) رواه النسائي وابن ماجه، (كنز العمال، جـ ٧، ص ٩٤).

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه، (الشفاء، جـ ١، ص ٩٤).

(٥) رواه أبو داود والترمذي، (المصدر السابق، ص ٩٧).

ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد.

لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره، أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة"[١].

١١- وعن أبي هالة ﷺ قال: كان ﷺ يعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه إن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وسع بسطه وخلقه، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء.

وكان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا عياب، ولا مداح. يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيسُ منه [٢].

١٢- وعن عيسى بن حازم ﷺ قال: "دخل رجل على النبي ﷺ فأصابته رعدة من هيبته، فقال: "هون عليك فإني لست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد"[٣].

يشارك أصحابه في إعداد الطعام:

١٣- وذكر المحب الطبري في مختصر السيرة : أن الرسول ﷺ كان في سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة.

---

(١) ذكره القاضي عياض في الشفاء (الشفا: جـ ١، ص ١٢٤).

(٢) أخرجه ابن سعد، (الشفا، جـ١، ص ٩٢- ٩٣).

(٣) رواه البخاري وابن ماجه، (الشفا، جـ ١، ص ١٠٢).

فقال رجل يا رسول الله: عليّ ذبحها.

وقال آخر يا رسول الله: عليّ سلخها.

وقال آخر يا رسول الله: عليّ طبخها.

فقال رسول الله ﷺ: عليّ جمع الحطب.

فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل.

فقال: قد علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبد أن يراه متميزاً بين أصحابه [١].

ويشرب آخرهم:

١٤- عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يسقي أصحابه، فقالوا يا رسول الله، لو شربت؟ قال: ساقي القوم آخرهم شرباً [٢].

١٥- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف ويدعو لهم [٣].

١٦- وعن أنس ﷺ قال: كان ﷺ رحيماً وكان لا يأتيه أحد إلا وعده وأنجز له إن كان عنده [٤].

مقابلة الإساءة بالإحسان:

١٧- عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: أعدل فإن

---

(١) المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٢٦٤.

(٢) رواه (ابن الجوزي في الوفا، جـ ٢، ص ٦١٩).

(٣) رواه أبو داود والحاكم ، (كنز العمال، جـ ٧، ص٢٠).

(٤) رواه البخاري وأبو داود ، (المصدر السابق ، ص ٨٦).

هذه قسمة ما أريد بها وجه الله !! فقال ﷺ: "ويحك ... فمن يعدل إذا لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل، ونهى من أراد قتله"[١].

١٨- وعن أنس رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة (جبذ وجذب بمعنى واحد) حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد، أحمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك فإنك لا تحمل لي من مالك ولا مال أبيك!!

فسكت النبي ﷺ، ثم قال: المال مال الله وأنا عبده... ثم قال: ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي؟؟ قال: لا. قال: لم؟ قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، ضحك النبي ﷺ، ثم أمر أن يحمل له على بعير تمر وعلى الآخر شعير[٢].

١٩- عن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء فقال: لا[٣].

٢٠- وعن ابن شهاب رضي الله عنه قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة وذكر خيلنا قال: فأعطى الرسول صفوان بن أمية بن خلف: مائة من النعم ثم مائة ثم مائة.

فقال صفوان: والله لقد أعطاني ما أعطاني، وإنه لأبغض الخلق إلى، فما زال يعطيني حتى أنه لأحب الخلق إليّ[٤].

---

(١) رواه الشيخان، (الشفاء، ص ٨٢)، قال القاضي عياض لم يزد ﷺ في جوابه: أن يبين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له.

(٢) رواه الشيخان إلى قوله فضحك وأمر له بعطاء، والبيهقي بنصه في الأدب، (الشفا، جـ ١، ص ٨٤)

(٣) رواه مسلم، (الشفا، ص ٥٦).

(٤) الشفا، جـ ٧، ص ٩٩.

٢١- وعن أنس ﷺ قال: كان ﷺ يقول لأحدنا عند المعاتبة، ما له ترب جبينه [١].

٢٢- جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال ﷺ: أحسنت إليك؟

قال الأعرابي: لا ... ولا أجملت، فغضب المسلمون، وقاموا إليه!!فأشار الرسول عليهم أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئاً.

ثم قال: أحسنت إليك؟

قال: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

قال النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت: فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك.

قال: نعم، فلما كان الغد أو العشى جاء، فقال ﷺ: إن هذا الإعرابي قال ما قال، فزدناه، فزعم أنه رضى، أكذلك؟.

قال: نعم... فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال ﷺ: مثلي ومثل هذا: كمثل رجل له ناقة، شردت عليه فأتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها، خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها حتى جاءت واستناخت فشد عليها رحلها واستوى عليها !!

---

(١) الفتح الرباني، جـ ٢٢، ص ٢٠. وترب جبينه: أي سقط جبينه في التراب، وهي كقولهم رغم أنفه.

وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه: دخل النار [(١)].

وفاء نادر:

٢٣- عن عبد الله بن أبي الحسماء ﷺ قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث وبقيت له بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه، فنسيت فذكرت بعد ثلاث، فإذا هو في مكانه، فقال ﷺ: لقد شققت على، أنا هنا منذ ثلاث انتظرك [(٢)].

٢٤- وعن سهل بن سعد ﷺ: إن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة فقالت: نسجتها بيدي لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وأنها إزاره.

فقال فلان: أكسنيها ما أحسنها! قال: نعم: فجلس النبي ﷺ في المجلس، ثم رجع فطواها فأرسل بها إليه، فقال له القوم للرجل: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً فقال: إني والله ما سألته لألبسها. وإنما سألته لتكون كفني.

قال سهل راوي الحديث فكانت كفنه [(٣)].

يقبل الهدية ولو كانت من غير مسلم:

٢٥- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها[(٤)].

---

(١) رواه البزار وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، (الشفا: جـ ١، ص ٩٦- ٩٧).

(٢) رواه أبو داود، المرجع السابق.

(٣) رواه البخاري، (رياض الصالحين، ص ٢٥٧).

(٤) رواه أحمد والبخاري ، وأبو داود والترمذي، (نيل الأوطار، جـ ٦، ص ٦).

٢٦- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : لو أهدي إلي كراع لقبلت ولو دعيت إلى كراع لأجبت [١].

٢٧- وعن علي ﷺ قال: أهدى كسري لرسول الله ﷺ فقبل منه وأهدت له الملوك فقبل منها [٢].

٢٨- وعن بلال بن رباح قال: انطلقت حتى أتيت رسول الله ﷺ، وإذا أربع ركائب مناخات عليهن أحمالهن، فاستأذنت فقال لي: أبشر فقد جاءك الله بقضائك.

قال: ألم تر الركائب المناخات الأربع؟ فقلت: بلى ، فقال: إن لك رقابهن وما عليهن، فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهن إلي عظيم فدك - بفتح الفاء والدال - فاقبضهن فاقض دينك ففعلت [٣].

توجيه وتعليم:

٢٩- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان يقول. ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا [٤].

٣٠- وعن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم. فقلت:يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم،

---

(١) ذكر ابن الجوزي في الوفاء، (الوفاء، جـ ٢، ص ٤٦٦).

(٢) رواه أحمد والترمذي، (نيل الأوطار، جـ ٦، ص ٣).

(٣) مختصر لأبي داود، (المصدر السابق، جـ ٦).

(٤) رواه أبو داود، (كنز العمال، جـ ٧، ص ٨٣).

فقلت: واثكل أماه ما شأنكم تنظرون إلي!! فجعلوا يضربون على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتوني، لكني سكت (يعني: أردت أن أكلمهم لكني سكت).

فلما صلى رسول الله ﷺ، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه. فوالله ما كهرني (انتهرني) ولا ضربني ولا شتمني.

قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن أو كما قال [١].

مودته لأصحابه وسؤاله عنهم:

٣١- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الغداة، أقبل عليهم بوجهه فقال: هل فيكم مريض أعوده؟ فإن قالوا: لا. قال: هل فيكم جنازة أتبعها؟ فإن قالوا : لا؟ قال: من رأى منكم رؤيا فليقصها علينا [٢].

٣٢- وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قعد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام: سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده [٣].

٣٣- وعن مالك بن الحويرث ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عمن تركنا من أهلنا فأخبرناه.

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما، (الدين الخالص، جـ ٤، ص ١٤).

(٢) رواه ابن عساكر، (كنز العمال، جـ ٧، ص ٣٠).

(٣) ذكره ابن الجوزي في الوفاء، (الوفاء، جـ ٢، ص ٤٢٣).

فقال: ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم [١].

الرسول يمازح أصحابه ويداعبهم:

٣٤- عن أنس ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: احملني، فقال: إنا حاملوك على ولد الناقة.

قال: وما أصنع بولد الناقة؟

قال: وهل تلد الإبل إلا النوق [٢].

٣٥- وعن زيد بن أسلم ﷺ قال: كان الرجل يهدي إلى النبي ﷺ العكة من السمن والعسل، وكان لا يدخل إلى المدينة طرفة (شيئاً طريفاً) إلا اشترى منها. ثم جاء فقال: يا رسول الله هذا هدية لك، فإذا جاء صاحبه يطلب ثمنه، جاء فقال: يا رسول الله، أعط هذا الثمن، فيقول ﷺ: ألم تهدها إليّ؟

فيقول: ليس عندي، فيضحك رسول الله ويأمر لصاحبه بثمنه [٣].

٣٦- وعن عبد الحميد بن صيفي عن أبيه عن جده قال: إن صهيباً قدم على النبي ﷺ، وبين يديه تمر وخبز فقال: أدن فكل، قال: فأخذ يأكل من التمر.

فقال النبي: إن بعينك رمداً فقال: يا رسول الله إنما آكل من الناحية الأخرى، فيبتسم النبي ﷺ [٤].

- (ابن صيفي: هو صهيب).

---

(١) المصدر السابق، جـ ٢.

(٢) رواه الترمذي وأبو داود، (المواهب، جـ ١، ص ٢٩٧).

(٣) رواه أبو يعلى، (المرجع السابق، جـ ١).

(٤) رواه الإمام أحمد، (الفتح الرباني، جـ ١٩، ص ٢٧، ١٢، ص ٣٨).

- (إن بعينك رمداً، في رواية ابن ماجة: تأكل تمراً وبعينك رمد؟!

- فيكون ﷺ قد قال ذلك على وجه المباسطة.

- ويحتمل أن يكون من به رمد لا يناسبه أكل التمر لأنه يحتاج إلى قوة المضغ، وهذا يؤلم العين.

- (إنما آكل من الناحية الأخرى: أي عليها، والمراد ناحية عينه السليمة، وهي مداعبة متبادلة بين النبي وصاحبه صهيب) [١].

٣٧- وعن أنس ﷺ: أن رجلاً من البادية يقال له زاهر أو زهير وكان يهدي النبي ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال ﷺ: زهير باديتنا ونحن حاضرته، وكان الرسول يحبه، مشى يوماً إلى السوق، فوجد زهيراً يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره.

فقال: أرسلني، من هذا؟

فلما عرف أنه النبي ﷺ، جعل لا يألوا ما ألصق ظهره بصدر رسول الله ﷺ حين عرفه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: من يشتري العبد، فقال زهير: يا رسول الله إذن تجدني كاسداً.

فقال النبي ﷺ: لكن عند الله لست بكاسد، أو قال: لكن أنت عند الله غال [٢].

٣٨- وعنه ﷺ قال: إن عجوزاً دخلت على رسول الله ﷺ ، فسألته عن

---

(١) الفتح الرباني: جـ ١٩، ص ٢٧ بتصرف.

(٢) ذكره ابن الجوزي في الوفا، جـ ٢، ص ٤٤٤، المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٢٩٧.

شيء فقال لها ومازحها: "إنه لا يدخل الجنة عجوز... وحضرت الصلاة، فخرج النبي إلى الصلاة فبكت بكاء شديداً حتى رحل النبي ﷺ.

فقالت عائشة: يا رسول الله، إن هذه المرأة تبكي لما قلت لها: إنه لايدخل الجنة عجوز... فضحك وقال: "لا يدخل الجنة عجوز".

ولكن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧﴾ [1].

وهو العجائز الرمص. (الرمص: اللواتي: ضعف بصرهن) [2].

٣٩- وعن أبي هريرة ﷺ قال: "كان ﷺ يجيب من دعاه، ويقبل الهدية ولو كان كراعاً ويثيب عليها" [3].

٤٠- وكان ﷺ إذا كان مع قوم كان آخرهم أكلاً [4].

٤١- وكان ﷺ إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم، فدعا في منزل عبد الله بن بسر فقال: "اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم" [5].

٤٢- ودعا عليه الصلاة والسلام في منزل سعد بن أبي وقاص ﷺ فقال: "أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة" [6].

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٣٥ - ٣٧.

(٢) المرجع السابق، جـ ١٩، ص ٤٤٥.

(٣) رواه البخاري ، (الشفا، جـ ١، ص ٩٣).

(٤) المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٣٢٣.

(٥) المصدر السابق.

(٦) رواه أبو داود، (المصدر السابق، ص ٣٢٤).

٤٣- وسقاه رجل لبنا فقال: "اللهم أمتعه بشبابه، فمرت به ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء (١) .

٤٤- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: "كان ﷺ يدعى إلى خبز الشعير، والإهالة السنخة فيجيب"(٢).

يجيب اليهودي:

٤٥- عن أنس ﷺ "أن يهودياً دعا رسول الله ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة فأجابه"(٣).

تكريم أصحابه بتغيير ما قبح من أسمائهم:

٤٦- عن عتبة بن عبد ﷺ قال: كان ﷺ إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه: حوله (٤) .

٤٧- وعن حفظة بن حذيم قال: كان يعجبه ﷺ أن يدعى الرجل بأحب أسمائه إليه وأحب كناه (٥) .

٤٨- وثبت عنه ﷺ أنه قال: أضع اسم عند الله: رجل يسمي "ملك الأملاك" لا ملك إلا الله".

(١) رواه ابن السني، المصدر السابق.
(٢) رواه ابن ماجة والترمذي، (الشفا، جـ ١ ، ص ١٠٢).
(٣) رواه الإمام أحمد، جـ ٢٢، ص ٢٤.
الإهالة: هو ما أذيب والإلية، وقيل: هو الدسم الجامد.
سنخة: بفتح فكسر: متغيرة الريح.
(٤) رواه ابن منده، (كنز العمال، جـ ٧، ص ٩٦).
(٥) رواه أبو يعلى والطبراني وابن نافع البارودي، (المصدر السابق، جـ ٧، ص ١٧).

وثبت عنه أنه قال: "أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها: حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة...".

وثبت عنه ﷺ أنه غير اسم عاصية، وقال: "أنت جميلة" وكان اسم جويرية: برة . فغيره ﷺ باسم "جويرية".

وقالت زينب بنت أم سلمة رضي الله عنهما: نهى رسول الله ﷺ أن يسمى بهذا الاسم "برة" فقال: "لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم".

وغير اسم "أصرم" بـ "زرعة" وغير اسم "أبي الحكم" بـ "أبي شريح"، وغير اسم "حزن" ضد سعيد وجعله "سهلاً".

قال أبو داود: وغير النبي ﷺ اسم "العاص" و"عزيز" و"عبلة" و"شيطان" و"الحكم" و"غراب" و"شهاب" فسماه هشاماً، وسمى "حرباً" "سلماً" وسمى "المضطجع" "المنبعث".

وأرضا "عفرة" سماها "خضرة" و"شعب الضلالة" سماه "شعب الهدى" و "بنو الزينة" سماهم "بنو الرشدة" وسمى "بني معاوية" "بني الرشيدة" [١]

٤٩ عن حارثة الأنصاري ﷺ قال: كان ﷺ إذا لم يحفظ اسم الرجل قال: يا ابن عبد الله [٢].

٥٠- كان ﷺ يداعب صبيان المسلمين ويجلسهم في حجره [٣].

٥١- عن أنس بن مالك ﷺ قال: "ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ" [٤].

---

(١) زاد المعاد، جـ ٢، ص ٤-٥.

(٢) رواه ابن السني، (كنز العمال، جـ ٧، ص ٩٦).

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة، (الشفا، ص ٩٤).

(٤) رواه مسلم ، (المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٢٩٣).

٥٢- وعنه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له أبو عمير وكان له نغر يلعب به (النغر: طائر صغير كالعصفور) فمات، فدخل النبي ﷺ ذات يوم فرآه حزيناً فقال: ما شأنه؟ قالوا: مات نغره فقال: يا أبا عمير: ما فعل النغير؟[(١)].

٥٣- دخلت زينب بنت أم سلمة ربيبة النبي ﷺ وهو في مغتسله فنضح الماء في وجهها (يداعبها)[(٢)].

قال صاحب المواهب اللدنية: القسطلاني. فكان في ذلك من البركة في وجهها أنه لم يتغير، فكان ماء الشباب ثابتاً في وجهها ظاهراً في رونقها وهي عجوز كبيرة[(٣)].

٥٤- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان ﷺ يؤتى (بالبناء للمفعول) بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم ويدعو لهم[(٤)].

٥٥- وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: كان ﷺ إذا قدم من سفر تلقى (بالبناء للمفعول) بالصبيان من أهل بيته، وأنه قدم من سفر مرة، سبق بي إليه، فحملني بين يديه، قال ثم جيء بأحد بني فاطمة إما حسن وإما حسين فأردفه خلفه فدخلنا المدينة على دابة[(٥)].

---

(١) رواه الشيخان: (المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٩٨).

(٢) البخاري ، (المرجع السابق، ص ٢٩٩).

(٣) المرجع السابق.

(٤) رواه الشيخان وأبو داود، كنز العمال، جـ ٧، ص ٩٤.

(٥) رواه أحمد، (الفتح الرباني، جـ ١٣، ص ١٩).

٥٦- وعن أنس ﷺ قال: كنت مع الصبيان - فمر رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم يا صبيان [١].

٥٧- وعن عبد الله بن الحارث رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله - ابني عمر - وكثير بن العباس ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا، قال: فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم (يحتضنهم) [٢].

معاملته للنساء:

٥٨- عن جرير بن عبد الله عنه قال: كان ﷺ يمر بنساء فيسلم عليهن [٣].

معاملته للضعاف:

٥٩- عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه ذكر النبي ﷺ فقال: لا والله ما كان يغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدي عليه بالجفان، ولا يراح عليه بها، ولكنه كان بارزاً، من أراد أن يلقى نبي الله لقيه [٤].

٦٠- وعن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له حاجته [٥].

٦١- وعن أبي قتادة ﷺ. أن النبي ﷺ قال: إني لأقوم إلى الصلاة، فأريد أن

---

(١) رواه الديلمي ، (كنز العمال، جـ ٧، ص ١٣٨).

(٢) رواه أحمد، (مجمع الزوائد، جـ ٩، ص ١٧).

(٣) رواه أحمد ، (كنز العمال، جـ ٧، ص ٩٥).

(٤) ذكره ابن الجوزي في الوفا، جـ ٢، ص ٤٣٦.

(٥) المرجع السابق، جـ ٢، ص ٤٣٧.

أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه[١] .

٦٢- وعن أنس ﷺ أن امرأة من الأنصار كان في عقلها شيء، جاءت إلى النبي فقالت يا رسول الله، إن لي إليك حاجة فقال: يا أم فلان، اجلسي في أي طرق المدينة شئت: أجلس إليك حتى أقضي حاجتك.

قال أنس: فجلست، فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجاتها [٢].

٦٣- عن سهل بن ضيف قال: كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم [٣].

معاملته للخدم:

٦٤- عن أنس ﷺ قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف قط، وما قال شيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته، لم تركته [٤].

٦٥- وعنه ﷺ قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما سبني سبة قط، ولا ضربني ضربة ولا انتهرني، ولا عبس في وجهي، ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاقبني عليه.

فإن عاتبني أحد من أهله قال: دعوه فلو قُدرَ شيء كان [٥].

---

(١) رواه البخاري، المصدر السابق، ص ٤٢٩.

(٢) رواه مسلم، الشفا، جـ ١، ص ١٠٢.

(٣) رواه أبو يعلى والطبراني، كنز العمال، جـ ٧، ص ١٠٢.

(٤) الشيخان، الشفا، جـ ١، ص ٩٣.

(٥) ذكره ابن الجوزي في الوفا، جـ ٢، ص ٤٣٥.

معاملته ﷺ للرقيق:

٦٦- عن أنس ﷺ قال: إن كانت الوليدة من ولائد المدينة، تجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فلا ينزع من يدها حتى تذهب به حيث شاءت[١].

٦٧- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعير[٢].

٦٨- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: كان ﷺ يركب الحمار ويلبس الصوف ويعتقل الشاة ويأتي مراعاة الضيف[٣].

■ ■ ■

(١) ذكره ابن الجوزي في الوفا، جـ ٢، ص ٤٣٧.

(٢) الطبراني، مجمع الزوائد، جـ ٩، ص ٢٠.

(٣) رواه الطبراني، المصدر السابق.

إنسانيته ﷺ مع نسائه وأهله وأولاده

إنسانيته ووفاؤه:

١- وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إن أتي بهديه قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة [١].

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت امرأة على رسول الله ﷺ: فهش لها وأحسن السؤال عنها. فلما خرجت قال: "إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان" [٢].

٣- وعن أنس ﷺ قال: كان رجل يسوق بأمهات المؤمنين يقال له "أنجشة" فاشتد في السياقة، فقال له رسول الله ﷺ: "يا أنجشة" رويدك سوقاً بالقوارير.

القوارير: جمع قارورة سميت بذلك لاستقرار الشراب فيها، والمعنى: لا تسرع السير بالنساء في سفرك حال سوقك، لئلا يقضي ذلك إلى السقوط، بهن لضعف بنيتهن ورقتهن: كالقوارير يسرع إليها الكسر ولا تقبل الجبر [٣].

٤- وسئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ فقالت: كان ألين الناس، باسماً ضاحكاً [٤].

---

(١) البخاري في الأدب المفرد، المصدر السابق، ص ٩٩.

(٢) الشيخان، المصدر السابق، ص ٢١.

(٣) الفتح الرباني شرح الإمام أحمد، جـ ٢٢، ص١٥٠.

(٤) ذكره العسقلاني في المواهب اللدنية، جـ ١، ص٢٩٣.

٥- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ يأمر بناته ونساءه أن يخرجن في العيد [(١)].

٦- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يمتلئ جوف النبي شبعاً قط، وكان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وما سقوه شرب [(٢)].

٧- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان ﷺ في بيته في مهنة أهله، يفلي ثوبه ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه ويقم البيت، ويعقل البعير ويعلق ناضحه، ويأكل مع الخادم ويعجن معها، ويحمل متاعه من السوق[(٣)].

معاملته لزوجاته:

جاء في المواهب اللدنية للقسطلاني:

وكان عليه الصلاة والسلام حسن العشرة مع أزواجه، وكان ينام مع أزواجه.

قال الإمام النووي: وهو ظاهر فعله الذي واظب عليه، مع مواظبته على قيام الليل فينام مع إحداهن.

فإذا أراد القيام لوظيفته: قام وتركها، فيجمع بين وظيفته وأداء حقها المندوب وعشرتها بالمعروف [(٤)].

---

(١) رواه أحمد، كنز العمال، جـ ٧، ص ٥٣.

(٢) ذكر العسقلاني في المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٣٠٨.

(٣) البخاري وابن ماجة، الشفا، جـ ١، ص ١٠٢.

(٤) المواهب والأحياء، جـ ١، ص ٢٩٥- ٢٩٦.

٨- وعن أنس ﷺ قال: كان ﷺ لا يطرق أهله ليلاً [(١)].

٩- عن أنس ﷺ: أن أم سليم بعثت إلى رسول الله ﷺ بقناع عليه رطب، فجعل يقبض القبضة، فيبعث بها إلى بعض أزواجه، ويقبض القبضة فيبعث بها إلى بعض أزواجه، ثم جلس فأكل بقيته: أكل رجل يعلم أنه يشتهيه. (القناع: بكسر القاف: الطبق يوضع فيه الطعام) [(٢)].

١٠- وعن أنس ﷺ قال: كان ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم.

فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: غارت أمكم، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها.

فدفع الصحفة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيه [(٣)].

١١- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، أهدت إلى النبي ﷺ : إناء فيه طعام - وفي لفظ: وهو عندي: تعني النبي ﷺ فما ملكت نفسي إن كسرته. فقلت يا رسول الله: ما كفارته؟ قال:إناء بإناء وطعام بطعام) [(٤)].

---

(١) رواه الشيخان، كنز العمال، جـ ٧، ص ٦٠.

(٢) مسند الإمام أحمد، جـ ٢٢، ص ١٤٨.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، جـ ١١، ص ٢٣٧، ط: مصطفى الحلبي.

(٤) مسند الإمام أحمد، جـ ٢٢، ص ١٥٠.

١٢- وكان ﷺ : يسرب بنات الأنصار إلى عائشة رضي الله عنها يلعبن معها[١] .

١٣- وكان ﷺ: إذا شربت عائشة رضي الله عنها من الإناء: أخذه فوضع فمه على موضع فيها وشرب، وإذا تعرقت عرقاً: أخذه فوضع فمه موضع فمها[٢]. (تعرقت عرقاً: فتح العين وسكون الراء: أكلت لحماً من عرق: وهو العظم عليه لحم).

١٤- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء حبشة يزفون يوم عيد في المسجد فدعاني ﷺ فوضعت رأسي على منكبه: فجعلت أنظر إلى لعبهم، حتى كنت أنا الذي انصرف من النظر إليهم[٣] .

وفي رواية الترمذي، قام ﷺ فإذا حبشه يزفون في المسجد فقال: يا عائشة: تعالي فانظري، فوضعت لحيتي على منكب رسول الله ﷺ: فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه، فقال لي: أما شبعت.. أما شبعت؟

فجعلت أقول: لا ... لا[٤].

١٥- وعنها رضي الله عنها قالت: سابقت رسول الله ﷺ في سفر، فسبقته

---

(١) الشيخان، المواهب اللدنية، جـ ١ ، ص ٢٩٦.

(٢) رواه مسلم، المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٢٩٦.

(٣) رواه البخاري.

(٤) المواهب اللدنية، جـ ١،ص ٢٩٦. (يزفون: بكسر الفاء، يرقصون (لحيي: اللحى: بفتح اللام المشددة عظم الفم الذي فيه الأسنان).

على رجلي، قالت: فلما حملت اللحم، سابقته فسبقني، فقال هذه بتلك السبقة[١].

١٦- وعنها رضي الله عنها قالت: كنت إذا غضبت عرك رسول الله ﷺ أنفي وقال: يا عويش، قولي: اللهم رب محمد، اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن[٢].

١٧- وعنها رضي الله عنها قالت: أتيت النبي ﷺ بخريزة طبختها، وقلت لسودة رضي الله عنها، والنبي بيني وبينها: كلي، فأبت، فقلت لها كلي فأبت.

فقلت لها: لتأكلين أو لألطخن بها وجهك، فأبت، فوضعت يدي في الخريزة، فلطخت بها وجهها، فضحك ﷺ [٣].

قال القسطلاني: وهكذا كانت أحواله مع أزواجه: لا يأخذ عليهن، ويعذرهن وإن أقام عليهن قسطاس عدل، أقامه بغير قلق ولا غضب،بل رؤوف رحيم، حريص عليهن وعلى غيرهن، عزيز عليه ما يعنتهن [٤].

معاملته لعمه العباس:

١٨- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ يجل العباس ﷺ إجلال الولد لوالده [٥].

---

(١) المرجع السابق ، جـ ١، ص ٢٩٧.

(٢) رواه ابن السني، كنز العمال، جـ ٧، ص ٨٥، (عرك: بفتحات ذلك أي قرص أنفها بغير عنف).

(٣) رواه ابن غيلان وخرجه الملا في سيرته، المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٢٩٧.

(٤) المواهب اللدنية، ص ٢٦٩.

(٥) رواه الحاكم، كنز العمال، جـ ٧، ص ٨٥.

١٩- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان ﷺ يرى العباس ما يرى الوالد لوالده يعظمه ويفخمه ويبر قسمه [١].

معاملته لأبنائه وبناته:

٢٠- عن أبي هريرة ﷺ قال: قبل النبي ﷺ الحسين بن علي رضي الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس قال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا!! فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: "من لا يرحم لا يرحم" [٢].

٢١- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي والحسن والحسين يلعبان ويقعدان على ظهره [٣].

٢٢- ودخل الحسن ﷺ على النبي ﷺ وهو يصلي قد سجد، فركب ظهره، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، قد أطلت سجودك، فقال: إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله [٤].

٢٣- وعن أبي قتادة ﷺ قال: كان ﷺ يصلي بأمامة ابنة ابنته زينب رضي الله عنها: يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها فجعلها على عاتقة [٥] .

---

(١) رواه الحاكم، المصدر السابق، ص ٩٥.

(٢) متفق عليه، رياض الصالحين، ص ١٢٢.

(٣) أبو نعيم في الحلية، كنز العمال، جـ ٧، ص ٢٥.

(٤) رواه الترمذي في الشمائل، المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٢٩٥.

(٥) رواه الشيخان، الشفا، جـ ١، ص ٩٩.

٢٤- وعن أنس ﷺ قال: كان ﷺ يلاعب زينب بنت أم سلمة رضي الله عنها ويقول: يا زوينب ... يا زوينب مراراً [١].

٢٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم. بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع - زوجها - بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة رضي الله عنها أدخلتها بها على أبي العاصم حين بني عليها.

قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال: "إن رأيتم إن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها، فافعلوا".

فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها [٢].

٢٦- وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أن عليا ذكر ابنة أبي جهل، فقال النبي ﷺ "فاطمة بضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها وينصبني ما أنصبها [٣].

بضعة: بفتح فسكون: قطعة. ينصبني: يتعبني.

٢٧- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبلت فاطمة رضي الله عنها تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ، فقال: مرحباً بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثاً فبكت.

فقلت له: استضحك رسول الله ﷺ حديثه ثم تبكين؟ ثم أسر إليها حديثاً فضحكت.

---

(١) رواه الضياء المقدسي، كنز العمال، جـ ٧، ص ٨٥.

(٢) رواه الإمام أحمد، جـ ١٢، ص ٩٧.

(٣) المصدر السابق، جـ ١٣، ص ٩٣.

فقلت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، فلما قبض النبي ﷺ سألتها فقالت: إنه أسر إلي فقال: إن جبريل عليه السلام كان يعارضني بالقرآن في كل عام مرة، وأنه عارضني به العام مرتين، ولا أراه إلا قد حضر أجلي.

وإنك أول أهل بيتي لحوقًا بي، ونعم السلف أنا لك، فبكيت لذلك، ثم قال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة أو نساء المؤمنين؟

قالت : فضحكت لذلك [١] .

معاملته لمرضعاته وأبيه وأخيه وأخته من الرضاع:

٢٨- قال ابن الطفيل ﷺ: رأيت النبي ﷺ وأنا غلام، إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه، فبسط لها رداءه فجلست عليه!! فقلت: من هذه؟؟ قالوا: أمه التي أرضعته [٢].

٢٩- عن عمرو بن السائب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان جالساً، فأقبل أبوه في الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه.

ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ثم أقبل أخوه من الرضاعة. فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه [٣].

٣٠- لما جيء إلى رسول الله ﷺ بأخته من الرضاع - الشيماء - في سبايا

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ ٢٢، ص ٩٢ - ٩٣.

(٢) أبو داود ، الشفا، جـ ١ ص ١٠٠.

(٣) أبو داود، المرجع السابق.

هوازن وتعرفت عليه: بسط لها رداءه، وقال لها: إن أحببت، أقمت عندي مكرمة محببة أو أمتعك ورجعت إلى قومك، فاختارت قومها فمتعها [١] .

٣١- كان ﷺ يبعث إلى مرضعته: ثويبة مولاة أبي لهب بصلة وكسوة فلما ماتت سأل: من بقى من قرابتها (ليصله) فقيل: لا أحد [٢].

٣٢- عن أنس ﷺ قال: كان جبريل يجعل للنبي ﷺ التحلات، حتى افتتح بني قريظة، وإن أهلي أمروني أن آتي رسول الله فأسأله الذي كانوا أعطوه أو بعضه.

وكان النبي قد أعطاه أم أيمن (حاضنته) فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي تقول: كلا والذي لا إله غيره لا يعطيكم وقد أعطانيها، والنبي ﷺ يقول: لك كذا وتقول: كلا والله، حتى أعطاها- حسبت أنه قال - عشرة أمثاله حتى رضيت .

قال القسطلاني: أراد ﷺ استطابة قلبها. في استرداد ذلك، ولاطفها وما زال يزيدها في العوض حتى رضيت، ولا يخفي ما في هذا من فرط جوده وكثرة حلمه وبره [٣].

■ ■ ■

(١) البيهقي وابن إسحاق، المرجع السابق.

(٢) ابن سعد في الطبقات، المرجع السابق.

(٣) المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٢٩٥.

إنسانيته ﷺ في معاملة أعدائه

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[(١)]

صبره عليهم وإحسانه إليهم:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة قط، ما لم تكن حرمة من محارم الله، وما ضرب بيده خادماً ولا امرأة قط[(٢)].

٢- وعنها رضي الله عنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا صاخباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكنه يعفو ويصفح[(٣)].

٣- وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك[(٤)].

عفوه عن مسيئهم:

٤- وجاء زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضى رسول الله ﷺ ديناً كان عليه فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بني المطلب مطل.

فانتهره عمر رضي الله عنه وشدد له في القول، والنبي ﷺ يبتسم؟؟

فقال ﷺ أنا وهو كنا إلى غير ذلك أحوج منك يا عمر؟؟

---

(١) سورة القلم آية: ٤.

(٢)الشيخان، الشفا، جـ ١، ص ٨٣.

(٣) رواه الترمذي، الشفا، جـ ١، ص ٩١.

(٤) رواه الطبراني، كنز العمال، جـ ٧، ص ٩٨.

تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي.

ثم قال له: "لقد بقي من أجله ثلاث" ثم أمر عمر أن يقضيه ماله، ويزيده عشرين لما روعه فكان ذلك سبب إسلام زيد ﷺ [١].

٥- عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما تصدى غورث بن الحارث لرسول الله ﷺ ليفتك به، والرسول منتبذ تحت شجرة وحده قائلاً، والناس قائلون في غزاة، فلم ينتبه الرسول إلا وهو قائم والسيف صلتا في يده فقال: من يمنعك مني؟

فقال ﷺ: "الله" فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: "من يمنعك مني" فقال: كن خير آخذ، فتركه ﷺ وعفا عنه.

فجاء غورث إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس [٢].

٦- امتنع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين من أمثال عبد الله بن أبي، وقال لمن أشار بقتلهم: "لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه" [٣].

٧- وعن أنس ﷺ : أن رسول الله ﷺ عفا عن اليهودية التي سمته بعد اعترافها [٤].

٨- وجيء برجل إلى رسول الله ﷺ فقيل: إن هذا أراد أن يقتلك فقال له: "لن تراع، ولو أردت ذلك لم تسلط علي" [٥].

---

(١) رواه ابن حبان والبيهقي والطبراني، الشفا، جـ ١، ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) رواه البيهقي، الشفا، جـ ١، ص ٨.

(٣) رواه الشيخان، المصدر السابق، جـ ١.

(٤) رواه الشيخان، المصدر السابق، جـ ١.

(٥) رواه أحمد والطبراني، المصدر السابق، جـ ١، ص ٨٣.

الرسول ﷺ لا يرضى هلاك قوم ولا يدعو عليهم:

٩- قال عمر بن الخطاب ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾[(١)].

ولو دعوة علينا بمثلها: لهلكنا من عند آخرنا، ولقد وطئ ظهرك، وأدمى وجهك!! فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[(٢)].

١٠- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كذب الرسول ﷺ قومه: أتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه.

وقال: مرني بما شئت: أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً[(٣)].

١١- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ :ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك!! قال: وتفعلون؟

قالوا: نعم. فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك

(١) سورة نوح آية: ٢٦.
(٢) ذكره القاضي عياض، الشفا، جـ ١، ص ٨١.
(٣) رواه الشيخان، الشفا، جـ ٦، ص ٩٧- ٩٨.

عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين.. وإن شئت: فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال ﷺ: "بل التوبة والرحمة"[1].

■ ■ ■

(١) رواه أحمد، الوفا، جـ ٢، ص ٤٣٠ (أصبح: بفتح فسكون ففتح).

إنسانيته ﷺ في خاصة أمره

نبي متواضع عظيم الحياء:

١- عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: كان ﷺ يجلس على الأرض، ويوضع طعامه على الأرض، ويركب الحمار، ويردف خلفه، ويلعق والله يده ﷺ[(١)].

٢- وعن عمران بن حصين ﷺ قال: كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه[(٢)].

٣- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله، كُلْ - جعلني الله فداك - متكئاً فإنه أهون عليك، قال: لا بل آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد[(٣)].

٤- وعن أنس ﷺ قال: ما أكل ﷺ على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق، قال أنس: فقلت لقتادة: فعلام كانوا يأكلون؟ قال: على السفرة[(٤)].

٥- عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: كان ﷺ إذا أكل لم تعد يده ما بين يديه[(٥)].

---

(١) ابن الجوزي، الوفا، جـ ٢، ص ٤٣٧.

(٢) رواه الطبري بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، مجمع الزوائد، جـ ٧، ص ١٧.

(٣) ابن الجوزي، الوفا، جـ ١، ص ٤٣٨.

(٤) المرجع السابق، جـ ١، ص ٤٣١. (الخوان: بكسر الخاء وضمها ما يوضع عليه الطعام ليؤكل ويسميه العامة السفرة). (السكرجة: بتشديد السين وتسكين الكاف أو ضمها وتشديد الراء المضمومة: الصحفة التي يوضع فيها الأكل). (السفرة: فراش من جلد يوضع عليه الطعام).

(٥) المرجع السابق، ص ٦٠٨.

٦- وعن أنس ﷺ قال: كان ﷺ لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث من أجل أن الملائكة تأتيه وأنه يكلم جبريل (١).

٧- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ لا ينفخ في طعام ولا شراب ولا يتنفس في الإناء (٢).

٨- وعن سلمى رضي الله عنها قالت: كان ﷺ يكره أن يأخذ من رأس الطعام (٣).

٩- وعن جويرية رضي الله عنها قالت: كان ﷺ يكره أن يأكل الطعام حتى تذهب فورة دخانه (٤).

١٠- وعن أبي هريرة ﷺ قال: ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، كان إذا أتي به إن اشتهاه أكله وإلا تركه (٥).

١١- وعن كعب بن عجرة ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث الإبهام والتي تليها والوسطى (٦).

١٢- وعن والد مرة رضي الله عنه قال : كان ﷺ إذا جرى به الضحك، وضع يده على فيه (٧).

---

(١) رواه الخطيب وأبو نعيم: كنز العمال، جـ ٧، ص ٦٢.

(٢) رواه ابن ماجه، المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) رواه الطبراني، كنز العمال، جـ ٧، ص ٦٥.

(٤) رواه الطبراني، المصدر السابق.

(٥) ابن الجوزي، الوفا، جـ ٢ ،ص ٦٠٩.

(٦) المصدر السابق، جـ١، ص ٦٠٧.

(٧) رواه البغوي، كنز العمال، جـ ٧، ص ٨٤.

١٣- وعن أبي أمامة ﷺ قال: كان ﷺ من أضحك الناس وأطيبهم نفساً[١].

١٤- وعن الحسين بن علي قال: سألت خالي هندا عن صفة ضحك رسول الله ﷺ فقال: جل ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام[٢].

١٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط حتى أرى لهواته إنما كان يبتسم[٣].

١٦- وعن أنس ﷺ قال: كان ﷺ من أفكه الناس[٤].

١٧- وعن أبي الدرداء ﷺ قال: كان ﷺ لا يحدث حديثاً إلا تبسم[٥].

١٨- وعن جابر بن سمرة ﷺ قال: كان ﷺ طويل الصمت قليل الضحك[٦].

١٩- وعنه ﷺ قال: كان ﷺ لا ينبعث في الضحك[٧].

٢٠- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ يعجبه النظر إلى الخضرة والماء الجاري[٨].

---

(١) رواه الطبراني، المصدر جـ ١، السابق، ص ٨٥.

(٢) (هند بن أبي هالة وهو ربيب النبي ﷺ)، ابن الجوزي، الوفا، جـ ٢، ص ٤٩٢.

(٣) أخرجه الشيخان، المصدر السابق ، جـ ٢، ص ٤١٢، (لهواته: جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم).

(٤) رواه ابن عساكر، كنز العمال، جـ ١، ص ٦٥.

(٥) رواه أحمد، كنز العمال، جـ ٧، ص ٦٥.

(٦) رواه أحمد ، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٨٤

(٧) رواه الطبراني، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٨٤.

(٨) رواه ابن السني وأبو نعيم، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٩١.

٢١- وعن علي بن رباح ﷺ قال: سمعت عمرو بن العاص ﷺ يقول: لقد أصبحتم ترغبون في الدنيا، وكان رسول الله ﷺ يزهد فيها.

والله ما أتت على رسول الله ﷺ ليلة في دهره، إلا كان الذي عليه أكثر مما له، قال: فقال له بعض الصحابة، قد رأينا رسول الله يستسلف [١].

٢٢- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ إذا رأى جنازة رئيت عليه كآبة وأكثر من حديث نفسه [٢].

زهده وقناعته ﷺ:

٢٣- عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: إني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت لا يا رب، أجوع يوماً وأشبع يوماً.

فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك.

وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك [٣].

وقال السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا. رواه الترمذي عن أبي أمامة ولفظه:

عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت لا يا رب أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك.

٢٤- قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقرئك السلام

(١) رواه الإمام أحمد، جـ ٢٢، ص ٢٩.

(٢) رواه الطبراني، كنز العمال، جـ ٧، ص ٩٦.

(٣) ذكره القاضي عياض في الشفا، جـ ١، ص ١٠٩.

ويقول: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً وتكون معك حينما كنت، فأطرق ساعة ثم قال: يا جبريل: الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له.

فقال جبريل: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت [١].

٢٥- عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كنا لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء [٢].

٢٦-عن عائشة قالت: إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدما حشوه ليف [٣].

٢٧- عن حفصة رضي الله عنها قالت:كان فراش رسول الله ﷺ في بيته سحاً، نثنيه له ثنيتين فينام عليه، فثنيناه له ليلة بأربع.

فلما أصبح قال: ما فرشتم لي الليلة؟ فذكرنا له ذلك، فقال: ردوه بحاله، فإن وطأته منعتني الليلة صلواتي [٤].

٢٨- عن عائشة رضي الله عنها قالت: ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طواه، ثم ظل صائماً ثم طواه ثم ظل صائماً ثم قال يا عائشة: إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد.

يا عائشة: إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على

---

(١) الشفا، جـ ١، ص ١٠٩ -١١٠، رواه أحمد عن عائشة مختصراً من قوله: الدنيا دار.

(٢) المرجع السابق، الشيخان.

(٣) المرجع السابق، الشيخان.

(٤) المرجع السابق، الترمذي في الشمائل، جـ ١.

مكروهها والصبر على محبوبها ثم لم يرضَ مني إلا أن كلفني ما كلفهم فقال: فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ولا حول ولا قوة إلا بالله [(١)].

٢٩- عن طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: أخذ رسول الله ﷺ بيدي ذات يوم إلى منزله، فأخرج إليه فلق من خبز فقال: ما من أدم؟

فقالوا: لا إلا شيء من خل قال: نعم الأدم الخل، قال جابر: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله ﷺ.

وقال طلحة فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر [(٢)].

٣٠- وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سألت علياً ﷺ: كيف كان سكوت رسول الله؟

قال: كان سكوته على أربع: على الحلم والحذر والتقدير والتفكر.

فأما تقديره، ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس.

وأما تفكره، ففيما يبقى ويفني، وجمع له الحلم في الصبر فكان لا يغضبه شيء ويستفزه.

وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسن ليقتدي به، وتركه القبيح لينتهي عنه، واجتهاد الرأي بما يصلح أمته والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة [(٣)].

---

(١) الشفا ١١٠، أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير.

(٢) المواهب اللدنية، جـ ١، ص ٣١٠، رواه مسلم.

(٣) ذكر القاضي عياض في الشفا، جـ ١، ص ١٦٦.

٣١- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفا، فقال له جبريل: والذي بعثك بالحق، ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق، ولا كف من سويق، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هَدّه من السماء أفزعته.

فقال ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟

قال جبريل: لا ولكن الله أمر إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك، فأتاه إسرافيل فقال: إن الله سمع ما ذكرت، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك: إن أردت أن أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة فعلت فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً !! فقال ﷺ : بل نبياً عبداً[1] .

■ ■ ■

(١) رواه الطبراني، المواهب اللدنية، جـ ١، ص١١١. (هدّه: بفتح الهاء وتشديد الدال، صوت وقوع الحائط: والمعنى سمع صوتاً شديداً).

إنسانيته ﷺ في حرمة الحيوان

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أركب بعيراً فأخذت أردده، فقال ﷺ: عليك بالرفق [١].

٢- عن معاوية بن قرة عن أبيه رضي الله عنهما: أن رجلاً قال يا رسول الله: إني لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: إن رحمتها رحمك الله [٢].

٣- عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها وجاءت الحمرة فجعلت تعرش:

فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولدها ردوا ولديها إليها [٣].

٤- عن سهل بن الحنظلية ﷺ قال: مر رسول الله ﷺ على بعير قد لصق ظهره ببطنه فقال: اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة [٤].

٥- عن زيد بن خالد الجهني، عن رسول الله ﷺ أنه قال: لا تسبوا الديك فإنه يوقظ للصلاة. وعند ابن حبان في صحيحه: فإنه يدعو للصلاة.

٦- وروى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ، نهى أن تُصبر البهائم. (متفق عليه) ومعنى تُصبر: أي تُحبس وتُضرب حتى تموت.

---

(١) مسلم، الشفا، ص ٩٨.

(٢) الحاكم والأصبهاني، الترغيب والترهيب، جـ ٣، ص ٤٨٧.

(٣) أبو داود، المرجع السابق، جـ ٣، ص ٤٨٨.

(٤) أبو داود وابن خزيمة، المرجع السابق، جـ ٣، ص ٤٩٢.

٧- عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ، مر على حمار قد وسم في وجهه فقال: لعن الله الذي وسمه. (رواه مسلم ٢١١٧).

٨- عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضا. (رواه مسلم ١٩٥٨) ومعنى الغرض: ما ينصبه الرماة يقصدون إصابته بالنبال وغيرها.

٩- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث. (رواه البخاري ومسلم). والحديث يدل على أن لكل حيوان دورًا.

١٠- عن عبد الله بن جعفر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ، دخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ، حن وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ، فمسح ذفراه فسكت. فقال: "من رب هذا الجمل لمن هذا الجمل؟" فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه"[1].

فهذه الأحاديث وغيرها كثير تبين أن النبي ﷺ كان رحيمًا يحسن إلى الحيوانات ويرحمها ويأمرنا بذلك، ويحرم لعنها وإيذائها وتكليفها ما يشق عليها.

■ ■ ■

(١) رواه أبو داود ٢٥٤٩ وأحمد ٣/ ١٩٥ وصححه الألباني.

ومعنى ذفراه: مؤخرة رأسه، ومعنى تدئبه: تتعبه.



الفصل السابع

معالم في حياة الرسول

صلى الله عليه وسلم



تنزيل الكتاب على الرسول

قال تعالى في أول سورة الزمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[(١)].

فالله سبحانه وتعالى يخبر أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى. فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك. كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾[(٢)].

وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾[(٣)].

وقوله تعالى في أول سورة الزمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[(٤)] هو جواب عن سؤال أو أسئلة كثيرة، كانت تدور في رءوس المشركين وتجري على ألسنتهم.

من أين جاء محمد بهذا الذي يحدثنا به؟

أو من علمه هذا؟

أي الكتب أخذه؟

---

(١) سورة الزمر الآيات: ١- ٣.

(٢) سورة الشعراء الآيات: ١٩٢ - ١٩٥.

(٣) سورة فصلت الآيات: ٤١- ٤٢.

(٤) سورة الزمر آية: ١.

إلى غير ذلك مما كانوا يحدثون به أنفسهم، ويتحدثون بعضهم إلى بعض في شأن القرآن الكريم.

ولعلنا ندرك أن قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إجابة مباشرة عن تلك الأسئلة التي يسألها المشركون عن المصدر الذي جاء منه القرآن الكريم. وإذا كان سؤالهم أو أسئلتهم تدور في هذا المجال: من أين هذا الكتاب؟.

فكان الجواب: من الله العزيز الحكيم تنزيله، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى أن هذا الكتاب صادر من جهة عالية، وأنه ليس مما على هذه الأرض وما فيها من جهات وذوات.

وبهذا يكون القرآن من جهة عالية، إنه نور خالص لمن نظر فيه، والسماء هي مصدر كل نور على هذه الأرض.

فإذا تقرر ذلك كان البحث في طبيعة هذا النور. وهل هو نور إلهي. أم من ذلك النور الذي تشعه الكواكب والنجوم؟

ومما هو واضح لكل عاقل ومفكر:

أن إمعان النظر في القرآن الكريم يكشف للناظرين والمتأملين والمتدربين عن أنه نور إلهي لا ينكسر ضوءه، ولا تغرب شمسه أبداً.

إذن هو نور من الله ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ العزيز القادر على تنزيله، الحكيم الذي يعلم فيما أنزله، ولماذا أنزله. ويفعل ذلك بحكمة وتقدير وتدبير.

والكتاب الذي أنزله العزيز الحكيم يقرر قضية التوحيد، وإفراد الله بالعبادة وإخلاص الدين له، وتنزيهه عن الشرك في كل صورة من صوره.

قال تعـالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[(١)] أي قد نزل إليك أيها النبي هذا الكتاب من ربك بالحق الذي لا يعلق به باطل. فهـو يحمل إليك الحق واضحاً مشرقاً.

والخطـــاب هنـــا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ لرسول الله محمد ﷺ وخاصة الرسول ﷺ أنه مؤيد من قبل الله بأمارة تدل على صدقه في رسالته.

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[(٢)].

وأن هذا الرسول يوحي إليه من قبل ربه، وإن رسالته هي الدعوة إلى عبـادة الله وحـده. قـال تعـالى في سـورة الأنبيـاء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾[(٣)].

لذا في سورة الزمر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾[(٤)].

فمن نظر في آيات القرآن، وتأمـل في كلماتـه، عـرف طريـق الحـق واضـحاً مشرقاً وإذا كان ذلك هو ما عرفت: فاعبد الله على هذه المعرفة عبادة خالصة.

ومما هو واضح: إن الإنسان أكرمـه الله بالعبـادة وأمـره بهـا ليكـون صـالحاً مصلحاً قال تعالى في سورة الأنعـام: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

---

(١) سورة الزمر آية: ٢.

(٢) سورة الرعد آية: ٢٨.

(٣) سورة الأنبياء آية: ٢٥.

(٤) سورة الزمر آية: ٢.

﴿الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [1]. والعبادة ما تكاد تستقر حقيقتها في قلب المؤمن حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وحركة وبناء.

الرسول في رعاية الله

قال تعالى في سورة الزمر: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)﴾ [2].

بداية ينبغي: أن ندرك أن الكافي هو الكافل والحافظ وعبده هنا هو رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الإشارة إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بضمير الغيبة دون ذكره. تنويه بشأنه، و إعلاء لذكره.

وأنه صلوات الله وسلامه عليه هو وحده المعني بهذا الحديث، وأنه وحده الجدير بهذه الإضافة: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ والاستفهام هنا للوجوب أي إن الله سبحانه وتعالى، هو الذي يكفي عبده محمداً ويكفله ويحفظه من كل سوء يراد به. إذ كيف يعجز سبحانه عن أن يدفع المكروه عنه.

ولقد ورد في سبب نزول الآيات أن المشركين كانوا.. يخوفون رسول الله ﷺ من آلهتهم ويحذرونه من غضبها، ويتوعدونه بأنه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى فنزل قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)﴾ .

---

(١) سورة الأنعام الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) سورة الزمر آية: ٣٦.

ومن الذي يخيف محمداً إذا كان الله معه؟

والذين من دونه لا يخيفون من يحرسه الله؟ إذا كان الله معه؟

والذين من دون الله لا يخيفون من يحرسه الله؟

وهل في الأرض كلها إلا من هم دون الله؟

لقد حمل رسول الله ﷺ الرسالة، وواجه بها الناس، متحدياً عقائد فاسدة، ومتصدياً لقلوب مريضة، وعقول مظلمة، وطبائع صلدة متحجرة، كيف به وقد بلغ بصبره وجهاده وعزمه. ما أراد الله لدعوته أن تبلغ وقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي الله هو الذي يرعاك ويحفظ والمشركون يخوفونك بآلهتهم .

ومما هو واضح أن إرادة الله هي النافذة ومشيئته هي الغالبة، وهو الذي يقضي في العباد قضاءه، في ذات أنفسهم، وفي حركات قلوبهم ومشاعرهم. قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [١].

فمن ضلال المشركين يحسبون أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تملك ضراً أو نفعاً، فهؤلاء في ضلال مبين.

فقد أضلهم الله وطمس على قلوبهم وعقولهم. فلم يروا إلا ظلاماً وضلالاً.

---

(١) سورة غافر: الآيتان: ٣٣، ٣٤.

وينبغي أن يكون معلوماً أن الله وحده الذي يملك الضر والنفع، وهو سبحانه الذي أضل هؤلاء المشركين، وأن آلهتهم تلك لا تملك من هذا الأمر شيئاً فلا سبيل لها إلى هداية عابديها الذين أضلهم الله.

كما لا سبيل لها إلى ضلال المؤمنين الذين يحقرونها ويستخفون بها.

أليس الله بعزيز، فيحمي بعزته أولياءه، وينتقم لأوليائه ممن يكيدون لهم. فكيف يخشى أحداً أو شيئاً من يقوم بحق العبودية له، وهو كافله وكافيه؟.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[1].

أي أن هؤلاء المشركين الذين يتهددون النبي - صلوات الله وسلامه عليه - ويخوفونه بآلهتهم وما يمكن أن يريدوه به من سوء إذ هو أصر على إعراضه عنها أو التعرض لها ... هؤلاء المشركون إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض. ما كان لهم جواب إلا أن يقولوا: خلقهن الله.

كانت هذه الحقيقة من الجلاء والظهور بحيث لا يستطيع مكابر أو معاند أن ينكرها. فهي من الأمور المسلمة التي لا اختلاف عليها.

إذن لقد كانوا يقرون حين يسألون: أن الله هو خالق السماوات والأرض.

وما تملك فطرة أن تقول غير هذا: وما يستطيع عقل أن يعلل نشأة السماوات والأرض إلا بوجود إرادة عليا، فهو يأخذهم ويأخذ العقلاء جميعاً بهذه الحقيقة الفطرية الواضحة.

---

(١) سورة الزمر آية: ٣٨.

إذا كان الله هو خالق السماوات والأرض، فهل يملك أحد أو شيء في هذه السماوات والأرض أن يكشف ضراً أراد الله أن يصيب به عبداً من عباده.

والجواب القاطع: لا. فإذا تقرر هذا فما الذي يخشاه داعية إلى الله؟ وما الذي يقلقه أو يخيفه أو يصده عن طريق.

إنه متى استقرت هٰذه الحقيقة في قلب مؤمن فقد انقطع الخوف وانقطع الأمل إلا في جناب الله. فهو كاف عبده.

و ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ [1] أمر للنبي بما يلقى به ضلال هؤلاء الضالين، وما يتهددون به من أوهام وأباطيل إن الله هو حسبه وكافيه من كل ضر يراد به.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [2] أي أن الله وحده هو الذي يتوكل عليه المتوكلون الذين يؤمنون به ويضيفون وجودهم إليه. فيجدون في ظله الأمن والسلامة والخير.

الرسول عليه التبليغ

قال تعالى في سورة الزمر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [3]

يقول الله - سبحانه وتعالى - مخاطباً رسوله محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ يعني القرآن الكريم.

---

(١) سورة الزمر آية: ٣٨.

(٢) سورة الزمر آية: ٣٨.

(٣) سورة الزمر آية: ٤١.

وهذا بيان لمهمة النبي، وأنه رسول من الله للناس، يبلغهم ما أنزل إليه من ربه.

وفي تعدية الفعل "أنزلنا" بحرف الجر "على" إشارة إلى علو المتنزل الذي أنزل منه القرآن على رسول الله، وأنه من الله رب العالمين، القائم بسلطانه على هذا الوجود، فالله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق.

الحق في طبيعته والحق في منهجه، والحق في شريعته. الحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض، ويلتقي عليه نظام البشرية في هذا الكتاب، ونظام الكون كله في تناسق.

هذا الحق نزل للناس، ليهتدوا به، ويعيشوا معه، ويقوموا عليه، فمن اهتدى بهذا الكتاب فإنما يهتدي لنفسه ويعمل الخير لها.

ومن ضل فإنما ضلاله واقع عليه، ومجزي به، وليس النبي وكيلاً على أحد يؤدي عنه حسابه.

قال تعالى في سورة هود: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [١].

وقال تعالى في سورة الرعد: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [٢].

فأنت يا محمد مبلغ. وهم بعد ذلك وما يشاءون لأنفسهم من هدى أو ضلال، ومن نعيم أو عذاب، فكل مورد نفسه ما شاء وما أنت بمسيطر عليهم، ولا بمسئول عنهم: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [٣]..

---

(١) سورة هود آية: ١٢.

(٢) سورة الرعد آية: ٤٠.

(٣) سورة الزمر آية : ٤١.

فأنت مبلغ لرسالة ربك. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[1] . فهذا أمر ملزم للرسول أن يؤذن في الناس بما يتلقى من ربه فتلك هي مناط رسالة الرسول، وفحوى الحكمة من رسالته.

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه مبلغ رسالة ربه للناس. وما وهن الرسول الكريم في تبليغ الرسالة، وما ضعف عن حملها، واحتمال ما تنوء به الجبال من أعبائها. فلكم لقى من السفهاء، والحمقى، والطغاة. من بغى وعدوان؟

حتى لقد خرج مهاجراً من البلد الحرام، الذي عاش فيه شبابه، وقضى فيه أيام صباه. بين أهله وعشرته. وألقى بنفسه في أحضان الغربة، فراراً بالرسالة التي بين يديه أن يمسكها المشركون عن أن تبلغ غايتها، وتملأ أسماع العالمين بهديها، وتفتح مغاليق القلوب بنورها.

إذن مهمة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – أن يبلغ رسالة ربه ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[2].

فهو قد اصطفاه الله ليكون رسولاً للعالمين، حاملاً مختتم رسالات السماء للناس. ثم لم يدعه يحمل أعباء الرسالة، ويلقى الضر والأذى في سبيلها. دون أن تكون إمدادات سماوية تعينه، وتحمل عنه بعض ما يحمل من أعباء.

---

(١) سورة المائدة آية: ٦٧.

(٢) سورة المائدة آية: ٦٧.

فقد أمده الله بإمداد من الصبر واليقين والعزم ليبلغ الناس رسالة ربه. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾[1].

وفي قوله تعالى: "للناس" إشارة إلى أن هذا القرآن هو خير مسوق من الله سبحانه للناس جميعاً، ورحمة منزلة منه سبحانه إليهم.

وإنه إذا كان النبي – صلوات الله وسلامه عليه – هو الذي تلقى هذه الرحمة من ربه. فإن الناس جميعاً شركاء له فيها، ولكل واحد منهم نصيبه منها سواء دعي إلى أخذ نصيبه أم لم يدع إلى ذلك.

وفي هذا ما يفتح الطريق لهؤلاء المعاندين إلى كتاب الله، ويبين لهم طريق الحق والهداية.

وقد يكون واضحاً أن القرآن الكريم الذي نزل على محمد – صلوات الله وسلامه عليه – كتاب هداية من تدبر آياته، وتأمل فيها – أعماقاً وأبعاداً – أدرك أن في الالتزام بمبادئه وتعاليمه الفلاح والنجاح.

الرسول أول المسلمين خضوعاً لله

قال تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾[2].

هذا – كما ترى – أمر لرسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – أن يخبر المشركين:

(١) سورة الزمر آية: ٤١.

(٢) سورة الزمر الآيتان: ١١ – ١٢.

أولاً: بأنه مأمور بالعبادة والإخلاص فيها.

وثانياً: أن يخبرهم بأن يكون أول من أطاع وانقاد وأسلم.

وثالثاً: أن يخبرهم بخوفه من العذاب على تقدير العصيان.

ورابعاً: أن يخبرهم بأنه امتثل الأمر وانقاد وعبد الله تعالى. وأخلص له الدين على أبلغ وجه، وأوكده. إظهاراً لتصلبه في الدين.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ هو بيان لحال النبي في هذه الدعوة التي حملها إلى الناس من ربه، وأنه مأمور من الله. بما يأمر الله به عباده جميعاً.

فهو والناس في هذا الأمر السماوي على سواء. فلا استثناء لأحد في هذا القانون. بل وأكثر من هذا، فإن صاحب الدعوة – صلوات الله وسلامه عليه – يتلقى هذه الدعوة من ربه في صورة أمر وإلزام. على حين يتلقاها الناس مجرد دعوة لا إلزام فيها، ولا إكراه معها.

وهذا الإعلان من النبي ﷺ بأنه مأمور أن يعبد الله وحده، ويخلص له الدين وحده، وأن يكون بهذا أول المسلمين، وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه.

هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد – كما جاء بها الإسلام.

فالنبي – صلوات الله وسلامه عليه – في هذا المقام. هو عبد الله. هذا مقامه لا يتعداه ، وفي مقام العبادة يقف الناس كلهم صفاً. لأنهم عبيد لله عز وجل، وترتفع ذات الله – سبحانه– متفردة فوق جميع العباد.

وعند ذلك يتضح معنى الألوهية، ومعنى العبودية، ويتميزان. فلا يختلطان ولا يشتبهان. وتتجرد صفة الوحدانية لله – سبحانه بلا شريك . ولا شبيه.

وحين يقف محمد رسول الله ﷺ في مقام العبودية لله وحده، يعلن هذا الإعلان، ويخاف هذا الخوف من العصيان.

فليس هنالك مجال لدعوى شفاعة الأصنام أو الملائكة، بعبادتهم من دون الله أو مع الله بحال من الأحوال.

ومرة أخرى يتكرر هذا الإعلان مع الإصرار على الطريق. قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [1].

فحال النبي – صلوات الله وسلامه عليه – مع ربه. هو العبادة الخالصة لله لا يلتفت إلى غيره، ولا يدين لسواه.

أما أنتم أيها المشركون. فلكم ما تشاءون من معبودات تعبدونها من دون الله. قال تعالى في سورة الكافرون: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [2] فكل محاسب بما يدين به، وكل مجزي بما يعمل. قال تعالى في سورة سبأ: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [3].

ومما ينبغي أن نشير إليه في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [4] .

---

(١) سورة الزمر الآيتان: ١٤- ١٥.

(٢) سورة الكافرون آية: ٦.

(٣) سورة سبأ آية: ٢٥.

(٤) سورة الزمر الآيتان: ١١ – ١٢.

إن قولـه تعـالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ إشـارة إلى أن رسـوله – صلوات الله وسلامه عليه – هو أول المسلمين. خضوعاً لسـلطان الله، وامتثـالاً لأمره، يسلم إليه وجوده.

وأنه – صلوات الله وسلامه عليه – القـدوة للمسـلمين في طاعـة ربـه، وفي اتقاء حرماته.

وأنه وهو رسـول الله إلى النـاس أكثـر المـؤمنين عبـادة لله، وأكثـرهم طاعـة وولاء له، حتى يتعلم المؤمنون منه، ويقتدون به.

ومما هو واضح: أن الفرائض الإسلامية تخاطب كـل الجوانـب في الإنسـان، وتفي بكل الحاجات، وتصحح كـل الاتجاهـات، وهـي نـوع مـن التربيـة تأخـذ بالمسلم إلى طريق الرشاد.

عبادة الرسول ﷺ

قال تعالى في صورة الزمـر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[1] أي فاعبـد الله وحـده لا شـريك لـه، وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له، وأنـه لـيس لـه شـريك ولا عديل ولا ند، ولهذا قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

والخطاب – كما ترى – لرسول الله – صلوات الله وسلامه عليـه – الـذي أنزل إليه الكتاب بالحق.

وهو منهجه الذي يدعو إليه الناس كافة. عبادة الله وحده،و إخلاص الدين له، وقيام الحياة كلها على أساس هذا التوحيد.

---

(١)سورة الزمر الآيتان: ٢– ٣.

ومن كمال ربانيته ﷺ وأثر حبه لله، وتعظيمه له. أنه – عليه الصلاة والسلام – كان لا يجد سعادة نفسه وحياة قلبه، ونعيم روحه، وقرة عينه في شيء مثلما يجد في مواقف عبادته لله سبحانه وتعالى يتضرع إلى الله ويدعوه ويناجيه.

إذا سجد وأطال السجود، وإذا خشعت جوارحه واستكانت.

وإذا كانت الصلاة هي العبادة التي يكون المرء فيها أقرب إلى الله عز وجل من غيرها.

فقد كان عليه الصلاة والسلام يحافظ عليها، ويكثر منها، ويداوم عليها، ويجد راحة نفسه واطمئنان قلبه في إقامتها.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا حضرت الصلاة يقول لمؤذنه: "قم يا بلال فأرحنا بالصلاة".

لقد كان محمد – عليه الصلاة والسلام – يحب الله حباً جماً، ويحب دائماً أن يكون بحضرته وبين يديه يدعوه ويناجيه.

وعلى قدر حبه لله. كانت عبادته عليه الصلاة والسلام، ولأجل حبه لله لا يعدله حب على الإطلاق، فقد كانت عبادته عليه الصلاة والسلام لا تعدلها عبادة على الإطلاق. لا كماً ولا كيفاً.

ومحمد عليه الصلاة والسلام كان يطيع الله كثيراً لأنه أحب الله كثيراً.

فهو عليه الصلاة والسلام يقوم بالواجبات والتكاليف قيام محب مفطور، ولهذا كان يأخذ طريقه إلى أشق التكاليف في ابتهاج وفرح.

والمؤمنون بالله سبحانه وتعالى مأمورون بالاقتداء برسول الله ﷺ. قال تعالى

في سورة الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (١).

ومما ينبغي أن نشير إليه في باب عبادة الله: أن لله تعالى نعماً تطالع الناس صباحهم ومساءهم، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم. وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ومنها المنظور والمستور والمعلوم والمجهول.

تفيض عليهم بآثارهم الملموسة في أنفسهم وآفاقهم.

وفي طليعة هذه النعم التي أفاضها الحق على عباده نعمة الحياة، ونعمة الخلق والإمداد والإعداد، مما غدا به الإنسان أعظم آية من آيات الله في خلقه.

تشكل أروع أداة للدلالة على وجود الخالق، وضرورة الإيمان والاعتراف بفضله، ووجوب التوجه إليه وحده. بما وجب في حقه من الإجلال، وحتمية استشعار عظمته وسلطانه، وتعميق الخضوع لهن والخشية منه، وتأكيد الحب فيه والولاء له.

تلك هي العبادة الواجبة لله عز وجل. لا يجد الإنسان كيانه إلا فيها، ولا امتداده إلا بها، ولا وجوده إلا في الالتزام بها قولاً وعملاً أمراً ونهياً، خلقاً وسلوكاً، واقعاً وتطبيقاً.

قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ (٢) وألا أداة افتتاح، لأن التدين هو الحياة كلها. بل التي يقوم عليها الوجود كله..

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٢١.

(٢) سورة الزمر الآيتان: ٢ – ٣.

وحقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسيين:

الأمر الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً. عبداً يعبد، ورباً يعبد، وأن ليس وراء ذلك شيء.

والأمر الثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح وكل حركة في الحياة.

■ ■ ■



الفصل الثامن

واجبات المسلمين نحو

رسول الله صلى الله عليه



لا تقدموا بين يدي الله ورسوله:

روى البخاري في صحيحه عن ابن الزبير قال: قدم ركب من تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد.

وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس.

فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت إلا خلافي فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [1] [2].

ومعنى ذلك: أن الله أمر المؤمنين ألا يسرعوا في الأشياء قبله بل يكونوا تبعاً له في جميع الأمور.

فهذه الآية تدل على ألا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى هو ويأذن هو.

وهذا الحكم باق إلى يوم القيامة، سواء أكان التقدم حقيقة كما كان في حياته أم معنوياً كالتقدم بين يدي سنته الصحيحة التي لا معارض لها ولا راجح عليها بعد مماته ﷺ.

فعن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟

قال: أقضي بكتاب الله.

---

(١) سورة الحجرات آية: ١.

(٢) البخاري: ج٦، ص ١٧٢، ط. الشعب.

قال: فإن لم تجد في كتاب؟.

قال: فبسنة رسول الله ﷺ.

قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟

قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره.

وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسـول الله [١]. وفي رواية أخرى لما يرضي الله ورسوله.

فنحن مطالبون ألا نتقدم سنته في أمر مـن أمورنـا أو سـلوك مـن سـلوكنا، ومكلفون كذلك ألا نخالفه في حكم صدر منه في أي قضية شجرت بيننا.

قـال تعـالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٢].

وهذا الحكم خاص بالنبي ﷺ

لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي .. ولا تجهروا له بالقول:

ومن الآداب الـتي كلـف بهـا المؤمنـون في حضـرة رسـول الله ﷺ: خفـض الصوت، وعدم الجهر له بالقول كالمعتاد بين الناس بعضهم مع بعض.

قــال تعــالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ ﴾ [٣].

---

(١) أبو داود: جـ ٢، ص ٢٧٢، وأحمد والترمذي.

(٢) سورة النساء آية: ٦٥.

(٣) سورة الحجرات آية: ٢.

وحين نزلت هذه الآية خاف بعض أصحاب رسول الله أن تكون أصواتهم قد ارتفعت أمام الرسول إلى الحد الذي يحبط أعمالهم.

فعن أنس بن مالك ﷺ، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه، فقال له: ما شأنك؟

فقال: شر كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله وهو من أهل النار.

فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا. فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل جنته [1].

وجاء في رواية جرير: قال له النبي ﷺ: ما يبكيك يا ثابت؟ فقال ﷺ: أنا صييت [2] وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في "لا ترفعوا أصواتكم .... الآية".

فقال النبي ﷺ: أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟

فقال: رضيت ببشري رسول الله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً عل صوت رسول الله ﷺ [3].

يقول أنس بن مالك: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل

---

(١) البخاري: جـ ٦، ص ١٧١.

(٢) أي صاحب صوت مرتفع.

(٣) تفسير بن كثير، جـ ٤، ص ٢٧.

الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس وقد تحنط ولبس كفنه، فقال: بئسما تعودون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل ﷺ [(١)].

قال العلماء: وحكم التأدب بخفض الصوت في مواجهة الرسول ﷺ يسري كذلك أمام قبره الشريف، فيكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته.

روي أن عمر بن الخطاب ﷺ سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما، فجاء فقال: أتدريان أين أنتما؟ ثم قال: من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف. فقال: لو كنتما من المدينة لأوجعتكما [(٢)].

إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون:

كان من طبيعة العرب مناداة الشخص من بيته في أي وقت من ليل أو نهار.

وكانوا أيضاً يتنادون من الأماكن البعيدة في الخلاء أو من خلف البيوت وخاصة الأعراب منهم.

وهكذا فعل وفد تميم حينما نادوا رسول الله ﷺ من خلف بيوت أزواجه وقت قيلولته.

فقالوا: يا محمد. فأنزل الله سبحانه وتعالى آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [(٣)].

---

(١) أحمد بن حنبل.

(٢) رواه البزار، ونقله ابن كثير في تفسيره: جـ ٤ ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

(٣) سورة الحجرات الآيتان: ٤– ٥.

فإذا طعمتم فانتشروا:

كان الصحابة يرون أن رسول الله ﷺ هو أب كل واحد منهم و أن منزله هو منزل الجميع، وخاصة بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ (١).

وجاء في بعض القراءات: وهو أب لهم.

فإذا كانت زوجاته أمهاتهم، ورسول الله أباً لهم، فبداهة تكون بيوته مباحة لهم. فكانوا إذا دخلوا عنده جلسوا وأكلوا وتحدثوا وأطالوا، ولا بأس عليهم.

غير أنهم نسوا أن الرسول بشر مثلهم، وأن له حق الراحة في بيته وحق الائتناس بأهله، ووجود أي صحابي في البيت يصادر هذه الحقوق.

ولذلك ورد عن أنس بن مالك قال: أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه، فصنعت أم سليم (أم أنس) حيسا (طعاماً) ثم جعلته في تور (إناء) فقالت: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، وأقرئه مني السلام، وأخبره أن هذا مني له قليل.

قال أنس: والناس يومئذ في جهد، فجئت به فقلت: يا رسول الله، بعثت بهذا أم سليم إليك وهي تقرئك السلام وتقول: أخبره أن هذا مني له قليل.

فنظر إليه ثم قال: ضعه فوضعه في ناحية البيت، ثم قال: اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً، فسمى رجالاً كثيراً وقال: ومن لقيت من المسلمين.

فدعوت من قال لي ومن لقيت من المسلمين، فجئت والبيت والصفة والحجرة ملأى من الناس.

---

(١) الأحزاب الآية: ٦.

فقلت: يا أبا عثمان، كم كانوا؟

فقال: كانوا زهاء ثلاثمائة.

قال أنس: فقال رسول الله ﷺ: جئ به، فجئت بـه إليـه، فوضـع يـده عليـه ودعا وقال: ما شاء الله.

ثم قال: ليتحلق عشرة عشرة، وليسموا وليأكل كل إنسان مما يليـه، فجعلـوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم.

فقال لي رسول الله ﷺ: ارفعه. قال: فجئت فأخذت التور فنظرت فيـه فمـا أدري أهو حين وضعته أكثر أم حين أخذته.

قال: وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسـول الله ﷺ، وزوج رسـول الله ﷺ التي دخل بها معه مولية وجهها إلى الحائط فأطالوا الحديث، فشـق علـى رسـول الله ﷺ، وكان أشد الناس حياء، ولو علموا كان ذلك عليهم عزيزاً.

فقام رسول الله ﷺ ، فسلم على حجره وعلـى نسـائه، فلمـا رأوه قـد جـاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه. ابتدروا الباب فخرجوا.

وجاء رسول الله ﷺ حتـى أرخـى السـتار ودخـل البيـت وأنـا في الحجـرة، فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيراً، وأنزل الله عليه القـرآن، فخـرج وهـو يتلـو هذه الآية [١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ

(١) ابن أبي حاتم، نقله ابن كثير: جـ ٣ ص ٥٠٤، والبخاري: جـ ٦، ص ١٤٩، ط الشعب.

كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ [1].

واتضح للمؤمنين أن زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام أمهات لهم من حيث الاحترام وتحريم النكاح فقط.

أما بعد ذلك من حجاب وستر فقد ضرب الإسلام بذلك حجاباً كثيفاً بينهن وبين الناس.

وفي هذه الآية من الآداب:

١- عدم دخول بيوت النبي إلا أن يأذن هو.

٢- الانصراف من البيوت عقب الأكل والإطعام.

٣- عدم الاستئناس بالأحاديث داخل بيوته.

٤- إذا سألتم أزواجه متاعاً فمن خلف حجاب.

٥- تحريم نكاح أزواجه من بعده، والأخيرتان من خصوصياته ﷺ

لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا:

لم يألف العرب مخاطبة الأنبياء، بل ولم يدركوا كيف يخاطبون، وكان يهود يسكنون في المدينة وقريباً منها، وهؤلاء بعث الله منهم عشرات الرسل، وجعل فيهم كثير من الأنبياء، وهم مع ذلك ينتسبون إلى كتاب موسى التوراة.

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٥٣.

من ذلك نرى أن بعض الصحابة كانوا يظنون أن هؤلاء إذا خاطبوا رسول الله ﷺ فإنما يخاطبونه على نمط ما كانت تخاطب به رسلهم وأنبياؤهم، وكان الصحابة يحسنون بهؤلاء المضلين الظنون.

من ذلك ما روي أن رجلاً من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد كان يأتي النبي ﷺ فإذا لقيه وكلمه قال: أرعني سمعك.

وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع – غير صاغر – وهي كالتي في سورة النساء فأمر الله المؤمنين ألا يقولوا راعنا. ونزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾[1].

فنهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم بحسن قصدهم.

وذلك لأن اليهود كانوا يعنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدون من النقيض.

فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا، يقولون راعنا ويورون بالرعونة كما قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ...﴾الآية[2].

وكذلك جاءت الأحاديث بالأخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا على رسول الله ﷺ إنما يقولون: السام عليكم – والسام هو الموت.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٠٤.

(٢) سورة النساء آية: ٤٦.

ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ "وعليكم"[١].

وهذا الأدب خاص بالنبي ﷺ.

يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا:

من الطبيعي أن المؤمنين يسألون رسولهم عن كل ما يختلج في صدورهم. هذا لأن الشرع جديد عليهم، وهم لا يأخذون ولا يعلمون إلا من مصدر واحد، وهو رسول الله ﷺ.

ولكن الله أدب المؤمنين بألا يتسرعوا في السؤال، بل يصبروا حتى يحدثهم الرسول ﷺ عن الشرائع والأحكام.

فقال تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾[٢].

فنهاهم في هذه الآية عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها.

كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾[٣].

وجاء في صحيح مسلم: "ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فانتهوا"[٤].

ولذلك يقول أنس بن مالك ؓ: "نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء،

---

(١) ابن كثير: جـ ١ ص ١٤٨.

(٢) سورة البقرة آية: ١٠٨.

(٣) سورة المائدة آية : ١٠١.

(٤) أبو يعلى، نقله عن ابن كثير، جـ ١ ص ١٥٢.

فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع»[١].

ويقول البراء بن عازب: «إن كان ليأتي عليّ السنة أرجو أن أسأل رسول الله ﷺ عن الشيء فأتهيب منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب»[٢].

هذه آداب نزل بها القرآن الكريم يأمر الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً بأن يعملوا بها.

وها هم الصحابة يمتثلونها أشد الامتثال، وقد يكون منهم من يحبس سؤاله في نفسه ولا يبديه لرسول الله طاعة لله، وهيبة لرسول الله ﷺ ورضى الله عنهم.

وهذا الحكم عام لجميع الأمة، علماً بأن المراد من النهي هو السؤال عن الأمور التي تثير الفتن وتلقى الشبه في قلوب الناس أو تجرح وتؤذي شعور أحد من الناس بغير داع لذلك.

أما السؤال للتعلم، فمطلوب شرعاً، وقد يكون واجباً.

وإذا كانوا معه على أمر جامع، لم يذهبوا حتى يستأذنوه:

للإنسان مصالحه الخاصة، مثل مزاولة أمور معيشته من صناعة وتجارة وجميع مهنته وما يتكسب منه، وكرعاية أولاده وأسرته.

وقد جعل الشارع الحرية الكاملة للشخص في الهيمنة عليها وتوجيهها على حسب ما تقتضيه مصلحته، وفي دائرة الإسلام.

وللأمة مصلحتها العامة كمجالس الشورى، وكاجتماع الأعياد وخطب الجمعة أو ما شاكل ذلك.

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

فهذه لها سمتها الخاص بالنسبة لرسول الله ﷺ، فلم يكن لأي صحابي أن ينصرف عنها إلا بعد أخذ الإذن من رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾[1].

يقول ابن كثير في تفسير لهذه الآية:

"وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه. فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك".

أمرهم الله تعالى ألا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإلقاء السلام عليه.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة"[2].

وهذا الحكم عام في كل اجتماع مع أمير القوم ورئيسهم.

---

(١) سورة النور آية: ٦٢.

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي (حسن)، ابن كثير: جـ ٣، ص ٣٠٦.

لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً:

إذا ما أراد الإنسان أن يدعو آخر ويناديه فإما أن يناديه باسمه المجرد أو بكنيته وهذه معتادة بين الناس بعضهم مع بعض.

وكان الصحابة إذا دعوا رسول الله ﷺ قالوا له يا محمد بالاسم المجرد أو يا أبا القاسم بالكنية.

ولكن الله أدب المؤمنين أيضاً في أسلوب النداء والدعوة كما أدبهم في طريقة التخاطب والتحدث فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1].

فعن ابن عباس أنهم كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه ﷺ قال: تقولوا: يا نبي الله ويا رسول الله.

وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه وأن يبجل وأن يعظم وأن يسود[2].

وهذا حكم خاص بالرسول ﷺ.

استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم:

وأخيراً: فلقد بلغت درجة تأديب الله للمؤمنين مع رسوله ﷺ أن كلفهم بالاستجابة له على كل أحوالهم حتى في أثناء الصلاة. وذلك لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3].

---

(١) سورة النور الآية: ٦٣.

(٢) ابن كثير، جـ ٣، ص ٣٠٦.

(٣) سورة الأنفال الآية: ٢٤.

روى البخاري بسنده عن سعيد بن المعلي قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه – أو قال: لم آته حتى صليت ثم أتيته فقلت يا رسول الله: إني كنت أصلي فقال: ألم يقل الله: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم.

لذلك قال بعض العلماء : إنه ﷺ كان إذا دعا شخصاً وهو يصلي يجيب عليه ويترك الصلاة استجابة له وأن الصلاة لا تبطل بإجابته بل له أن يبني على ما كان صلى ويتم[1].

وهذه خصوصية له ﷺ .

وجوب محبته ﷺ :

إن ما تنعم به البشرية من أنوار الهداية ودلائل الحق وأبواب الخير ونصاعة العقيدة: يرجع الفضل فيه بعد الله إلى خاتم المرسلين ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

ولا شك أن القلوب التي اهتدت إلى ربها وملأ نور الإيمان جوانبها تدين بحب الله ورسوله اعترافاً بفضله ﷺ في هداية الخلق إلى صراط الله المستقيم.

ولقد فرض الإسلام حب الرسول بقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

(١) تفسير المنار، جـ ٩ ص ٥٨٣.

(٢) سورة التوبة الآية: ٢٤.

قال القاضي عياض عقب هذه الآية: فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها ﷺ.

إذ قرع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[1] ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله"[2].

فلا يصدق إيمان المؤمن ولا يذوق حلاوته ويجد بين جوانحه روعته حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

فعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار" متفق عليه.

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي.

فقال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك.

فقال عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ : الآن يا عمر.."[3] رواه البخاري.

---

(١) سورة التوبة الآية: ٢٤.

(٢) كتاب الشفاء: جـ ٢ ص ١٥.

(٣) رياض الصالحين: ص ١٧٨.

يعني الآن صدق إيمانك فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله إذ لا يدخل الإسلام إلا بها ولكن الناس متفاوتون في محبته ﷺ بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته من وجوه النفع الشامل لخير الدارين وهو أعظم وجوه الانتفاعات.

ولا شك: أن حظ الصحابة رضي الله عنهم في المعنى أتم لأن هذا ثمرة المعرفة وهم بها أعلم من غيرهم..

قال عمرو بن العاص: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له.

حتى لو قيل لي: صفه ما استطعت أن أصفه أخرجه مسلم.

وقال علي بن أبي طالب وقد سئل: كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ.؟

فقال: كان رسول الله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا وأحب إلينا من الماء البارد على الظمأ.

وروى البيهقي: عن عروة قال: لما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة (وكان قد أسر يوم الرجيع) من الحرم ليقتلوه.

قال له أبو سفيان بن حرب (وهو يومئذ مشرك) أنشدك بالله يا زيد: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟

فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه مقيم تصيبه الشوكة (أي أقل شيء من الأذى) وإني جالس في أهلي (سالم من الأذى).

فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً [(١)].

وفي القرطبي: أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ وكان شديد الحب له قليل الصبر عنه. فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ونحل جسمه يعرف في وجهه الحزن فقال له يا ثوبان: ما غير لونك؟

فقال يا رسول الله: ما بي ضر ولا وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة وأخاف ألا أراك هناك لأني عرفت أنك ترفع من النبيين وأني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك.

وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبداً فأنزل الله قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴿٧٠﴾﴾ [(٢)].

وذكر ابن ظفر: أن عبد الله بن زيد ﷺ كان يعمل في جنة (بستان) له. فأتاه ابنه فأخبره أن النبي ﷺ توفي.

فقال عبد الله: اللهم أذهب بصري حتى لا أرى بعد حبيبي محمد أحداً (واستجاب الله لدعوته) فكف بصره [(٣)].

---

(١) المواهب اللدنية للزرقاني جـ ٦ ص ٢٩٠.

(٢) سورة النساء الآيتان: ٦٩، ٧٠ .

(٣) المواهب جـ ٦، ص ٢٩٣.

وجوب طاعته ﷺ والاقتداء به:

وإنما فرض الإسلام محبة الرسول ﷺ على الأمة – ومعنى المحبة الطاعة – لتكون شريعته وسنته هي الطريق التي تختارها القلوب عقيدة وتنطلق بها الأعضاء عملاً وليترسم كل مسلم طريقة حبيبه محمد ويحسن به الأسوة ويكون في ضميره وواقع عمله نعم القدوة. يقول تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[1].

وهذه هي الثمار الطبيعية للمحبة والطريق السوي للمحبين الذين يظفرون بصحبته يوم القيامة. قال ﷺ: "من أحب قوماً على أعمالهم حشر معهم يوم القيامة".

وروي العسكري عن الحسن: لا تغتر يا ابن آدم بقوله (أي بقول الرسول ﷺ) أنت مع من أحببت فمن أحب قوماً اتبع آثارهم.

وأعلم أنك لن تلحق بالأخيار حتى تتبع آثارهم وحتى تأخذ وتقتدي بسنتهم وتصبح وتمسي على مناهجهم حصراً على أن تكون منهم[2].

لقد قرن الله طاعة رسوله بطاعته بل جعلها هي طاعته تبارك وتعالى يقول سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾[3] والرسول ﷺ يقول: "من أحبني فقد أحب الله، ومن أطاعني فقد أطاع الله"[4].

(١) سورة الأحزاب الآية: ٢١.

(٢) المواهب اللدنية: جـ٦، ص ٢٤٢.

(٣) سورة النساء آية: ٨٠.

(٤) المواهب: جـ٦ ص ٢٤٠.

وذلك أمر طبيعي لأنه عليه الصلاة والسلام يبلغ عن ربه ويعلم أمته بما يوحى إليه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[(١)].

ومن هنا يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[(٢)].

فمقتضى الإيمان بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. أن يطاع هذا الرسول الأمين وإلا فإن الإيمان بلا إذعان وخضوع كلا إيمان قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾[(٤)].

يقول الصديق أبو بكر ﷺ: "لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ"[(٥)].

وجوب نصرته ﷺ :

فمن لوازم المحبة الصادقة الإيجابية المستلزمة للطاعة وكمال الأسوة أن يبذل المحب ذات نفسه فداء لإمامه وقائده، وحماية لمبادئه التي خالطت قلبه وملكت

---

(١) سورة النجم الآيتان: ٣، ٤.

(٢) سورة الحشر الآية: ٧.

(٣) سورة النساء الآية: ٦٥.

(٤) سورة النور الآية: ٦٣.

(٥) الشفاء: جـ ٢ ص١٤.

مسالك فكره، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (١).

إن الذين يستجيبون لله ولرسوله ويتبعون هديه ويحيون في أنوار رسالته وينصرونه ويرفعون بالحق رايته هم أهل الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (٢).

ومن هنا كان الواجب على كل المسلمين الدفاع عن دين الله وعن رسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم. وأن يقفوا في وجه كل إساءة أو تعدي أو شبهة أو افتراء بكل ما استطاعوا من قوة.

■ ■ ■

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٠.

(٢) سورة الأعراب الآية: ١٥٧.



الفصل التاسع

إنا كفيناك المستهزئين



الاستهزاء بالرسول

إن النقمة – التي أنزلها المشركون بالمستضعفين من المؤمنين – لم تكن في الحقيقة خاصة بالمستضعفين وحدهم، بل هي عامة في كل المؤمنين.

وعلى رأسهم سيد العالمين الحبيب سيدنا محمد ﷺ، إلاَّ أن الأحرار من المؤمنين كان لهم من المنعة ما جعل المشركين لا يقدرون على أن يعذبوهم مثل تعذيب المستضعفين من العبيد والإماء والموالي الأغراب.

وإلا فإنه لم يسلم مؤمن واحد من التعذيب والاضطهاد والاستهزاء به والسخرية منه.

وهذا رسول الله ﷺ قد سخر منه واستهزئ به، وسب وشتم، ونال منه المشركون ما لم ينله كثير من المؤمنين، وكان شر من استهزأ برسول الله ﷺ من عناهم الله تعالى بقوله – من سورة الحجر: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1].

وها هي ذي أسماؤهم – عليهم لعائن الله – مع بيان حالهم نهاية حياتهم:

١- أبو لهب[2]: وهو عبد العزي بن عبد المطلب، وهو عم النبي ﷺ، وكان من أشد الناس تكذيباً وعداوة لرسول الله ﷺ وأكثرهم له أذى حتى أنه كان يطرح العذرة والنتن على باب النبي ﷺ إذ كان مجاوراً له، وكان النبي ﷺ إذا وجد ذلك يقول: أي جوار هذا يا بني عبد المطلب؟.

---

(١) سورة الحجر الآيتان: ٩٥- ٩٦.

(٢) نقلاً عن الكامل لابن الأثير بتصرف.

ومر حمزة مرة بأبي لهب وهو يطرح العذرة على باب النبي ﷺ فأخذها وطرحها على رأس أبي لهب.

وكانت امرأته – أم جميل العوراء – مثله في عداوة الرسول ﷺ وشدة بغضه، وقد لقبها الرحمن في كتابه: بحمالة الحطب، وهي القائلة:

مذمماً [١] عصينا

وأمره أبينا

ودينه قلينا

قالت هذا لما نزلت سورة المسد تحمل البشرى لها ولزوجها بالهلاك في الدنيا والخلود في النار في الآخرة، فقد أتت تطلب الرسول ﷺ - وفي يدها فهر – أي: حجر كبير على قدر الكف، وتقف عليه ولم تره حيث ذهب الله ببصرها.

ورأت أبا بكر فقالت له: أين صاحبك؟

فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه.

أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مذمما عصينا

وأمره أبينا

ودينه قلينا [٢]

---

(١) تعني محمداً وكان هذا صرفاً لها من الله تعالى عن اسم نبيه.

(٢) تركنا مبغضين له.

وأخذ الله جل جلاله أبا لهب بمكة إذ أصابه بمرض خبيث يقال لـه: مـرض العدسة[(١)].

وكان ذلك يوم هزيمة المشركين ببدر، فما إن بلغـه خـبر هزيمـة قومـه حتـى أصيب بمرض العدسة، فمات شر ميتة حتى إنهم لم يقدروا على تغسيله، فصـبوا الماء من بعيد من شدة الرائحـة الكريهـة الـتي تفـوح مـن جسـمه الـذي نضـج وتهرى[(٢)] بصورة لم يعرف لها نظير.

٢- الوليد بن المغيرة المخزومي: وهو القائل لقريش: إن النـاس يـأتونكم في الحج فيسألونكم عن محمد، فلا تختلف أقوالكم فيه بأن يقول بعض: هو شـاعر. وآخر يقول: هو كاهن، و .. و ..

لكن قولوا كلمة واحدة: هو ساحر؛ لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته.

وكان سبب هلاكه: أن وطئ سهماً فخدشه فتورمت رجلـه، ومـات بـذلك شر ميتة، وكفى الله ورسوله شره وشر كل مستهزئ بحبيبه ﷺ :

٣- أبو جهل عمرو بن هشـام المخزومـي: وكـان مـن أشـد النـاس عـداوة للرسول ﷺ واسمه عمرو ، وكنيته أبو الحكم.

وكناه المسلمون بأبي جهل لخبثه وسوء أفعاله وقبيح صـنائعه، هلـك ببـدر،

---

(١) ذكر الطبري في تاريخه: أن العدسة قرحة كانت العرب تتشـاءم بهـا، ويـرون أنهـا تعـدي أشـد العدوى، فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه، وبقي بعد موته ثلاثًا، لا تقـرب جنازتـه، ولا يحـاول دفنه، فلما خافوا السُبة في تركه، حفروا له، ثم دفعوه بعود في حفرتـه، وقـذفوه بالحجـارة مـن بعيـد حتى واروه.

(٢) انسلخ وتساقط.

قتله ابنا عفراء، واجتز رأسه عبد الله بن مسعود ﷺ، إذ كان يعيره بابن راعية الغنم.

وهو القائل: لئن سب محمد آلهتنا سببنا إلهه، فأنزل الله تعالى في سورة الأنعام قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

٤- النضر بن الحارث: وكان من أشد الناس تكذيباً للنبي ﷺ وأذى له ولأصحابه، وكان يقرأ كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى، ولما سمع ذكر النبي المنتظر وقرب مبعثه قال: إن جاءنا لنكونن أهدى من إحدى الأمم، مصداق قوله هذا في قوله تعالى من سورة فاطر، إذ قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[2].

وهو القائل: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾[3].

وهو المعني بقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣)﴾[4].

وهو المعني بقول الله تعالى من سورة لقمان: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام آية: ١٠٨.

(٢) سورة فاطر الآيتان: ٤٢، ٤٣.

(٣) سورة الأنفال آية: ٣٢.

(٤) سورة المعارج الآيات: ١-٣.

(٥) سورة لقمان آية: ٦.

هلك هذا الطاغية ببدر، إذ أسره المقداد بن الأسود.

وأمر الرسول ﷺ بضرب عنقه لكثرة شره، فقتله علي ﷺ.

٥- عقبة بن أبي معيط الأموي: وكان من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ وعداوة له وللمسلمين.

وهو الذي وضع سلى الجزور بين كتفي رسول الله ﷺ وهو يصلي عند البيت ورجالات قريش يضحكون.

حتى جاءت فاطمة رضي الله عنها. وكانت جويرية صغيرة – فنحته عن رسول الله ﷺ ونالت منه سبا وانصرفت – رضي الله عنها وأرضاها.

هلك هذا الطاغية الخبيث ببدر حيث أسر بها وصلب، وهو أول مصلوب في الإسلام.

وكان أحيمراً أزرق العينين شبهه رسول الله ﷺ بعاقر ناقة صالح قدار بن سالف – عليهما معاً لعائن الله.

٦- الأسود بن عبد يغوث الزهري: كان من المستهزئين، وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى.

وكان يقول للنبي ﷺ مستهزئاً به: أما كُلمت اليوم من السماء يا محمد؟

خرج عدو الله من أهله يوماً فأصابه السموم فأسود وجهه، وأصابته الأكلة مرض فامتلأ جسمه قيحاً فمات شر ميتة، فلا رحمه الله، ولا خفف عنه – يوماً – عذابه.

٧- الحارث بن قيس السهمي: وكان أحد المستهزئين بالنبي ﷺ الذين لا يبرحون يؤذونه طوال حياتهم، وكان لجهله وشدة شغفه بالأوثان يأخذ الحجر يعبده.

فإذا رأى غيره أحسن منه تركه وعبد غيره مما رآه أحسن في نظره.

وكان يقول: قد غر محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر، وفيه نزل قوله تعالى من سورة الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وهلك هذا الطاغية الملحد الدهري بالذبحة، إذ أكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب حتى مات، وقد امتلأ رأسه قيحاً، فكانت ميتته شر ميتة وأنكرها.

٨، ٩- أُبيْ وأمية ابنا خلف: وكانا من أشد الناس أذية لرسول الله ﷺ وعداوة له ولأصحابه، واستهزاء بدين الله، إذ جاء أُبيْ - عليه لعائن الله - إلى رسول الله وفي يده عظم، ففتته بيده وقال: زعمت أن ربك يحيى هذا العظم. وفيه نزلت آية يس: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[2].

وضع عقبة بن أبي معيط طعاماً، ودعا إليه رسول الله ﷺ فقال: لا أحضره حتى تشهد أن لا إله إلا الله ففعل.

---

(١) سورة الجاثية الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة يس الآيتان: ٧٨، ٧٩.

فأتاه رسول الله ﷺ فقال أمية بن خلف لعقبة: أقلت كذا وكذا.

فقال: إنما قلت ذلك لطعامنا، فنزلت آية الفرقان: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾[1].

وهلك أمية يوم بدر مرذولاً مخزياً شر ميتة، وهلك أخوه أُبي بطريق مكة، إذ ضربه الرسول ﷺ بحربة في ترقوته في أحد، فهلك بها في طريقه إلى جهنم وبئس المصير.

١٠- أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة: وكان ممن يؤذي النبي ﷺ، ويعين أبا جهل على ذلك، هلك ببدر على يد حمزة عم الحبيب ﷺ ، ورضي الله عن حمزة ومن ترضى عن حمزة موقناً موحداً لا يشرك بالله شيئاً.

١١- العاص بن وائل السهمي: والد عمرو بن العاص ﷺ، وكان من المستهزئين، وهو القائل لما مات القاسم بن النبي ﷺ، إن محمداً أبتر لا يعيش له ولد ذكر، فانزل الله تعالى في سورة الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾[2]، [3].

هلك بمكة بسبب لدغة في رجله، انتفخت لها رجله حتى صارت كعنق البعير.

---

(١) سورة الفرقان الآيات: ٢٧-٢٩.

(٢) سورة الكوثر الآيات: ١- ٣.

(٣) شانئك: أي مبغضك، الأبتر: أي الناقص المقطوع النسل قد انقطع نسله وخالد نسل محمد ﷺ إلى يوم القيامة.

فمات بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بشهر وكذا يوماً.. هلك إلى جهنم وبئس المصير.

١٢، ١٣ – نبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان: وكانا من المستهزئين المؤذين لرسول الله ﷺ والمؤمنين، وكانا إذا لقيا رسول الله ﷺ يقولان له: أما وجد الله من يبعثه غيرك؟ إن ههنا من هو أسن [١] منك، وأيسر [٢]. هلك كل منهما ببدر.

فقتل علي ﷺ منبهاً والآخر لا يدري من قتله فإلى سخط الله وعذابه دائماً وأبداً، وذلك جزاء المستهزئين.

١٤– الأسود بن المطلب بن أسد: ويكنى أبا زمعة، كان من المستهزئين، إذ كان مع أصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه.

ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض، ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر؟؟ ويظفرون به؛ لهواً وضحكاً وسخرية، دعا عليه رسول الله ﷺ أن يعمى ويثكل [٣] ولده.

فعمى وثكل ولده ومات بمكة، والناس يتجهزون لأحد وهو يحرض الكفار على الخروج مع ما هو عليه من المرض من شدة بغضه لرسول الله وأصحابه ودين الله. فهلك أعمى أثكل إلى جهنم وبئس المصير.

---

(١) اي أكبر منك سناً.
(٢) اي أكثر منك مالاً وغنى.
(٣) اي يفقد ولده بموته.

١٥- طعيمة بن عدي بن نوفل: كان ممن يؤذون رسول الله ﷺ ويشتمونه ويكذبونه، أسر ببدر.

وقتل صبراً بها، فإلى جنهم وبئس المصير.

١٦- مالك بن الطلاطلة بن عمرو بن غبشان: كان من المستهزئين، وكان سفيهاً، فدعا عليه النبي ﷺ فمات بمكة عندما امتلأ رأسه قيحاً، فإلى جهنم وبئس المصير.

١٧- ركانة بن عبد يزيد، وكان شديد العداوة للنبي ﷺ والاستهزاء به، فقال يوماً للرسول ﷺ: يا ابن أخي، بلغني عنك أمر ولست بكذاب.

فإن صرعتني علمت أنك صادق- ولم يكن يقدر على صرعه أحد، فصارعه النبي ﷺ وصرعه ثلاث مرات، ودعاه إلى الإسلام، فأبى أن يسلم وقال: لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة، فقال لها رسول الله ﷺ: "أقبلي" فأقبلت تخد [1] الأرض.

فقال ركانة: ما رأيت سحراً أعظم من هذا مرها فلترجع، فأمرها ﷺ فعادت إلى مكانها.

فقال ركانة: هذا سحر عظيم.

قال ابن الأثير: هؤلاء أشد عداوة لرسول الله ﷺ ومن عداهم من رؤساء قريش كانوا أقل عداوة من هؤلاء كعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهما.

روى أنس رضي الله عنه قال: "كان رجل نصرانيًا فأسلم، وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبي ﷺ، فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما

---

(١) تخد الأرض: أي تشقها.

كتبت له، فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم، نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له، فأغمقوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم، فألقوه، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه". رواه البخاري.

يقول ابن تيمية: "وهذا أمر خارج عن العادة، يدل كل أحد على أن هذه عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذبًا، إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا، وأن هذا الجرم أعظم من مجرد الإرتداد، إذ كان عامة المرتدين لا يصيبهم مثل هذا، وأن الله منتقم لرسوله ممن طعن عليه وسبه، ومُظهر لدينه، وكذب الكاذب إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد".

وهناك جماعة كانوا شديدي الأذى والعداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه ولكنهم آمنوا وأسلموا وحسن إسلامهم كأبي سفيان بن حرب والحكم بن أبي العاص، وعبد الله بن أبي أمية المخزومي أخي أم سلمة لأبيها رضي الله عنهم.

نتائج وعبر:

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة من النتائج والعبر ما نوجزه فيما يلي:

١- تقرير أن الاستهزاء بالله أو آياته أو رسوله: كفر موجب للخلود في العذاب كما أن الاستهزاء بالمؤمنين يغضب الله ويسخطه على فاعله.

٢- بيان ما نال رسول الله ﷺ من أذى المشركين، وكيف قابله رسول الله ﷺ بالصبر حتى نصره الله فأعزه وأعز دينه وأذل المشركين وأبطل دينهم.

٣- تقرير سنة الله في أن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

٤- بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾[1] فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول ﷺ يشاهد هلاكهم، وفي فترة وجيزة وزمن قليل.

٥- إن الآيات والمعجزات لا تستلزم الإيمان فقد رأى ركانة أعظم آية وما آمن.

■ ■ ■

(١) سورة الحجر آية: ٩٥.



الفصل العاشر

حكم شاتم الرسول

صلى الله عليه وسلم



قال الإمام ابن تيمية رحمه الله [١]:

إن الله هدانا بنبيه محمد ﷺ، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور، وآتانا ببركة رسالته ويمن سفارته خير الدنيا والآخرة، وكان من ربه بالمنزلة العليا التي تقاصرت العقول والألسنة عن معرفتها ونعتها، وصارت غايتها من ذلك – بعد التناهي في العلم والبيان – الرجوع إلى عيها وصمتها فاقتضاني لحادث حدث- أدنى ما له من الحق علينا بل هو ما أوجب الله من تعزيزه ونصره بكل طريق، وإيثاره بالنفس والمال في كل موطن، وحفظه وحمايته من كل مؤذ، وإن كان الله قد أغنى رسوله عن نصر الخلق، ولكن ليبلو بعضكم ببعض وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، ليحق الجزاء على الأعمال كما سبق في أم الكتاب – أن أذكر ما شرع من العقوبة لمن سب النبي ﷺ من مسلم وكافر، وتوابع ذلك ذكراً يتضمن الحكم والدليل، وأنقل ما حضرني في ذلك من الأقاويل، وأردف القول بحظه من التعليل، وبيان ما يجب أن يكون عليه التعويل، وأما ما يقدره الله عليه من العقوبات فلا يكاد يأتي عليه التفصيل، وإنما المقصود ههنا بيان الحكم الشرعي الذي يفتي به المفتي ويقضي به القاضي ويجب على كل واحد من الأئمة والأمة القيام بما أمكن منه، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

وقد رتبته على أربع مسائل:

المسألة الأولى: في أن الساب يقتل، سواء كان مسلماً أو كافراً [٢].

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول – لشيخ الإسلام أحمد عبد الرحيم بن تيمية رحمه الله.

(٢) الدولة ممثلة في ولي الأمر أو جهازها القضائي هي التي تتولى التثبت من ذلك وتنفيذ الحكم، ولا يترك ذلك لآحاد الناس حتى لا يكون فتنة أو يهدر دم بدون وجه حق.

المسألة الثانية: في أنه يتعين قتله وإن كان ذمياً. فلا يجوز المن عليه، ولا مفاداته.

المسألة الثالثة: في حكمه إذا تاب.

المسألة الرابعة: في بيان السب، وما ليس بسب، والفرق بينه وبين الكفر.

المسألة الأولى

حكاية الإجماع على قتل الساب:

إن من سب النبي ﷺ من مسلم أو كافر فإنه يجب قتله، هذا مذهب عليه عامة أهل العلم.

قال ابن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن حد من سب النبي ﷺ القتل، وممن قاله مالك والليث وأحمد و إسحاق، وهو مذهب الشافعي. قال:وحكي عن النعمان لا يقتل، يعني الذي هم عليه من الشرك أعظم [1]. وقد حكى أبو بكر الفارسي من أصحاب الشافعي إجماع المسلمين على أن حد من سب النبي ﷺ القتل كما أن حد من سب غيره الجلد.

وهذا الإجماع الذي حكاه هذا محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين، أو أنه أراد به إجماعه على أن ساب النبي ﷺ يجب قتله إذا كان مسلماً، وكذلك قيده القاضي عياض، فقال: أجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابه، وكذلك حكي عن غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره. وقال الإمام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة الأعلام: أجمع المسلمون على أن من

---

(١) يعني غير المسلم.

سب الله أو سب رسوله ﷺ، أو دفع شيئاً مما أنزل الله عز وجل، أو قتل نبياً من أنبياء الله عز وجل: أنه كافر بذلك وإن كان مقراً بكل ما أنزل الله.

قال الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله. وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر، والوعيد جاء عليه عذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل ومن شك في كفره وعذابه كفر.

تحرير القول في حكم الساب:

وتحرير القول فيه: أن الساب إن كان مسلماً فإنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، وقد تقدم. وممن حكى الإجماع على ذلك إسحاق بن راهويه وغيره، وإن كان ذمياً فإنه يقتل أيضاً في مذهب مالك وأهل المدينة، وسيأتي حكاية ألفاظهم، وهو مذهب أحمد وفقهاء الحديث.

نصوص الإمام أحمد:

وقد نص أحمد على ذلك في مواضع متعددة. قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه – مسلماً كان أو كافراً – فعليه القتل، وأرى أن يقتل ولا يستتاب. قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: كل من نقض العهد وأحدث في الإسلام حدثاً مثل هذا رأيت عليه القتل، ليس على هذا أعطوا العهد والذمة، وكذلك قال أبو الصفراء: سألت أبا عبد الله عن رجل من أهل الذمة شتم النبي ﷺ، ماذا عليه؟ قال: إذا قامت البينة عليه يقتل من شتم النبي ﷺ، مسلماً كان أو كافراً، رواهما الخلال.

وقال في رواية عبد الله وأبي طالب وقد سئل عن شتم النبي ﷺ، قال: يقتل،

قيل له: فيه أحاديث؟ قال: نعم أحاديث، منها: حديث الأعمى الذي قتل المرأة، قال: سمعتها تشتم النبي ﷺ، وحديث حصين أن ابن عمر قال: من شتم النبي ﷺ قتل، وكان عمر بن عبد العزيز يقول: يقتل، وذلك أنه من شتم النبي ﷺ فهو مرتد عن الإسلام، ولا يشتم مسلم النبي ﷺ، زاد عبد الله: سألت أبي عمن شتم النبي ﷺ، يستتاب؟ قال: قد وجب عليه القتل، ولا يستتاب، لأن خالد بن الوليد قتل رجلاً شتم النبي ﷺ ولم يستتبه، رواهما أبو بكر في الشافي.

وفي رواية أبي طالب: سئل أحمد عمن شتم النبي ﷺ، قال: يقتل، قد نقض العهد، وقال حرب: سألت أحمد عن رجل من أهل الذمة شتم النبي ﷺ قال: يقتل، إذا شتم النبي ﷺ، رواهما الخلال، وقد نص على هذا في غير هذه الجوابات[١].

فأقواله كلها نص في وجوب قتله، وفي أنه قد نقض العهد، وليس عنه في هذا اختلاف.

ما ينتقض به عهد الذمي:

وكذلك ذكر عامة أصحابه متقدمهم ومتأخرهم، لم يختلفوا في ذلك، إلا أن القاضي في المجرد[٢] ذكر الأشياء التي يجب على أهل الذمة تركها وفيها ضرر على المسلمين وآحادهم في نفس أو مال، وهي: الإعانة على قتال المسلمين، وقتل المسلم أو المسلمة، وقطع الطريق عليهم، وأن يؤوى للمشركين جاسوساً، وأن يعين عليهم بدلالة مثل أن يكاتب المشركين بأخبار المسلمين، وأن يزني

---

(١) يعني أن غير المسلم الذي يقيم في بلاد الإسلام يطبق بحقه ما يطبق على المسلم في هذه المسألة.

(٢) كتاب المجرد في مناقب الإمام أحمد، للقاضي ابن أبي يعلي الحنبلي.

بمسلمة أو يصيبها باسم نكاح، وأن يفتن مسلماً عن دينه [١] ، قال: فعليه الكف عن هذا ، شرط أو لم يشرط، فإن خالف انتقض عهده، وذكر نصوص أحمد في بعضها، مثل نصه في الزنا بالمسلمة وفي التجسس للمشركين وقتل المسلم وإن كان عبداً كما ذكره الخرقي، ثم ذكر نصه في قذف المسلم على أنه لا ينتقض عهده، بل يحد حد القذف. قال: فتخرج المسألة على روايتين، ثم قال: وفي معنى هذه الأشياء ذكر الله وكتابه ودينه ورسوله بما لا ينبغي، فهذه أربعة أشياء الحكم فيها كالحكم في الثمانية التي قبلها، ليس ذكرها شرطاً في صحة العقد، فإن أتوا واحدة منها نقضوا الأمان، سواء كان مشروطاً في العهد أو لم يكن، وكذلك قال في الخلاف بعد ذكر أن المنصوص انتقاض العهد بهذه الأفعال والأقوال.

قال: وفيه رواية أخرى لا ينتقض عهده إلا بالامتناع من بذل الجزية وجرى حكامنا عليهم.

ثم ذكر نصه على أن الذمي إذا قذف المسلم يضرب، قال: فلم يجعله ناقضاً للعهد بقذف المسلم مع ما فيه من الضرر عليه بهتك عرضه.

وتبع القاضي جماعة من أصحابه ومن بعدهم – مثل الشريف أبي جعفر وابن عقيل وأبي الخطاب والحلواني – فذكروا أنه لا خلاف أنهم إذا امتنعوا من أداء الجزية والتزام أحكام الملة انتقض عهدهم ، وذكروا في جميع هذه الأفعال والأقوال التي فيها ضرر على المسلمين وآحادهم في نفس أو مال أو فيها غضاضة على المسلمين في دينهم، مثل سب الرسول وما مثله روايتين،

(١) اي ان من يُنَصِّر او يُهَوِّد أو يخرج مسلماً عن دينه فجزاؤه القتل.

إحداهما: ينتقض العهد بذلك، والأخرى: لا ينتقض عهده، وتقام فيه حدود ذلك، مع أنهم كلهم متفقون على أن المذهب انتقاض العهد بذلك.

ثم إن القاضي والأكثرين لم يعدوا قذف المسلم من الأمور المضرة الناقضة، مع أن الرواية المخرجة إنما خرجت من نصه في القذف.

وأما أبو الخطاب ومن تبعه فنقلوا حكم تلك الخصال إلى القذف كما نقلوا حكم القذف إليها، حتى حكوا في انتقاض العهد بالقذف روايتين.

ثم إن هؤلاء كلهم وسائر الأصحاب ذكروا مسألة سب النبي ﷺ في موضع آخر، وذكروا أن سابه يقتل وإن كان ذمياً، وأن عهده ينتقض ، وذكروا نصوص أحمد من غير خلاف في المذاهب، إلا أن الحلواني قال: ويحتمل أن لا يقتل من سب الله ورسوله إذا كان ذمياً.

وسلك القاضي أبو الحسين في نواقض العهد طريقة ثانية توافق قولهم هذا فقال: أما الثمانية التي فيها ضرر على المسلمين وآحادهم في مال أو نفس فإنها تنقض العهد في أصح الروايتين، وأما ما فيه إدخال غضاضة ونقص على الإسلام – وهي ذكر الله وكتابه ودينه ورسوله بما لا ينبغي – فإنه ينقض العهد، نص عليه، ولم يخرج في هذا رواية أخرى كما ذكرها أولئك في أحد الموضعين، وهذا أقرب من تلك الطريقة.

وعلى الرواية التي تقول لا ينتقض العهد بذلك فإنما ذلك إذا لم يكن مشروطاً عليهم في العقد. فأما إن كان مشروطاً ففيه وجهان، أحدهما: ينتقض، قاله الخرقي، وقال أبو الحسن الآدمي: وهو الصحيح في كل ما شرط عليهم، والثاني: لا ينتقض، قاله القاضي وغيره.

صرح أبو الحسن بذلك هنا كما ذكره الجماعة فيما إذا أظهروا دينهم وخالفوا هيئتهم من غير إضرار كإظهار الأصوات بكتابهم والتشبيه بالمسلمين، مع أن هذه الأشياء كلها يجب عليهم تركها بخصوصها.

وهاتان الطريقتان ضعيفتان، والذي عليه عامة المتقدمين من أصحابنا ومن تبعهم من المتأخرين إقرار نصوص أحمد على حالها، وقد نص في مسائل سب الله ورسوله على انتقاض العهد في غير موضع، وعلى أنه يقتل، وكذلك فيمن جسس على المسلمين أو زنى بمسلمة على انتقاض عهده وقتله في غير موضع.

وكذلك نقله الخرقي فيمن قتل مسلماً وقطع الطريق أولى. وقد نص أحمد على أن قذف المسلم وسحره لا يكون نقضاً للعهد في غير موضع. هذا هو الواجب، لأن تخريج حكم المسألتين إلى الأخرى وجعل المسألتين على روايتين – مع وجود الفرق بينهما نصاً واستدلالاً، أو مع وجود معنى يجوز أن يكون مستنداً للفرق – غير جائز. وهذا كذلك. وكذلك من وافقوا على انتقاض العهد بسب النبي ﷺ لم يوافقوا على الانتقاض ببعض هذه الأمور.

حكاية مذهب الشافعي:

وأما الشافعي فالمنصوص عن نفسه أن عهده ينتقض بسب النبي ﷺ، وأنه يقتل. هكذا حكاه ابن المنذر والخطابي وغيرهما. والمنصوص عنه في الأم أنه قال: إذا أراد الإمام أن يكتب كتاب صلح على الجزية كتب وذكر الشروط، إلى أن قال: وعلى أن أحداً منكم إن ذكر محمدًا ﷺ أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره فقد برئت منه ذمة الله ثم ذمة أمير المؤمنين وجميع المسلمين، ونقض ما أعطى من الأمان، وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه كما تحل أموال أهل الحرب

ودماؤهم، وعلى أن أحداً من رجالهم إن أصاب مسلمة بزنا أو اسم نكاح، أو قطع الطريق على مسلم، أو فتن مسلماً عن دينه، أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال أو دلالة على عورات المسلمين أو إيواء لعيونهم فقد نقض عهده وحل دمه وماله، وإن نال مسلماً بما دون هذا في ماله أو عرضه لزمه فيه الحكم.

ثم قال: فهذه الشروط اللازمة إن رضيها فبها، وإن لم يرضها فلا عقد له ولا جزية.

ثم قال: ولو فعل شيئاً مما وصفته نقضاً للعهد وأسلم لم يقتل إذا كان ذلك قولاً، وكذلك إذا كان فعلاً لم يقتل إلا أن يكون في دين المسلمين أن من فعله قتل حداً أو قصاصاً فيقتل بحد أو قصاص لا نقض عهد.

وإن فعل مما وصفنا وشرط أنه نقض لعهد الذمة فلم يسلم ولكنه قال : أتوب وأعطى الجزية كما كنت أعطيها، أو على صلح أجدده عوقب، ولم يقتل إلا أن يكون فعلاً يوجب القصاص أو الحد. فأما ما دون هذا من الفعل أو القول فكل قول يعاقب عليه ولا يقتل.

قال: فإن فعل أو قال ما وصفنا وشرط أنه يحل دمه فظفر به فامتنع من أن يقول: أسلم، أو أعطى جزية قتل وأخذ ماله فيئاً.

ونص في الأم أيضاً أن العهد لا ينتقض بقطع الطريق، ولا بقتل المسلمين ولا بالزنا بالمسلمة، ولا بالتجسس، بل يحد فيما فيه الحد، ويعاقب عقوبة مكملة فيما فيه العقوبة، ولا يقتل إلا أن يجب عليه القتل.

قال: ولا يكون النقض للعهد إلا بمنع الجزية، أو الحكم بعد الإقرار والامتناع بذلك.

قال: ولو قال أؤدي الجزية ولا أقر بالحكم نبذ إليه، ولم يقتل على ذلك مكانه، وقيل: قد تقدم لك أمان، فأمانك كان للجزية وإقرارك بها وقد أجلناك في أن تخرج من بلاد الإسلام، ثم إن خرج فبلغ مأمنه قتل إن قدر عليه.

فعلى كلامه المأثور عنه يفرق بين ما فيه غضاضة على الإسلام وبين الضرر بالفعل، أو يقال: يقتل الذمي بسببه وإن لم ينقض عهده، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

أقوال أصحاب الشافعي:

وأما أصحابه فذكروا – فيما إذا ذكر الله أو كتابه أو رسوله بسوء – وجهين:

أحدهما : ينقض عهده بذلك، سواء شرط عليهم تركه أو لم يشرط، بمنزله ما إذا قاتلوا المسلمين وامتنعوا من التزام الحكم كطريقة أبي الحسين من أصحابنا، وهذه طريقة أبي إسحاق المروزي.

ومنهم من خص سب رسول الله ﷺ وحده أنه يوجب القتل.

والثاني: أن السب كالأفعال التي على المسلمين فيها ضرر من قتل المسلم والزنا بالمسلمة والجس وما ذكر معه، وذكروا في تلك الأمور وجهين، إحداهما: أنه إن لم يشترط عليهم تركها بأعيانها ففي انتقاض العهد بفعلها وجهان، والثاني: لم ينتقض العهد بفعلها مطلقاً.

ومنهم من حكى هذه الوجوه أقوالاً، وهي أقوال مشار إليها، فيجوز أن تسمى أقوالاً ووجوهاً، هذه طريقة العراقيين، وقد صرحوا بأن المراد شرط تركها، لا شرط انتقاض العهد بفعلها كما ذكره أصحابنا.

وأما الخراسانيون فقالوا: المراد بالاشتراط هنا شرط انتقاض العهد بفعلها، لا شرط تركها، قالوا: لأن الترك موجب لنفس العقد، ولذلك ذكروا في تلك الخصال المضرة ثلاثة أوجه:

أحدها: ينتقض بفعلها.

والثاني: لا ينتقض.

والثالث: إن شرط في العقد انتقاض العهد بفعلها انتقض، وإلا فلا.

ومنهم من قال: إن شرط نقض وجهاً واحداً، وإن لم يشرط فوجهان، وحسبوا أن مراد العراقيين بالاشتراط هذا فقالوا حكاية عنهم: إن لم يجر شرط لم ينتقض العهد، وإن جرى فوجهان، ويلزم من هذا أن يكون العراقيون قائلين بأنه إن لم يجر شرط الانتقاض بهذه الأشياء لم ينتقض بها وجهاً واحداً، وإن صرح بشرط تركها انتقض، وهذا غلط عليهم، والذي نصروه في كتب الخلاف أن سب النبي ﷺ ينقض العهد ويوجب القتل كما ذكرناه عن الشافعي نفسه.

مذهب أبي حنيفة:

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقالوا: لا ينقض العهد بالسب، ولا يقتل الذمي بذلك، لكن يعزر على إظهار ذلك كما يعزر على إظهار المنكرات التي ليس لهم فعلها من إظهار أصواتهم بكتابهم ونحو ذلك، وحكاه الطحاوي عن الثوري، ومن أصلهم أن ما لا قتل فيه عندهم مثل القتل بالمثقل والجماع في غير القبل إذا تكرر فللإمام أن يقتل فاعله، وكذلك له أن يزيد على الحد المقدر إذا رأى المصلحة في ذلك، ويحملون ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه من القتل في مثل هذه الجرائم على أنه رأى المصلحة في ذلك، ويسمونه القتل سياسة، وكان حاصله

أن له أن يعزر بالقتل في الجرائم التي تغلظت بالتكرار وشرع القتل في جنسها، ولهذا أفتى أكثرهم بقتل من أكثر من سب النبي ﷺ من أهل الذمة وإن أسلم بعد أخذه، وقالوا: يقتل سياسة، وهذا متوجه على أصولهم.

الأدلة على انتقاض عهد الساب:

والدلائل على انتقاض عهد الذمي بسب الله أو كتابه أو دينه أو رسوله ووجوب قتله وقتل المسلم إذا أتى ذلك: الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة والتابعين،والاعتبار [(١)].

الأدلة من الكتاب الكريم:

أما الكتاب فيستنبط ذلك منه من مواضع:-

احدها: قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[(٢)] فأمرنا بقتالهم إلى أن يعطوا الجزية وهم صاغرون، ولا يجوز الإمساك عن قتالهم إلا إذا كانوا صاغرين حال إعطائهم الجزية، ومعلوم أن إعطاء الجزية من حين بذلها والتزامها إلى حين تسليمها وإقباضها، فإنهم إذا بذلوا الجزية شرعوا في الإعطاء ووجب الكف عنهم إلى أن يقبضوها فيتم الإعطاء، فمتى لم يلتزموها أو التزموها أولاً وامتنعوا من تسليمها ثانياً لم يكونوا معطين للجزية، لأن حقيقة الإعطاء لم توجد، وإذا كان الصغار حالاً لهم في جميع المدة فمن المعلوم أن من أظهر سب نبينا في

(١) الاعتبار: هو القياس.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة التوبة.

وجوهنا وشتم ربنا على رؤوس الملأ منا وطعن في ديننا في مجامعنا فليس بصاغر، لأن الصاغر الذليل الحقير، وهذا فعل متعزز مراغم، بل هذا غاية ما يكون من الإذلال لنا والإهانة.

قال أهل اللغة: الصغار الذل والضيم، يقال: صغر الرجل- بالكسر - يصغر - بالفتح- صَغَراً وصِغَراً، والصاغر: الراضي بالضيم، ولا يخفى على المتأمل أن إظهار السب والشتم لدين الأمة التي اكتسبت شرف الدنيا والآخرة ليس فعل راضٍ بالذل والهوان، وهذا ظاهر لا خفاء به.

وإذا كان قتالهم واجباً علينا إلا أن يكونوا صاغرين، وليسوا بصاغرين، كان القتال مأموراً به، وكل من أمرنا بقتاله من الكفار فإنه يقتل إذا قدرنا عليه.

وأيضاً، فإنا لو كنا مأمورين أن نقاتلهم إلى هذه الغاية لم يجز أن نعقد لهم عهد الذمة بدونها، ولو عقد لهم كان عقداً فاسداً فيبقون على الإباحة.

ولا يقال فيهم: فهم يحسبون أنهم معاهدون، فتصير لهم شبهة أمان، وشبهة الأمان كحقيقته، فإن من تكلم بكلام يحسبه الكافر أماناً كان في حقه أمانا وإن لم يقصده المسلم.

لأننا نقول: لا يخفى عليهم أنا لم نرض بأن يكونوا تحت أيدينا مع إظهار شتم ديننا وسب نبينا، وهم يدرون أنا لا نعاهد ذمياً على مثل هذه الحال، فدعواهم أنهم اعتقدوا أنا عاهدناهم على مثل هذا – مع اشتراطنا عليهم أن يكونوا صاغرين تجري عليهم أحكام الملة – دعوى كاذبة، فلا يلتفت إليها.

وأيضاً فإن الذين عاهدوهم أول مرة هم أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمر، وقد علمنا أنه يمتنع أن يعاهدهم عهداً خلاف ما أمر الله به في كتابه.

وأيضاً، فإنا سنذكر شروط عمر، وإنها تضمنت أن من أظهر الطعن في ديننا حل دمه وماله.

الموضوع الثاني: قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾[1] نفي سبحانه أن يكون لمشرك عهد ممن كان النبي ﷺ قد عاهدهم، إلا قوماً ذكرهم، فإنه جعل لهم عهداً ما داموا مستقيمين لنا، فعلم أن العهد لا يبقى للمشرك إلا ما دام مستقيماً، ومعلوم أن مجاهرتنا بالشتيمة والوقيعة في ربنا ونبينا وكتابنا وديننا يقدح في الاستقامة، كما تقدح مجاهرتنا بالمحاربة في العهد، بل ذلك أشد علينا إن كنا مؤمنين.

فإنه يجب علينا أن نبذل دماءنا وأموالنا حتى تكون كلمة الله هي العليا، ولا يجهر في ديارنا بشيء من أذى الله ورسوله فإذا لم يكونوا مستقيم لنا بالقدح في أهون الأمرين، كيف يكونون مستقيمين مع القدح في أعظمها؟.

يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا

---

(١) من الآيات ٧ – ١٢ من سورة التوبة.

ذِمَّةً﴾[١] أي كيف يكون لهم عهد ولو ظهروا عليكم لم يرقبوا الرحم التي بينكم وبينهم ولا العهد الذي بينكم وبينهم؟ فعلم أن من كانت حاله أنه إذا ظهر لم يرقب ما بيننا وبينه من العهد لم يكن له عهد، ومن جاهرنا بالطعن في ديننا كان ذلك دليلاً على أنه لو ظهر لم يرقب العهد الذي بيننا وبينه، فإنه إذا كان مع وجود العهد والذلة يفعل هذا فكيف يكون مع العزة والقدرة؟ وهذا بخلاف من لم يظهر لنا مثل هذا الكلام فإنه يجوز أن يفي لنا بالعهد لو ظهر.

وهذه الآية، وإن كانت في أهل الهدنة الذين يقيمون في دارهم، فإن معناها ثابت في أهل الذمة المقيمين في دارنا بطريق الأولى.

الموضوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾[٢] وهذه الآية تدل من وجوه:

أحدها: أن مجرد نكث الإيمان مقتض للمقاتلة، وإنما ذكر الطعن في الدين وافراده بالذكر تخصيصاً له بالذكر وبياناً، لأنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال، ولهذا يغلظ عن الطاعن في الدين من العقوبة ما لا يغلظ على غيره من الناقصين كما سنذكره إن شاء الله تعالى، أو يكون ذكره على سبيل التوضيح، وبيان سبب القتال، فإن الطعن في الدين هو الذي يجب أن يكون داعياً إلى قتالهم لتكون كلمة الله هي العليا.

وأما مجرد نكث اليمين فقد يقاتل لأجله شجاعة وحمية ورياء، أو يكون ذكر الطعن في الدين لأنه أوجب القتال في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ

---

(١) من الآية ٨ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ١٢ من سورة التوبة.

ﭐلْكُفْرِ﴾ وبقولـــه تعـــالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾[1] فيفيد ذلك من لم يصدر منه إلا مجرد نكث اليمين جاز أن يؤمن ويعاهد.

وأما من طعن في الدين فإنه يتعين قتاله، وهذه كانت سنة رسول الله ﷺ، فإنه كان يهدر دماء من آذى الله ورسوله وطعن في الدين وإن أمسك عن غيره، وإذا كان نقض العهد وحده موجباً للقتال وإن تجرد عن الطعن علم أن الطعن في الدين إما سبب آخر، أو سبب مستلزم لنقض العهد، فإنه لابد أن يكون له تأثير في وجوب المقاتلة، وإلا كان ذكره ضائعاً.

فإن قيل: هذا يفيد أن من نكث عهده وطعن في الدين يجب قتاله، أما من طعن في الدين فقط فلم تتعرض الآية له، بل مفهوماً أنه وحده لا يوجب هذا الحكم، لأن الحكم المعلق بصفتين لا يجب وجوده عند وجود إحداهما.

قلنا: لا ريب أنه لابد أن يكون لكل صفة تأثير في الحكم، وإلا فالوصف العديم التأثير لا يجوز تعليق الحكم به، كمن قال: من زنى جلد، ثم قد يكون كل صفة مستقلة بالتأثير لو انفردت كما يقال: يقتل هذا لأنه مرتد زان، وقد يكون مجموع الجزاء مرتباً على المجموع ولكل وصف تأثير في البعض كما قال ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[2] ، وقد تكون تلك الصفات متلازمة كل منها لو فرض تجرده لكان مؤثراً على سبيل الاستقلال أو الاشتراك فيذكر

---

(١) من الآيتين ١٣ و ١٤ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ٦٨ من سورة الفرقان.

إيضاحاً وبياناً للموجب، كما يقال: كفروا بالله وبرسوله، وعصى الله ورسوله، وقد يكون بعضها مستلزماً للبعض من غير عكس كما قال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾[1].

وهذه الآية من أي الأقسام فرضت كان فيها دلالة، لأن أقصى ما يقال إن نقض العهد هو المبيح للقتال، والطعن في الدين مؤكد له وموجب له، فنقول: إذا كان الطعن يغلظ قتال من ليس بيننا وبينه عهد ويوجبه فإن يوجب قتال من بيننا وبينه ذمة وهو ملتزم للصغار أولى، وسيأتي تقرير ذلك. على أن المعاهد له أن يظهر في دواره ما شاء من أمر دينه الذي لا يؤذينا، والذمي ليس له أن يظهر في دار الإسلام شيئاً من دينه الباطل وإن لم يؤذنا، فحاله أشد، وأهل مكة الذين نزلت فيهم هذه الآية كانوا معاهدين لا أهل ذمة، فلو فرض أن مجرد طعنهم ليس نقضاً للعهد لم يكن الذمي كذلك.

الوجه الثاني: أن الذمي إذا سب الرسول أو سب الله أو عاب الإسلام علانية فقد نكث يمينه وطعن في ديننا، لأنه لا خلاف بين المسلمين أنه يعاقب على ذلك ويؤدب عليه، فعلم أنه لم يعاهد عليه، لأنا لو عاهدناه عليه ثم فعله لم تجز عقوبته عليه، وإذا كنا قد عاهدناه على أن لا يطعن في ديننا ثم يطعن في ديننا فقد نكث في يمينه من بعد عهده وطعن في ديننا، فيجب قتله بنص الآية وهذه دلالة قوية حسنة، لأن المنازع يسلم لنا أنه ممنوع من ذلك بالعهد الذي بيننا وبينه.

---

(١) من الآية ٢١ من سورة آل عمران، ووقع في الهندية "بغير الحق" وهو انتقالي إلى الآية ٦١ من سورة البقرة ونصها (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق).

لكن نقول: ليس إظهار كل ما منع منه نقض عهده كإظهار الخمر والخنزير ونحو ذلك، فنقول، قد وجد منه شيئان: ما منعه من العهد، وطعن في الدين، بخلاف أولئك، فإنه لم يوجد منهم إلا فعل ما هم ممنوعون منه بالعهد فقط، والقرآن يوجب قتل من نكث يمينه من بعد عهده وطعن في الدين، ولا يمكن أن يقال "لم ينكث" لأن النكث هو مخالفة العهد، فمتى خالفوا شيئاً مما صولحوا عليه فهو نكث، مأخوذ من نكث الحبل، وهو نقض قواه، ونكث الحبل يحصل بنقض قوة واحدة، كما يحصل بنقض جميع القوى، لكن قد بقى من قواه ما يستمسك الحبل به، وقد يهين بالكلية.

وهذه المخالفة من المعاهد قد تبطل العهد بالكلية حتى يجعله حربياً، وقد نكث العهد، حتى تبيح عقوبتهم، كما أن بعض الشروط في البيع والنكاح ونحوهما قد تبطل البيع بالكلية كما لو وصفه بأنه فرس فظهر بعيراً، وقد يبيح الفسخ كالإخلال بالرهن والضمين، هذا عند من يفرق في المخالفة.

وأما من قال "ينتقض العهد بجميع المخالفات" فالأمر ظاهر على قوله، وعلى التقديرين قد اقتضى العقد أن لا يظهروا شيئاً من عيب ديننا، وأنهم متى أظهروه فقد نكثوا وطعنوا في الدين، فيدخلون في عموم الآية لفظاً ومعنى، ومثل هذا العموم يبلغ درجة النص.

بم استحقوا إمامة الكفر؟

الوجه الثالث: أنه سماهم أئمة الكفر لطعنهم في الدين، وأوقع الظاهر موقع المضمر، لأن قوله (أئمة الكفر) إما أن يعني به الذين نكثوا أو طعنوا أو بعضهم، والثاني لا يجوز، لأن الفعل الموجب للقتال صدر من جميعهم، فلا يجوز

تخصيص بعضهم بالجزاء، إذ العلة يجب طردها إلا لمانع، ولا مانع، ولأنه علل ذلك ثانياً بأنهم لا إيمان لهم، وذلك يشمل جميع الناكثين الطاعنين، ولأن النكث والطعن وصف مشتق مناسب لوجوب القتال، وقد رتب عليه بحرف الفاء ترتيب الجزاء على شرطه، وذلك نص في أن ذلك الفعل هو الموجب للثاني، فثبت أنه عني الجميع، فيلزم أن الجميع أئمة كفر، وإمام الكفر هو الداعي إليه المتبع فيه، وإنما ثار إماماً في الكف لأجل الطعن، فإن مجرد النكث لا يوجب ذلك وهو مناسب، لأن الطعن في الدين [أن] يعيبه ويذمه ويدعو إلى خلافه، وهذا شأن الإمام، فثبت أن كل طاعن في الدين فهو إمام في الكفر، فإذا طعن الذمي في الدين فهو إمام في الكفر، فيجب قتاله لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ ولا يمين له، لأنه عاهدنا على أن لا يظهر عيب الدين وخالف.

واليمين هنا المراد بها العهود، لا القسم بالله، فيما ذكره المفسرون. وهو كذلك، فالنبي ﷺ لم يقسمهم بالله عام الحديبية، وإنما عاقدهم عقداً، ونسخة الكتاب معروفة ليس فيها قسم، وهذا لأن اليمين يقال: إنما سميت بذلك لأن المعاهدين يمد كل منهما يمينه إلى الآخر، ثم غلبت حتى صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يميناً، ويقال: سميت يميناً لأن اليمين هي القوة والشدة، كما قال الله تعالى: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ (١) فلما كان الحلف معقوداً مشدداً سمي يميناً، فاسم اليمين جامع للعقد الذي بين العبد وبين ربه وإن كان نذراً، ومنه قول النبي ﷺ: "النذر حلفه" وقوله: "كفارة النذر كفارة اليمين" وقول جماعة من الصحابة للذي نذر نذر اللجاج والغضب: "كفر يمين" وللعهد الذي بين المخلوقين، ومنه قوله

---

(١) من الآية ٤٥ من سورة الحاقة.

تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾(١) والنهي عن نقض العهود وإن لم يكن فيها قسم، وقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(٢) وإنما لفظ العهد بايعناك على أن لا نفر ليس فيه قسم، وقد سماهم معاهدين لله، وقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾(٣) قالوا: معناه يتعاهدون ويتعاقدون، لأن كل واحد من المعاهدين إنما عاهده بأمانة الله وكفالته وشهادته، فثبت أن كل من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه بأمانة الله وكفالته وشهادته، فثبت أن كل من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه عهداً يقتضي أن لا يفعل ذلك فهو إمام في الكفر لا يمين له، فيجب قتله بنص الآية، وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الناكث الذي ليس بإمام، وهو من خالف بفعل شيء مما صولحوا عليه من غير الطعن في الدين.

سب الرسول يوجب نقض عهد الذمي :

الوجه الرابع: أنه قال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(٤) ، فجعل همهم بإخراج الرسول من المحضضات على قتالهم، وما ذاك إلا لما فيه من الأذى، وسبه أغلظ من الهم بإخراجه، بدليل أنه ﷺ عفا عام الفتح عن الذين هموا بإخراجه، ولم

---

(١) من الآية ٩١ من سورة النحل.

(٢) من الآية ١٠ من سورة الفتح.

(٣) من الآية ١ من سورة النساء.

(٤) من الآية ١٣ من سورة التوبة.

يعف عمن سبه، فالذمي إذا أظهر سبه فقد نكث عهده، وفعل ما هو أعظم من الهم بإخراج الرسول، وبدأ بالأذى، فيجب قتاله.

الوجه الخامس: قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ (١) .

يجب قتال الناكثين للعهد :

أمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين، وضمن لنا - إن فعلنا ذلك - أن يعذبهم بأيدينا ويخزيهم، وينصرنا عليهم، ويشف صدور المؤمنين الذين تأذوا من نقضهم وطعنهم، وأن يذهب غيظ قلوبهم، لأنه رتب ذلك على قتالنا ترتيب الجزاء على الشرط، والتقدير: إن تقاتلوهم يكن هذا كله، فدل على أن الناكث الطاعن مستحق هذا كله، وإلا فالكفار يدالون علينا لمرة وندال عليهم الأخرى، وإن كانت العاقبة للمتقين، وهذا تصديق ما جاء في الحديث "ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو" والتعذيب بأيدينا هو القتل فيكون الناكث الطاعن مستحقاً للقتل.

والساب لرسول الله ﷺ ناكث طاعن كما تقدم، فيستحق القتل، وإنما ذكر سبحانه النصر عليهم وأنه يتوب من بعد ذلك على من يشاء، لأن الكلام في قتال الطائفة الممتنعة، فأما الواحد المستحق للقتل فلا ينقسم حتى يقال فيه "يعذبه الله ويتوب الله من بعد ذلك على من يشاء" على أن قوله (من يشاء) يجوز أن يكون عائداً إلى من لم يطعن بنفسه وإنما أقر الطاعن، فسميت الفئة طاعنة لذلك،

(١) الآيتان ١٤ و ١٥ من سورة التوبة.

وعند التمييز فبعضهم دون بعضهم مباشر، ولا يلزم من التوبة على الرد التوبة على المباشر، ألا ترى أن النبي ﷺ أهدر عام الفتح دم الذين باشروا الهجاء، ولم يهدر دم الذين سمعوه، وأهدر دم بني بكر، ولم يهدر دم الذين أعاروهم السلاح.

الجهاد باب من أبواب الله تعالى:

الوجه السادس: أن قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ (١) دليل على أن شفاء الصدور من ألم النكث والطعن وذهاب الغيظ الحاصل يشفي صدور المؤمنين من ذلك أمر مقصود للشارع مطلوب الحصول، وإن ذلك يحصل إذا جاهدوا كما جاء في الحديث المرفوع: "عليكم بالجهاد فإنه باب من أبواب الله يدفع الله به عن النفوس الهم والغم" ولا ريب أن من أظهر سب الرسول ﷺ من أهل الذمة وشتمه فإنه يغيظ المؤمنين ويؤلمهم أكثر مما لو سفك دماء بعضهم وأخذ أموالهم، فإن هذا يثير الغضب لله، والحمية له ولرسوله، وهذا القدر لا يهيج في قلب المؤمن غيظاً أعظم منه، بل المؤمن المسدد لا يغضب هذا الغضب إلا لله.

ذهاب الغيظ يحصل بقتل الساب:

والشارع يطلب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم، وهذا إنما يحصل بقتل الساب لأوجه:

أحدها: أن تعزيره وتأديبه يذهب غيظ قلوبهم إذا شتم واحداً من المسلمين

(١) الآيتان ١٤ و ١٥ من سورة التوبة.

أو فعل نحو ذلك، فلو أذهب غيظ قلوبهم إذا شتم الرسول لكان غيظهم من شتمه مثل غيظهم من شتم واحد منهم، وهذا باطل.

الثاني: إن شتمه أعظم عندهم من أن يؤخذ بعض دمائهم، ثم لو قتل واحداً منهم لم يشف صدورهم إلا بقتل الساب أولي وأخرى.

الثالث: أن الله تعالى جعل قتالهم هو السبب في حصول الشفاء، والأصل عدم سبب آخر يحصله، فيجب أن يكون القتل والقتال هو الشافي لصدور المؤمنين من مثل هذا.

الرابع: أن النبي ﷺ لما فتحت مكة وأراد أن يشفي صدور خزاعة - وهم القوم المؤمنون - من بني بكر الذين قاتلوهم مكنهم منهم نصف النهار أو أكثر مع أمانه لسائر الناس، فلو كان شفاء صدورهم وذهاب غيظ قلوبهم يحصل بدون القتل للذين نكثوا وطعنوا لما فعل ذلك مع أمانه للناس.

الموضع الرابع: قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١).

فإنه يدل على أن أذى النبي ﷺ محاداة لله ولرسوله، لأنه قال هذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ (٢)، ثم قال: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ (٣) فلو لم يكونوا بهذا الأذى محادين لم يحسن أن يوعدوا بأن للمحاد نار جهنم، لأنه يمكن حينئذ أن يقال: قد

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة التوبة.

(٢) من الآية ٦١ من سورة التوبة.

(٣) من الآية ٦٢ من سورة التوبة.

علموا أن للمحاد نار جهنم، لكنهم لم يحادوا، وإنما آذوا، فلا يكون في الآية وعيد لهم، فعلم أن هذا الفعل لابد أن يندرج في عموم المحادة، ليكون وعيد المحاد وعيداً له ويلتئم الكلام.

ويدل على ذلك أيضاً ما روي الحاكم في صحيحه بإسناد صحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان في ظل حجرة من حجره، وعنده نفر من المسلمين فقال: إن سيأتيك إنسان ينظر بعين شيطان، فإذا أتاكم فلا تكلموه، فجاء رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان، فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا بالله واعتذروا إليه فأنزل الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾(١) ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(٢) فعلم أن هذا داخل في المحادة.

وفي رواية أخرى صحيحة أنه نزل قوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ﴾(٣) وقد قال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟﴾ثم قال عقبه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(٤) فثبت أن هؤلاء الشاتمين محادون، وسيأتي - إن شاء الله - زيادة في ذلك.

وإذا كان الأذى محادة لله ورسوله فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ

---

(١) من الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة المجادلة.

(٢)من الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة المجادلة.

(٣) من الآية ٩٦ من سورة التوبة.

(٤) من الآية ٦٣ من سورة التوبة.

وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾(١) والأذل: أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله إن أظهر المحادة، لأنه إن كان دمه وماله معصوماً لا يستباح فليس بأذل، يدل عليه قوله تعالى ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (٢) فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد، فعلم أن من له عهد وحبل لا ذلة عليه وإن كانت عليه المسكنة فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة، وقد جعل المخادعين في الأذلين، فلا يكون لهم عهد، إذ العهد ينافي الذلة كما دلت عليه الآية، وهذا ظاهر، فإن الأذل هو الذي ليس له قوة يمتنع بها ممن أراده بسوء، فإذا كان له من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل، فثبت أن المحاد لله ولرسوله لا يكون له عهد يعصمه، والمؤذي للنبي ﷺ محاد، فالمؤذي للنبي ليس له عهد يعصم دمه وهو المقصود.

وأيضاً، فإنه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾(٣) والكبت: الإذلال والخزي والصرع، قال الخليل: الكبت هو الصرع على الوجه، وقال النضر بن شميل وابن قتيبة: هو الغيظ والحزن، وهو في الاشتقاق الأكبر من كبده، كأن الغيظ والحزن أصاب كبده، كما يقال: أحرق الحزن والعداوة كبده، التفسير: كبتوا أهلكوا وأخزوا وحزنوا، فثبت أن المحاد مكبوت مخزي ممتلئ غيظاً وحزناً هالك، وهذا إنما يتم إذا خاف إن ظهر المحادة

---

(١) من الآيتين ٢٠ و ٢١ من سورة المجادلة.

(٢) من الآية ١١٢ من سورة آل عمران.

(٣) من الآية ٥ من سورة المجادلة.

أن يقتل، وإلا فمن أمكنه إظهار المحادة وهو آمن على دمه وماله فليس بمكبوت بل مسرور جذلان، ولأنه قال: ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ (١) والذين من قبلهم ممن حاد الرسل وحاد رسول الله إنما كبته الله بأن أهلكه بعذاب من عنده أو بأيدي المؤمنين (٢) ، والكبت وإن كان يحصل منه نصيب لكل من لم ينل غرضه كما قال سبحانه: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾(٣) لكن قوله تعالى: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني محادي الرسل دليل على الهلاك أو كتم الأذى، يبين ذلك أن المنافقين هم من المحادين، فهم مكبوتون بموتهم بغيظهم لخوفهم أنهم إن أظهروا ما في قلوبهم قتلوا، فيجب أن يكون كل محاد كذلك.

المحادة مغالبة ومعاداة:

وأيضاً، فقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ عقب قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾(٤) دليل على أن المحادة مغالبة ومعاداة، حتى يكون أحد المتحادين غالباً والآخر مغلوباً، وإنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالم، والغلبة للرسل بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب ملك عدوه، وهذا أحسن من قول من قال: إن الغلبة للمحارب بالنصر، ولغير المحارب بالحجة، فعلم أن هؤلاء المحادين محاربون مغلوبون.

---

(١)من الآية ٥ من سورة المجادلة.

(٢) ذكرنا فيما سبق بيان بمن سبوا رسول الله ﷺ وكيف أهلكوا.

(٣) من الآية ١٢٧ من سورة آل عمران.

(٤) من الآيتين ٢٠ و ٢١ من سورة المجادلة.

وأيضاً، فإن المحادة من المشاقة، لأن المحادة من الحد والفصل والبينونة ، وكذلك المشاقة من الشق وهو لهذا المعني، فهما جميعاً بمعنى المقاطعة والمفاصلة، ولهذا يقال: إنما سميت بذلك لأن كل واحد من المحادين والمتشاقين في حد وشق من الآخر، وذلك يقتضي انقطاع الحبل الذي بين أهل العهد إذا حاد بعضهم بعضاً، فلا حبل لمحاد الله ولرسوله.

وقال في الرسالة التي رواها أبو العباس أحمد بن يعقوب الإصطخري وغيره: وخير الأمة بعد النبي ﷺ أبو بكر، وعمر بعد أبي بكر، وعثمان بعد عمر، وعلي بعد عثمان، ووقف قوم، وهم خلفاء راشدون مهديون، ثم أصحاب رسول الله ﷺ بعد هؤلاء الأربعة خير الناس، لا يجوز لأحد أن يذكر شيئاً من مساويهم، ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص، فمن فعل ذلك فقد وجب تأديبه وعقوبته، ليس له أن يعفو عنه، بل يعاقبه ويستتيبه، فإن تاب قبل منه، وإن ثبت أعاد عليه العقوبة وخلده في الحبس حتى يموت أو يراجع.

وحكى الإمام أحمد هذا عمن أدركه من أهل العلم، وحكاه الكرماني عنه وعن إسحاق والحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم.

وقال الميموني: سمعت أحمد يقول: ما لهم ولمعاوية؟ نسأل العافية، وقال لي: يا أبا الحسن إذا رأيت أحداً يذكر أصحاب رسول الله ﷺ بسوء فاتهمه على الإسلام.

فقد نص ﷺ على وجوب تعزيره، واستتابته حتى يرجع، بالجلد، وإن لم ينته حبس حتى يموت أو يراجع، وقال: ما أراه على الإسلام، وقال: وأتهمه على الإسلام، وقال: أجبن عن قتله.

وقال إسحاق بن راهويه: من شتم أصحاب النبي ﷺ يعاقب ويحبس.

وهذا قول كثير من أصحابنا، منهم ابن أبي موسى، قال: ومن سب السلف من الروافض فليس بكفؤ ولا يزوج، ومن رمى عائشة رضي الله عنها بما برأها الله منه فقد مرق من الدين، ولم ينعقد له نكاح على مسلمة، إلا أن يتوب ويظهر توبته، وهذا في الجملة قول عمر بن عبد العزيز وعاصم الأحول وغيرهما من التابعين.

قال الحارث بن عتبة: إن عمر بن عبد العزيز أتى برجل سب عثمان. فقال: ما حملك على أن سببته؟ قال: وإن أبغضت رجلاً سببته؟ قال: فأمر به فجلد ثلاثين سوطاً.

وقال إبراهيم بن ميسرة، ما رأيت عمر بن عبد العزيز ضرب إنساناً قط، إلا رجلاً شتم معاوية فضربه أسواطاً.

رواهما اللالكائي، وقد تقدم عنه أنه كتب في رجل سبه: لا يقتل إلا من سب النبي ﷺ، ولكن أجلده فوق رأسه أسواطاً، ولولا أني رجوت أن ذلك خير له لم أفعل.

وروي الإمام أحمد: ثنا أبو معاوية ثنا عاصم الأحول قال: أتيت برجل قد سب عثمان، قال: فضربته عشرة أسواط، قال: ثم عاد ما قال، فضربته عشرة أخرى، قال: فلم يزل يسبه حتى ضربته سبعين سوطاً.

وهو المشهور من مذهب مالك، قال مالك: من شتم النبي ﷺ قتل، ومن سب أصحابه أدب.

وقال عبد الملك بن حبيب، من غلا من الشيعة إلى بغض عثمان والبراءة منه أدب أدباً شديداً، ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد، ويكرر ضربه، ويطال سجنه حتى يموت، ولا يبلغ به القتل إلا في سب النبي ﷺ.

وقال ابن المنذر: لا أعلم أحداً يوجب قتل من سب من بعد النبي ﷺ .

وقال القاضي أبو يعلى: الذي عليه الفقهاء في سب الصحابة: إن كان مستحلاً لذلك كفر، وإن لم يكن مستحلاً فسق ولم يكفر، سواء كفرهم أو طعن في دينهم مع إسلامهم.

وقد قطع طائفة من الفقهاء في سب الصحابة، إن كان مستحيلاً لذلك كفر، وإن لم يكن مستحيلاً فسق ولم يكفر، سواء كفرهم أو طعن في دينهم مع إسلامهم.

وقد قطع طائفة من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم بقتل من سب الصحابة وعائشة بما برأها الله منه كفر بلا خلاف، وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد، وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم.

حكم ساب عائشة:

روي عن مالك: من سب أبا بكر جلد، ومن سب عائشة قتل،قيل له: لم ؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن، لأن الله تعالى قال: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾(١).

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: سمعت القاسم بن محمد يقول

(١) من الآية ١٧ من سورة النور.

لإسماعيل بن إسحاق: أتى المأمون بالرقة برجلين شتم أحدهما فاطمة والآخر عائشة، فأمر بقتل الذي شتم فاطمة، وترك الآخر، فقال إسماعيل: ما حكمهما إلا أن يقتلا، لأن الذي شتم عائشة رد القرآن، وعلى هذا مضت سيرة أهل الفقه والعلم من أهل البيت وغيرهم.

قال أبو السائب القاضي: كنت يوماً بحضرة الحسن بن زيد الداعي بطبرستان، وكان يلبس الصوف، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ويوجه في كل سنة بعشرين ألف دينار إلى مدينة السلام يفرق على سائر ولد الصحابة، وكان بحضرته رجل فذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة، فقال: يا غلام اضرب عنقه، فقال له العلويون: هذا رجل من شيعتنا، فقال معاذ الله، هذا رجل طعن على النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾(١) فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي ﷺ خبيث، فهو كافر، فأضربوا عنقه، فضربوا عنقه وأنا حاضر، رواه اللالكائي.

وروى عن محمد بن زيد أخي الحسن بن زيد أنه قدم عليه رجل من العراق فذكر عائشة بسوء، فقام إليه بعمود فضرب به دماغه فقتله، فقيل له: هذا من شيعتنا ومن بني الآباء، فقال: هذا سمى جدي قرنان، ومن سمى جدي قرنان استحق القتل، فقتلته.

من سب غير عائشة من أمهات المؤمنين:

وأما من سب غير عائشة من أزواجه ﷺ ففيه قولان:-

(١) من الآية ١٧ من سورة النور.

أحدهما: أنه كشتم غيرهن من الصحابة على ما سيأتي.

والثاني: وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمنين فهو كقذف عائشة رضي الله عنها، وقد تقدم معنى ذلك عن ابن عباس، وذلك لأن هذا فيه عار وغضاضة على رسول الله ﷺ، وأذى له أعظم من أذاه بنكاحهن بعده، وقد تقدم التنبيه على ذلك فيما مضى عند الكلام على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(١) ، والأمر فيه ظاهر.

حكم من سب أحداً من الصحابة:

لقد أثنى الله عز وجل على أصحاب رسول الله ﷺ، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾(٣).

فمن سبهم بعد أن أثنى الله عز وجل عليهم، فهو مكذب بالقرآن، كما حذر رسول الله ﷺ من ذلك فقال: "من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"(٤).

(١) من الآية ٥٧ من سورة الأحزاب.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٣) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٤) السلسلة الصحيحة (٢٣٤٠).

وقال ﷺ: "لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه"(١).

فأما من سب أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ - من أهل بيته وغيرهم- فقد أطلق الإمام أحمد أنه يضرب ضرباً نكالاً، وتوقف عن قتله وكفره.

قال أبو بكر: سألت أحمد عمن شتم أصحاب النبي ﷺ، قال: القتل أجبن عنه، ولكن اضربه ضرباً نكالاً.

وقال عبد الله: سألت أبي عمن شتم أصحاب النبي ﷺ، قال أرى أن يضرب، قلت له: حد فلم يقف على الحد، إلا أنه قال: يضرب، وقال: ما أراه على الإسلام.

وقال: سألت أبي: مَنْ الرافضة؟ فقال: الذين يشتمون - أو يسبون - أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا جلدته حد المفترى.

وسأل رجل عليًا رضي الله عنه: نسمعك تقول في الخطبة: اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين المهديين، فمن هم؟ فاغرورقت عيناه، فقال: هما حبيباي أبو بكر وعمر، إماما الهدى، وشيخا الإسلام ورجلا قريش، والمقتدى بهما بعد رسول الله ﷺ، من اقتدى بهما عصم ومن اتبع آثارهما هدى الصراط المستقيم، ومن تمسك بهما فهو من حزب الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود في سننه والترمذي وأحمد بن حنبل.

وقال الإمام جعفر الصادق: من تبرأ من أبي بكر وعمر فأنا بريء منه، وقال: ما أرجو من شفاعة علي شيئا إلا وأنا أرجو من شفاعة أبي بكر مثله.

وقال أبو زرعة الرازي: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فاعلم أنه ذنديق، وذلك أن الرسول ﷺ حق والقرآن الكريم حق وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء الزنادقة يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة فالجرح بهم أولى.

وقال ابن حجر الهيثمي: اعلم أن الذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل مسلم تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم، والكف عن الطعن فيهم والثناء عليهم، فقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في آيات من كتابه.

لا موالاة بين المسلمين والمحادين لله ورسوله:

النبي ﷺ في قتله لذلك (١)، فثبت أن المحاد كافر حلال الدم.

وأيضاً، فقد قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين المحادين لله ورسوله والمعادين لله ورسوله، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾(٢) . وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾(٣) فعلم أنهم ليسوا من المؤمنين.

وأيضاً، فإنه قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا

---

(١) أي للمحاد.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) من الآية ١ من وسورة الممتحنة.

وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾(١) فجعل سبب استحقاقهم العذاب في الدنيا وعذاب النار في الآخرة مشاقة الله ورسوله، والمؤذي للنبي ﷺ مشاق لله ورسوله كما تقدم، والعذاب هنا هو الإهلاك بعذاب من عنده أو بأيدينا، وإلا فقد أصابهم ما دون ذلك من ذهاب الأموال وفراق الأوطان.

وقال سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾(٢) فجعل إلقاء الرعب في قلوبهم والأمر بقتلهم لأجل مشاقتهم لله ورسوله، فكل من شاق الله ورسوله يستوجب ذلك.

تفسير قولهم "هو أذن":

وقولهم: هو أذنٌ قال مجاهد: "هو أذنٌ يقولون: سنقول ما شئنا ثم نحلف له فيصدقنا.

وقال الوالبي عن ابن عباس: يعني أنه يسمع من كل أحد.

قال بعض أهل التفسير: كان منَ المنافقين مَنْ يؤذون رسول الله ﷺ ويقولون ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا، فإنما محمد أذن سامعه، فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) الآيتان ٣ و ٤ من سورة الحشر.

(٢) الآيتان ١٢ و ١٣ من سورة الأنفال.

وقال ابن إسحاق: كان نبيل بن الحارث الذي قال النبي ﷺ فيه: "من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبيل بن الحارث" ينم (١) حديث النبي إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن، من حدثه شيئاً صدقه، نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا عليه، فأنزل الله هذه الآية.

وقوله: "أذن" قالوا: ليتبينوا أن كلامهم مقبول عنده، فأخبر الله أنه لا يصدق إلا المؤمنين، وإنما يسمع الخبر فإذا حلفوا له فعفا عنهم كان ذلك لأنه أذن خير، لا لأنه صدقهم. قال سفيان بن عيينة: أذن خير يقبل منكم ما أظهرتم من الخير ومن القول، ولا يؤاخذكم بما في قلوبكم، ويدع سرائركم إلى الله تعالى، وربما تضمنت هذه الكلمة نوع استهزاء واستخفاف.

فإن قيل: فقد روي نعيم بن حماد [قال] حدثنا محمد بن ثور عن يونس عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ "اللهم لا تجعل لفاجر ولفاسق عندي يداً ولا نعمة فإني وجدت فيما أو حيته ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٢) " قال سفيان: يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان، رواه أبو أحمد العسكري، وظاهر هذا أن كل فاسق لا يبغي مودته فهو محاد لله ورسوله، مع أن هؤلاء ليسوا منافقين النفاق المبيح للدم.

قيل: المؤمن الذي يحب الله ورسوله ليس على الإطلاق بمحاد لله ورسوله، كما أنه ليس على الإطلاق بكافر ولا منافق، وإن كانت له ذنوب كثيرة، ألا ترى أن النبي ﷺ قال لنعيمان وقد جلد في الخمر غير مرة "إنه يحب الله ورسوله"

---

(١) ينم الحديث:ينقله على وجه الإفساد.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

لأنه مطلق المحادة يقتضي مطلق المقاطعة والمصارمة والمعاداة والمؤمن ليس كذلك.

اسم النفاق يقع على من ارتكب خصلة من خصاله : -

قد يقع اسم النفاق على من أتى بشعبة من شعبه، ولهذا قالوا "كفر دون كفر" و"ظلم دون ظلم" و "فسق دون فسق" . وقال النبي ﷺ "كفر بالله [من] تبرأ من نسب وإن دق" و "من حلف بغير الله فقد أشرك" و "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان" .

قال ابن أبي ملكية: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه.

فوجه هذا الحديث أن يكون النبي ﷺ عني بالفاجر المنافق، فلا ينقض الاستدلال، أو يكون عني كل فاجر، لأن الفجور مظنة النفاق، فما من فاجر إلا يخاف أن يكون فجوره صادراً عن مرض في القلب أو موجباً له فإن المعاصي بريد الكفر، فإذا أحب الفاسق فقد يكون محباً لمنافق.

من الإيمان ألا يواد من حاد الله :

فحقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر أن لا يواد من أظهر من الأفعال ما يخاف معها أن يكون محاداً لله ورسوله، فلا ينقض الاستدلال أيضاً، أو أن تكون الكبائر من شعب المحادة لله ورسوله ، فيكون مرتكبها محاداً من وجه وإن كان موالياً لله ورسوله من وجه آخر، ويناله من الذلة والكبت بقدر قسطه من المحادة، كما قال الحسن، وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لفي رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه، فالعاصي يناله من الذلة

والكبت بحسب معصيته وإن كان له من عزة الإيمان بحسب إيمانه، كما يناله من الذم والعقوبة.

وحقيقة الإيمان أن لا يواد المؤمن من حاد الله بوجه من وجوه المودة المطلقة، وقد جلبت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، فإذا اصطنع الفاجر إليه بدأ أحبه المحبة التي جبلت القلوب عليها، فيصير موادا له مع أن حقيقة الإيمان توجب مودته من ذلك الوجه وإن كان معه من أصل الإيمان ما يستوجب به أصل المودة التي تستوجب أن يخصبها دون الكافر والمنافق.

وعلى هذا فلا ينتقض الاستدلال أيضاً، لأن من أذى النبي ﷺ فإنه أظهر حقيقة المحادة ورأسها الذي يوجب جميع أنواع المحادة، فاستوجب الجزاء المطلق، وهو جزاء الكافرين، كما أن من أظهر النفاق ورأسه استوجب ذلك، وإن لم يتوجبه من أظهر شعبة من شعبه والله سبحانه أعلم.

الدليل الثاني: قوله سبحانه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (١) وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر، فالسب المقصود بطريق الأولى، وقد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جاداً أو هازلاً فقد كفر.

---

(١) الآيات ٦٤- ٦٦ من سورة التوبة.

وقد روي عن رجال من أهل العلم - منهم ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضهم في بعض، أنه قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرعب بطوناً (١)، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء.

قال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ يخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال:يا رسول الله إنما كنا نلعب ونتحدث حديث الراكب نقطع به عناء الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة لتنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٢) ما يلتفت إليه، ولا يزيده عليه.

وقال مجاهد: قال رجل من المنافقين: يحدثنا محمد ابن ناقة فلان بوادي كذا وكذا، وما يدريه ما الغيب، فأنزل الله عز وجل هذه الآية.

وقال معمر عن قتادة: بينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: أيظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها؟ فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا: فقال النبي ﷺ: "علي بهؤلاء النفر" فدعا بهم فقال: أقلتم كذا وكذا؟ فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب.

---

(١) كذا، ولعله أرغب بطوناً.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦٥.

وقال معمر: قال الكلبي: كان رجل منهم لم يماثلهم في الحدث يسير عابثاً لهم، فنزلت ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ (١) فسمى طائفة وهو واحد.

فهؤلاء لما تنقصوا النبي ﷺ حيث عابوه والعلماء من أصحابه، واستهانوا بخبره أخبر الله أنهم كفروا بذلك، وإن قالوا استهزاء، فكيف بما هو أغلظ من ذلك؟ وإنما لم يقم الحد عليهم لكون جهاد المنافقين لم يكن قد أمر به إذ ذاك، بل كان مأموراً بأن يدع أذاهم، ولأنه كان له أن يعفو عمن تنقصه وآذاه.

العبرة بعموم اللفظ:

الدليل الثالث: قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾(٢)

واللمز: العيب والطعن.

قال مجاهد: يتهمك: يزريك، وقال عطاء: يغتابك.

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾(٣)، وذلك يدل على أن كل من لمزه أو آذاه كان منهم، لأن 'الذين' و 'من' اسمان موصولان، وهما من صيغ العموم ، والآية وإن كانت نزلت بسبب لمز قوم وإيذاء آخرين فحكمها عام كسائر الآيات اللواتي نزلن على أسباب، وليس بين الناس خلاف نعلمه أنها تعم الشخص الذي نزلت بسببه ومن كان حاله كحاله، ولكن إذا كان اللفظ أعم من ذلك السبب فقد قيل: إنه يقتصر على سببه، والذي عليه جماهير الناس

(١) سورة التوبة: الآية ٦٦.

(٢) سورة التوبة، الآية ٥٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦١.

أنه يجب الأخذ بعموم القول، ما لم يقم دليل بوجوب القصر على السبب كما هو مقرر في موضعه.

وأيضاً، فإن كونه منهم حكم متعلق بلفظ مشتق من اللمز والأذى، وهو مناسب لكونه منهم، فيكون ما منه الاشتقاق هو علة لذلك الحكم، فيجب إطراده.

وأيضا، قال سبحانه وإن كان قد عم منهم النفاق قبل هذا القول، لكن لم يعلم نبيه بكل من لم يظهر نفاقه.

بل قال: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ (١) ثم إنه سبحانه ابتلى الناس بأمور تميز بين المؤمنين والمنافقين.

الإيمان أو النفاق في القلب والعمل دليل عليه:

كما قال سبحانه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ (٢) .

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ (٣) .

وذلك لأن الإيمان والنفاق أصله في القلب، وإنما الذي يظهر من القول والفعل فرع له دليل عليه، فإذا ظهر من الرجل شيء من ذلك ترتب الحكم

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠١.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ١١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٧٩.

عليه، فلما أخبر سبحانه أن الذين يلمزون النبي ﷺ والذين يؤذونه من المنافقين تثبت أن ذلك دليل على النفاق وفرع له، ومعلوم أنه إذا حصل فرع الشيء ودليله حصل أصله المدلول عليه، فثبت أنه حيثما وجد ذلك كان صاحبه منافقاً، سواء كان منافقاً قبل هذا القول أو حدث له النفاق بهذا القول.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون هذا القول دليلاً للنبي ﷺ على نفاق أولئك الأشخاص الذين قالوه في حياته بأعيانهم، وإن لم يكن دليلاً من غيره؟.

قلنا: إذا كان دليلاً للنبي ﷺ الذي يمكن أن يغنيه الله بوحيه عن الاستدلال فأن يكون دليلاً لمن لا يمكنه معرفة البواطن أولى وأحرى.

وأيضاً: لو لم تكن الدلالة مطردة في حق كل من صدر منه ذلك القول لم يكن في الآية زجر لغيرهم أن يقول مثل هذا القول، ولا كان في الآية تعظيم لذلك القول بعينه، فإن الدلالة على عين المنافق قد تكون مخصوصة بعينه، وإن كانت أمراً مباحاً، كما لو قيل: من المنافقين صاحب الجمل الأحمر وصاحب الثوب الأسود، ونحو ذلك.

فلما دل القرآن على ذم عين هذا القول والوعيد لصاحبه علم أنه لم تقصد به الدلالة على المنافقين بأعيانهم فقط، بل هو دليل على نوع من المنافقين.

وأيضاً، فإن هذا القول مناسب للنفاق، فإن لمز النبي ﷺ وآذاه لا يفعله من يعتقد أنه رسول الله حقاً، وأنه أولى به من نفسه، وأنه لا يقول إلا الحق، ولا يحكم إلا بالعدل، وأن طاعته لله، وأنه يجب على جميع الخلق تعزيزه وتوقيره، وإذا كان دليلاً على النفاق نفسه فحيثما حصل حصل النفاق.

وأيضاً، فإن هذا القول لا ريب أنه مُحرَّم، فإما أن يكون خطيئة دون الكفر

أو يكون كفراً، والأول باطل، لأن الله سبحانه قد ذكر في القرآن أنواع العصاة من الزاني والقاذف والسارق والمطفف والخائن، ولم يجعل ذلك دليلاً على نفاق معين ولا مطلق، فلما جعل أصحاب هذه الأقوال من المنافقين علم أن ذلك لكونها كفراً، لا لمجرد كونها معصية، لأن تخصيص بعض المعاصي بجعلها دليلاً على النفاق دون بعض لا يكون حتى يختص دليل النفاق بما يوجب ذلك، وإلا كان ترجيحاً بلا مرجح، فثبت أنه لابد أن يختص هذه الأقوال بوصف يوجب كونها دليلاً على النفاق، وكلما كان كذلك فهو كفر.

جعل الله أقوالهم علامة مطردة على عدم الإيمان:

وأيضاً: فإن الله كما ذكر بعض الأقوال التي جعلهم من المنافقين وهو قوله تعالى: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ (١).

قال في عقب ذلك: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾(٢) .

إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ (٣).

فجعل ذلك علامة مطردة على عدم الإيمان، وعلى الريب، مع أنه رغبة عن الجهاد مع رسول الله ﷺ بعد استنفاره، وإظهار مع القاعدة أنه معذور بالقعود، وحاصلة عدم إرادة الجهاد، فلمزه وأذاه أولى أن يكون دليلاً مطرداً، لأن الأول خذلان له، وهذا محاربة له، وهذا ظاهر.

في الآيات دليل على إخراجهم عن الإيمان:

وإذا ثبت كل من لمز النبي ﷺ أو آذاه منهم فالضمير عائد إلى المنافقين والكافرين، لأنه سبحانه لما قال: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ (٤).

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤٥، والآيتان مقدمتان لا واقعتنا عقب المذكورة قبلهما هذا.

(٤) سورة التوبة: الآية ٤١.

قال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾(١).

وهذا الضمير عائد إلى معلوم غير مذكور، وهم الذين حلفوا ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾(٢) وهؤلاء هم المنافقون بلا ريب ولا خلاف، ثم أعاد الضمير إلى قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ (٣).

فثبت أن هؤلاء الذين أضمروا كفروا بالله ورسوله، وقد جعل منهم من يلمز، ومنهم من يؤذي.

وكذلك قوله: "وما هو منكم" إخراج لهم عن الإيمان.

وقد نطق القرآن بكفر المنافقين في غير موضع، وجعلهم أسوأ حالاً من الكافرين، وأنهم في الدرك الأسفل من النار، وأنهم يوم القيامة يقولون للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ (٤) إلى قوله : ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٥).

وأمر نبيه في آخر الأمر بأن لا يصلي على أحد منهم، وأخبر أنه لن يغفر

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ٤٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٥٣- ٥٤.

(٤) سورة الحديد: الآية ١٣.

(٥) سورة الحديد: الآية ١٥.

لهم، وأمره بجهادهم والإغلاظ عليهم، وأخبر أنهم إن لم ينتهوا ليغرين الله نبيه بهم حتى (١) يقتلوا في كل موضع.

الدليل الرابع على ذلك أيضاً: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾(٢) .

اقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه في الخصومات التي بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمه، بل يسلموا لحكمه ظاهراً وباطناً.

وقال قبل ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾(٣) .

من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله فلم يقبل كان منافقاً :

بين سبحانه أن من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله فصد عن رسوله كان منافقاً.

وقال سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ

---

(١) في قوله تباركت أسماؤه: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٦٠].

(٢) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٣) سورة النساء: الآيتين: ٦٠ - ٦١.

ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾(١).

فبين سبحانه أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه فهو من المنافقين، وليس بمؤمن، وأن المؤمن هو الذي يقول: سمعنا وأطعنا.

فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره، مع أن هذا ترك محض، وقد يكون سببه قوة الشهوة، فكيف بالنقص والسب ونحوه؟

الدليل الخامس مما استدل به العلماء على ذلك: قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ (٢) ودلالتها من وجوه.

من آذى الرسول فقد آذى الله:

أحدها: أنه قرن أذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته.

فمن آذاه فقد آذى الله تعالى، وقد جاء ذلك منصوصاً عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم، يبين ذلك أن الله تعالى جعل محبة الله ورسوله وإرضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئاً واحداً.

---

(١) سورة النور: الآيات ٤٧- ٥١.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتين ٥٧ - ٥٨.

فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ (٢) في مواضع متعددة.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ (٣) فوحد الضمير.

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ (٤).

وقال أيضاً: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (٥).

وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله وأذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئاً واحداً.

فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ (٦).

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (٧).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (٨).

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤، وردت هذه الجملة في آيات كثيرة.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٦٢.

(٤) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٥) سورة الأنفال: الآية ١.

(٦) سورة الأنفال: الآية ١٣.

(٧) سورة المجادلة: الآية ٢٠.

(٨) سورة التوبة: الآية ٦٣.

وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (١).

حق الله وحق رسوله متلازمان:

وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواء، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه وأخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين والمؤمنات، فجعل على هذا أنه قد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً وجعل على ذلك اللعنة في الدنيا والآخرة وأعد له العذاب المهين، ومعلوم أن أذى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم وفيه الجلد، وليس فوق ذلك إلا الكفر والقتل.

الثالث: أنه ذكر أنه لعنهم في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً.

واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة لا يكون إلا كافراً، فإن المؤمن يقرب إليها بعض الأوقات، ولا يكون مباح الدم؛ لأن حقن الدم رحمة عظيمة من الله، فلا يثبت في حقه.

ويؤيد ذلك قوله: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ (٢).

(١) سورة النساء: الآية ١٤، ومن آيات أخر.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٦٠- ٦١.

فإن أخذهم وتقتيلهم والله أعلم بيان صفة لعنهم، وذكر لحكمه، فلا موضع له من الإعراب، وليس بحال ثانية، لأنهم إذا جاوروه ملعونين ولم يظهر أثر لعنهم في الدنيا لم يكن في ذلك وعيد لهم، بل تلك اللعنة ثابتة قبل هذا الوعيد وبعده، فلابد أن يكون هذا الأخذ والتقتيل من آثار اللعنة التي وعدوها، فيثبت في حق من لعنه الله في الدنيا والآخرة.

ويؤيده قول النبي ﷺ: "لعن المؤمن كقتله" متفق عليه، فإذا كان الله قد لعن هذا في الدنيا والآخرة فهو كقتله، فعلم أن قتله مباح.

قيل: واللعن إنما يستوجبه من هو كافر، لكن ليس هذا جيداً على الإطلاق.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ (١)

ولو كان معصوم الدم يجب على المسلمين نصره (٢)، ولكان له نصير.

يوضح ذلك أنه قد نزل في شأن ابن الأشرف، وكان من لعنته أن قتل، لأنه كان يؤذي الله ورسوله.

واعلم أنه لا يرد على هذا أنه قد أمن من لا يجوز قتله، لوجوه:

أحدها: أن هذا قيل فيه ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ (٣) .

فبين أنه سبحانه أقصاه عن رحمته في الدارين، وسائر الملعونين إنما قيل فيهم

(١) سورة النساء، الآيتين ٥١- ٥٢.

(٢) الظاهر أن يقول: لوجب على المؤمنين نصره. أو يحذف الواو من قوله: "ولكان له نصير".

(٣) سورة الأحزاب: من الآية ٥٧.

لعنة الله أو عليه لعنة الله وذلك يحصل بإقصائه عن الرحمة في وقت من الأوقات، وفرق بين من لعنه الله أو عليه لعنة مؤبدة عامة ومن لعنه لعناً مطلقاً.

الثاني: أن سائر الذين لعنهم الله في كتابه - مثل الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ومثل الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، ومثل من يقتل مؤمناً متعمداً - إما كافر أو مباح الدم، بخلاف بعض من لعن في السنة.

اللعن بصيغة الخبر غير اللعن بصيغة الدعاء:

الثالث: أن هذه الصيغة خبر عن لعنة الله لهم ولهذا عطف عليه ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (١).

وعامة الملعونين الذين لا يقتلون أو لا يكفرون إنما لعنوا بصيغة الدعاء، ثم قوله ﷺ: لعن الله من غير منار الأرض و لعن الله السارق و لعن الله آكل الربا وموكله ونحو ذلك.

لكن الذي يرد على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ (٢).

فإن هذه الآية ذكر لعنتهم في الدنيا والآخرة، مع أن مجرد القذف ليس بكفر ولا يبيح الدم.

والجواب عن هذه الآية من طريقين مجمل ومفصل:

---

(١) سورة الأحزاب: من الآية: ٥٧.

(٢) سورة النور: الآية ٢٣.

أما المجمل فهو أن قذف المؤمن المجرد هو نوع من أذاه، وإذا كان كذباً فهو بهتان عظيم.

كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾(١)

والقرآن قد نص على الفرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾(٢).

فلا يجوز أن يكون مجرد أذى المؤمنين بغير حق موجباً للعنة الله في الدنيا والآخرة وللعذاب المهين، إذ لو كان كذلك لم يفرق بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين، ولم يخصص مؤذي الله ورسوله باللعنة المذكورة، ويجعل جزاء مؤذي المؤمنين أنه احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً.

كما قال في موضع آخر: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾(٣).

كيف والعليم الحكيم إذا توعد على الخطيئة زاجراً عنها فلابد أن يذكر أقصى ما يخاف على صاحبها، فإذا ذكر خطيئتين إحداهما أكبر من الأخرى متواعداً عليهما زاجراً عنهما، ثم ذكر في إحداهما جزاء عنها، وذكر في الأخرى

(١) سورة النور: الآية ١٦.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٥٧ - ٥٨.

(٣) سورة النساء : الآية ١١٢.

ما هو دون ذلك، ثم ذكر هذه الخطيئة في موضع آخر متوعداً عليها بالعذاب الأدنى بعينه علم أن جزاء الكبرى لا يستوجب بتلك التي هي أدنى منها.

فهذا دليل يبين لك أن لعنة الله في الدنيا والآخرة وإعداده للعذاب المهين لا يستوجب مجرد القذف الذي ليس فيه أذى الله ورسوله، وهذا كاف في إطراد الدلالة وسلامتها عن النقص.

وأما الجواب المفصل فمن ثلاثة أوجه:

أحدها: أن هذه الآية في أزواج النبي ﷺ، في قول كثير من أهل العلم.

فروى هيثم بن العوام بن حوشب، ثنا شيخ من بني كاهل قال: فسر ابن عباس سورة النور، فلما أتى على هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾(١) إلى آخر الآية.

قال: هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة، وهي مبهمة ليس فيها توبة، ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة.

ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾(٢).

فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة؛ قال: فهم رجل أن يقوم فيقبل رأسه من حسن ما فسر.

وقال أبو سعيد الأشج: ثنا عبد الله بن حراش عن العوام عن سعيد بن

(١) سورة النور:الآية ٢٣.

(٢) سورة النور: الآيتان ٤- ٥.

جبير عن ابن عباس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ نزلت في عائشة رضي الله عنها خاصة، واللعنة في المنافقين عامة.

فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما نزلت فيمن يقذف عائشة وأمهات المؤمنين، لما في قذفهن من الطعن على رسول الله ﷺ وعيبه، فإن قذف المرأة أذى لزوجها كما هو أذى لابنها، لأنه نسبة له إلى الدياثة وإظهار لفساد فراشه، فإن زناء امرأته يؤذيه أذى عظيماً، ولهذا جوز له الشارع أن يقذفها إذا زنت، ودرأ الحد عنه باللعان، ولم يبح لغيره أن يقذف امرأة بحال.

ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلقه لو كان هو المقذوف، ولهذا ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المنصوصتين عنه إلى من قذف امرأة غير محصنة كالأمة والذمية ولها زوج أو ولد مُحصن حُد لقذفها، لما ألحقه من العار بولدها وزوجها المحصنين.

والرواية الأخرى عنه - وهو قول الأكثرين - إنه لا حد عليه، لأنه أذى لهما لا قذف لهما، والحد التام إنما يجب بالقذف، وفي جانب النبي ﷺ أذاه كقذفه، ومن يقصد عيب النبي ﷺ بعيب أزواجه فهو منافق، وهذا معنى قول ابن عباس: "اللعنة في المنافقين عامة".

وقد وافق ابن عباس على هذا جماعة، فروى الإمام أحمد والأشج عن خصيف قال: سألت سعيد بن جبير، فقلت: الزنا أشد أو قذف المحصنة؟

قال: لا ، بل الزنا.

قال: قلت: وإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ (١).

---

(١) سورة النور: الآية ٢٣.

فقال: إنما كان هذا في عائشة خاصة.

وروي الأشج بإسناده عن الضحاك في هذه الآية قال: هن نساء النبي ﷺ.

وقال معمر عن الكلبي: إنما عني بهذه الآية أزواج النبي ﷺ، فأما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق كما قال تعالى، أو يتوب .

ووجه هذا ما تقدم من أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف، فتكون اللام في قوله: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لتعريف المعهود، والمعهود هنا أزواج النبي ﷺ؛ لأن الكلام في قصة الإفك ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة، أو قصر اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك.

ويؤيد هذا القول أن الله سبحانه رتب هذا الوعيد على قذف محصنات غافلات مؤمنات، وقال في أول السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾(١).

فرتب الجلد ورد الشهادة والفسق على مجرد قذف المحصنات، فلابد أن تكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات، وذلك - والله أعلم - لأن أزواج النبي ﷺ مشهود لهن بالإيمان لأنهن أمهات المؤمنين وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة، وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في الغالب ظاهر الإيمان.

ولأن الله سبحانه قال في قصة عائشة: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

---

(١) سورة النور: الآية ٤.

(٢) سورة النور: الآية ١١.

فتخصيصه بتولي كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ (١).

فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف، وإنما يمس متولي كبره فقط، وقال هنا "ولهم عذاب عظيم" فعلم أنه الذي رمى أمهات المؤمنين وعيب بذلك رسول الله ﷺ وتولى كبر الإفك. وهذه صفة المنافق ابن أبي.

لا تقبل توبة من آذى النبي ﷺ:

واعلم أنه على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضاً موافقة لتلك الآية، لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ فلعن صاحبه في الدنيا والآخرة، ولهذا قال ابن عباس "ليس فيها توبة" لأن مؤذي النبي ﷺ لا تقبل توبته إذا تاب من القذف حتى يُسلم إسلاماً جديداً، وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للدم إذا قصد به أذى النبي ﷺ، أو أذاهن بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة، فإنه ما لُعِنت امرأة نبي قط.

■ ■ ■

(١) سورة النور: الآية ١٤.



الفصل الحادي عشر

حكم من سب الله تعالى



حكم من سب الله :

قال ابن تيمية رحمه الله في كتابه "الصارم المسلول على شاتم الرسول" قال: فإن كان مسلماً وجب قتله بالإجماع، لأنه بذلك كافر مرتد، وأسوأ من الكافر فإن الكافر يعظم الرب، ويعتقد أن ما هو عليه من الدين الباطل ليس باستهزاء بالله ولا مسبة له.

هل تقبل توبته؟

ثم اختلف أصحابنا وغيرهم في قبول توبته، بمعنى أنه هل يستتاب كالمرتد ويسقط عنه القتل إذا أظهر التوبة من ذلك بعد رفعه إلى السلطان وثبوت الحد عليه؟ على قولين:

أحدهما: أنه بمنزلة ساب الرسول، فيه الروايتان في ساب الرسول، هذه طريقة أبي الخطاب وأكثر من احتذى حذوه من المتأخرين، وهو الذي يدل عليه كلام الإمام أحمد حيث قال:كل من ذكر شيئاً يعرض بذكر الله تبارك وتعالى فعليه القتل، مسلماً كان أو كافراً، وهذا مذهب أهل المدينة، فأطلق وجوب القتل عليه، ولم يذكر استتابته، وذكر أنه قول أهل المدينة، ومن وجب عليه القتل يسقط بالتوبة، وقول أهل المدينة المشهور أنه لا يسقط القتل بتوبته، ولو لم يرد هذا لم يخصه بأهل المدينة، فإن الناس مجمعون على أن من سب الله تعالى من المسلمين يقتل، وإنما اختلفوا في توبته، فلما أخذ بقول أهل المدينة في المسلم كما أخذ بقولهم في الذمي علم أنه قصد محل الخلاف بإظهار التوبة بعد القدرة عليه، كما ذكرنا في ساب الرسول.

وأما الرواية الثانية فإن عبد الله (١) قال: سئل أبي عن رجل قال: يا ابن كذا وكذا أنت ومن خلقك.

قال أبي: هذا مرتد عن الإسلام.

قلت لأبي: تضرب عنقه؟

قال: نعم، نضرب عنقه، فجعله من المرتد.

والرواية الأولى: قول الليث بن سعد، وقول مالك، وروى ابن القاسم عنه قال: من سب الله تعالى من المسلمين قتل، ولم يستتب، إلا أن يكون قد افترى على الله بارتداد إلى دين دان به وأظهره فيستتاب، وإن لم يظهره لم يستتب، وهذا قول ابن القاسم، ومطرف، وعبد الملك ، وجماهير المالكية.

والثاني: أنه يستتاب وتقبل توبته بمنزلة المرتد المحض، وهذا قول القاضي أبي يعلى، والشريف أبي جعفر، وأبي علي بن البناء، وابن عقيل، مع قولهم: إن من سب الرسول لا يستتاب، وهذا قول طائفة من المدنيين: منهم محمد بن مسلمة، والمخزومي، وابن أبي حازم.

قالوا: لا يقتل المسلم بالسب حتى يستتاب، وكذلك اليهودي والنصراني، فإن تابوا قبل منهم، وإن لم يتوبوا قتلوا، ولابد من الاستتابة، وذلك كله كالردة، وهو الذي ذكره العراقيون من المالكية.

وكذلك ذكر أصحاب الشافعي ﷺ، قالوا: سب الله ردة، فإذا تاب قبلت توبته، وفرقوا بينه وبين سب الرسول على أحد الوجهين، وهذا مذهب الإمام أبي حنيفة أيضاً.

---

(١) هو عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمهما الله.

وأما من استتاب الساب لله ولرسوله فمأخذه أن ذلك من أنواع الردة، ومن فرق بين سب الله وسب الرسول قالوا: سب الله تعالى كفر محض، وهو حق لله، وتوبة من لم يصدر منه إلا مجرد الكفر الأصلي أو الطارئ مقبولة مسقطة للقتل بالإجماع.

كما أخبر النبي ﷺ عن الله عز وجل أنه قال: "شتمني ابن آدم، وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم، وما ينبغي له ذلك، فأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً، وأنا الأحد الصمد".

وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾(١).

إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ (٢).

وهو سبحانه قد علم منه أن يسقط حقه عن التائب، فإن الرجل لو أتى من الكفر والمعاصي بملء الأرض ثم تاب تاب الله عليه، وهو سبحانه لا تلحقه بالسب غضاضة ولا معرة، وإنما يعود ضرر السب على قائله، وحرمته في قلوب العباد أعظم من أن يهتكها جرأة الساب، وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الرسول. فإن السب هناك قد تعلق به حق آدمي، والعقوبة الواجبة لآدمي لا تسقط بالتوبة، والرسول تلحقه المعرة والغضاضة بالسب، فلا تقوم حرمته ولا تثبت في القلوب مكانته إلا باصطلام سابه، ولما أن هجوه وشتمه ينقص من حرمته عند كثير من الناس، ويقدح في مكانه في قلوب كثيرة، فإن لم يحفظ هذا الحمى بعقوبة المنتهك وإلا أفضى الأمر إلى الفساد.

---

(١) سورة المائدة: الآية ٧٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٤.

وهذا الفرق يتوجه بالنظر إلى أن حد سب الرسول حق لآدمي، كما يذكره كثير من الأصحاب، وبالنظر إلى أنه حق الله أيضاً، فإن ما انتهكه من حرمة الله لا ينجبر إلا بإقامة الحد، فأشبه الزاني والسارق والشارب إذا تابوا بعد القدرة عليهم.

وأيضاً، فإن سب الله ليس له داع عقلي في الغالب، وأكثر ما هو سب في نفس الأمر إنما يصدر عن اعتقاد وتدين يراد به التعظيم لا السب، ولا يقصد الساب حقيقة الإهانة لعلمه أن هذا لا يؤثر، بخلاف سب الرسول، فإنه في الغالب إنما يقصد به الإهانة والاستخفاف.

والدواعي إلى ذلك متوفرة من كل كافر ومنافق، فصار من جنس الجرائم التي تدعو إليها الطباع، فإن حدودها لا تسقط بالتوبة، بخلاف الجرائم التي لا داعي إليها.

ونكتة هذا الفرق أن خصوص سب الله تعالى ليس إليه داع غالب الأوقات، فيندرج في عموم الكفر، بخلاف سب الرسول، فإن لخصومه دواعي متوفرة، فناسب أن يشرع لخصومه حد، والحد المشروع لخصومه لا يسقط بالتوبة كسائر الحدود.

فلما اشتمل سب الرسول على خصائص - من جهة توفر الدواعي إليه، وحرص أعداء الله عليه ، وأن الحرمة تنتهك به انتهاك الحرمات بانتهاكها، وأن فيه حقاً لمخلوق تحتمت عقوبته، لا لأنه أغلظ إثماً من سب الله، بل لأن مفسدته لا تنحسم إلا بتحتم القتل.

ألا ترى أنه لا ريب أن الكفر والردة أعظم إثماً من الزنى والسرقة وقطع

الطريق وشرب الخمر، ثم الكافر والمرتد إذا تابا بعد القدرة عليهما سقطت عقوبتهما، ولو تاب أولئك الفساق بعد القدرة لم تسقط عقوبتهم.

مع أن الكفر أعظم من الفسق، ولم يدل ذلك على أن الفاسق أعظم إثماً من الكافر؟ فمن أخذ تحتم العقوبة وسقوطها من كبر الذنب وصغره فقد نأى عن مسالك الفقه والحكمة.

ويوضح ذلك أنا نقر الكفار بالذمة على أعظم الذنوب، ولا نقر واحداً منهم ولا من غيرهم على زنى ولا سرقة ولا كبير من المعاصي الموجبة للحدود.

وقد عاقب الله قوم لوط من العقوبة بما لم يعاقبه بشراً في زمنهم لأجل الفاحشة والأرض مملوءة من المشركين وهم في عافية، وقد دفن رجل قتل رجلاً على عهد النبي ﷺ مرات والأرض تلفظه في كل ذلك.

فقال النبي ﷺ : 'إن الأرض لتقبل من هو شر منه، ولكن الله أراكم هذا لتعتبروا'. ولهذا يعقاب الفاسق الملي من الهجر والإعراض والجلد وغير ذلك بما لا يعقاب به الكافر الذمي، مع أن ذلك أحسن حالاً عند الله وعندنا من الكافر.

فقد رأيت العقوبات المقدرة المشروعة تتحتم حيث تؤخر عقوبة ما هو أشد منها، وسبب ذلك أن الدنيا في الأصل ليست دار الجزاء، وإنما الجزاء يوم الدين.

يجزي الله العباد بأعمالهم: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، لكن ينزل الله سبحانه من العقاب ويشرع من الحدود بمقدار ما يزجر النفوس عما فيه فساد عام لا يخص فاعله، أو ما يطهر الفاعل من خطيئته، أو لتغلظ الجرم، أو لما يشاء سبحانه.

فالخطيئة إذا خيف أن يتعدى ضررها فاعلها لم تنحسم مادتها إلا بعقوبة فاعلها، فلما كان الكفر والردة إذا قبلت التوبة منه بعد القدرة لم تترتب على ذلك مفسدة تتعدى التائب وجب قبول التوبة، لأن أحداً لا يريد أن يكفر أو يرتد ثم إذا أخذ التوبة لعلمه أن ذلك لا يحصل مقصوده، بخلاف أهل الفسوق فإنه إذا سقطت العقوبة عنهم بالتوبة كان ذلك فتحاً لباب الفسوق، فإن الرجل يعمل ما اشتهى، ثم إذا أُخذ قال: إني تائب، وقد حصل مقصوده من الشهوة التي اقتضاها.

فكذلك سب الله هو أعظم من سب الرسول، لكن لا يخاف أن النفوس تتسرع إلى ذلك إذا استتيب فاعله وعرض على السيف، فإنه لا يصدر غالباً إلا عن اعتقاد، وليس للخلق اعتقاد ببعثهم على إظهار السب لله تعالى، وأكثر ما يكون ضجراً وبرماً وسفهاً، وروعة السيف والاستتابة تكف عن ذلك، بخلاف إظهار سب الرسول، فإن هناك دواعي متعددة تبعث عليه، متى علم صاحبها أنه إذا أظهر التوبة كف عنه لم يزغه عن مقصوده.

ومما يدل على الفرق من جهة السنة أن المشركين كانوا يسبون الله بأنواع السب، ثم لم يتوقف النبي ﷺ في قبول إسلام أحد منهم، ولا عهد بقتل واحد منهم بعينه، وقد توقف في قبول توبة من سبه مثل أبي سفيان وابن أبي أمية، وعهد بقتل من كان يسبه من الرجال والنساء - مثل الحويرث بن نقيد، والقينتين، وجارية لبني عبد المطلب، ومثل الرجال والنساء الذين أمر بقتلهم بعد الهجرة - وقد تقدم الكلام على تحقيق الفرق عند من يقول به بما هو أبسط من هذا في المسألة الثالثة.

وأما من قال: لا تقبل توبة من سب الله سبحانه وتعالى، كما لا تقبل توبة من سب الرسول فوجهه ما تقدم عن عمر رضي الله تعالى عنه من التسوية بين سب الله وسب الأنبياء في إيجاب القتل، ولم يأمر بالاستتابة، مع شهرة مذهبه في استتابة المرتد، لكن قد ذكرنا عن ابن عباس ﷺ أنه يستتاب؛ لأنه كَذّب النبي عليه الصلاة والسلام، فيحمل ذلك على السب الذي يتدين به.

وأيضاً: فإن السب ذنب منفرد عن الكفر الذي يطابق الاعتقاد، فإن الكافر يتدين بكفره ويقول: إنه حق، ويدعو إليه، وله عليه موافقون.

وليس من الكفار من يتدين بما يعتقده استخفافاً واستهزاء وسباً لله، وإن كان في الحقيقة سباً، كما أنهم لا يقولون: إنهم ضلال جهال معذبون أعداء الله، وإن كانوا كذلك.

وأما الساب فإنه مظهر للتنقص والاستخفاف والاستهانة بالله منتهك لحرمته انتهاكاً يعلم هو من نفسه أنه منتهك مستخف مستهزئ، ويعلم من نفسه أنه قد قال عظيماً، وأن السموات والأرض تكاد تنفطر من مقالته وتخر الجبال، وإن ذلك أعظم من كل كفر، وهو يعلم أن ذلك كذلك.

ولو قال بلسانه: إني كنت لا أعتقد وجود الصانع ولا عظمته، والآن قد رجعت عن ذلك علمنا أنه كاذب، فإن فطرة الخلائق كلها مجبولة على الاعتراف بوجود الصانع وتعظيمه؛ فلا شبهة تدعوه إلى هذا السب، ولا شهوة له في ذلك، بل هو مجرد سخرية واستهزاء واستهانة وتمرد على رب العالمين، تنبعث عن نفس شيطانية ممتلئة من الغضب أو من سفيه لا وقار لله عنده، كصدور قطع الطريق والزنى عن الغضب والشهوة، وإذا كان كذلك وجب أن يكون للسب

عقوبة تخصه حداً من الحدود، وحينئذ فلا تسقط تلك العقوبة بإظهار التوبة كسائر الحدود.

ومما يبين أن السب قدر زائد على الكفر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [١].

ومن المعلوم أنهم كانوا مشركين مكذبين معادين لرسوله ثم نُهي المسلمون أن يفعلوا ما يكون ذريعة إلى سبهم؛ فعلم أن سب الله أعظم عنده من أن يُشرك به ويكذب رسوله ويعادي.

فلابد له من عقوبة تختصه لما انتهكه من حرمة الله كسائر الحرمات التي تنتهكها بالفعل وأولى، فلا يجوز أن يعاقب على ذلك بدون القتل، لأن ذلك أعظم الجرائم، فلا يقابل إلا بأبلغ العقوبات.

ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [٢]، فإنها تدل على قتل من يؤذي الله كما تدل على قتل من يؤذي رسوله، والأذى المطلق إنما هو باللسان، وقد تقدم تقرير هذا.

وأيضاً؛ فإن إسقاط القتل عنه بإظهار التوبة لا يرفع مفسدة السب لله تعالى؛ فإنه لا يشاء أن يفعل ذلك ثم إذا أخذ أظهر التوبة إلا فعل كما في سائر الجرائم الفعلية.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.

وأيضاً: فإنه لم ينتقل إلى دين يريد المقام عليه حتى يكون الانتقال عنه تركاً له، وإنما فعل جريمة لا تستدام، بل هي مثل الأفعال الموجبة للعقوبات؛ فتكون العقوبة على نفس تلك الجريمة الماضية، ومثل هذا لا يستتاب عند من عاقب على ذنب مستمر من كفر أو ردة.

وأيضاً؛ فإن استتابة هذا توجب أن لا يقام حد على ساب الله.

فإنا نعلم أن ليس أحد من الناس مصراً على السب لله الذي يرى أنه سب، فإن ذلك لا يدعو إليه عقل ولا طبع، وكل ما أفضى إليه تعطيل الحدود بالكلية كان باطلاً، ولما كان استتابة الفساق بالأفعال يفضي إلى تعطيل الحدود لم يشرع مع أن أحدهم قد لا يتوب من ذلك لما يدعوه إليه طبعه، وكذلك المستتاب من سب الرسول قد لا يتوب لما يستحله من سب، فاستتابة الساب لله الذي يسارع إلى إظهار التوبة منه كل أحد أولى لا يشرع إذا تضمن تعطيل الحد، وأوجب أن تمضمض الأفواه بهتك حرمة اسم الله والاستهزاء به.

وهذا كلام فقيه، لكن يعارضه أن ما كان بهذه المثابة لا يحتاج إلى تحقيق إقامة الحد، ويكفي تعريض قائله للقتل حتى يتوب.

ولمن ينصر الأول أن يقول: تحقيق إقامة الحد على الساب لله ليس لمجرد زجر الطباع عما تهواه، بل تعظيماً لله، وإجلالاً لذكره، وإعلاء لكلمته، وضبطاً للنفوس أن تتسرع إلى الاستهانة بجنابه، وتقييداً للألسن أن تتفوه بالانتقاص لحقه.

وأيضاً؛ فإن حد سب المخلوق وقذفه لا يسقط بإظهار التوبة، فحد سب الخالق أولى.

وأيضاً؛ فحد الأفعال الموجبة للعقوبة لا تسقط بإظهار التوبة، فكذلك حد الأقوال، بل شأن الأقوال وتأثيرها أعظم.

وجماع الأمر أن كل عقوبة وجبت جزاء ونكالاً على فعل أو قول ماض فإنها لا تسقط إذا أظهرت التوبة بعد الرفع إلى السلطان؛ فسب الله أولى بذلك، ولا ينتقض هذا بتوبه الكافر والمرتد، لأن العقوبة هنا إنما هي على الاعتقاد الحاضر في الحال المستصحب من الماضي، فلا يحصل نقضاً لوجهين:

أحدهما: أن عقوبة الساب لله ليست لذنب استصحبه واستدامه، فإنه بعد انقضاء السب لم يستصحبه ولم يستدمه، وعقوبة الكافر والمرتد إنما هي الكفر الذي هو مصر عليه مقيم على اعتقاده.

الثاني: أن الكافر إنما يعاقب على اعتقاد هو الآن في قلبه، وقوله وعمله دليل على ذلك الاعتقاد، حتى لو فرض أنا علمنا أن كلمة الكفر التي قالها خرجت من غير اعتقاد لموجبها لم نكفره – بأن يكون جاهلاً بمعناها، أو مخطئاً قد غلط وسبق لسانه إليها مع قصد خلافها، ونحو ذلك.

والساب إنما يعاقب على انتهاكه لحرمة الله واستخفافه بحقه فيقتل، وإن علمنا أنه لا يستحسن السب لله ولا يعتقده ديناً؛ إذ ليس أحد من البشر يدين بذلك، ولا ينقض هذا أيضاً بتارك الصلاة والزكاة ونحوهما؛ فإنهم إنما يعاقبون على دوام الترك لهذه الفرائض، فإذا فعلوها زال الترك.

وإن شئت أن تقول: إن الكافر، والمرتد، وتاركي الفرائض يعاقبون على عدم الإيمان والفرائض، أعني على دوام هذا العدم، فإذا وجد الإيمان والفرائض امتنعت العقوبة لانقطاع العدم، وهؤلاء يعاقبون على وجود الأقوال والأفعال الكثيرة، لا على دوام وجودها، فإذا وجدت مرة لم يرتفع ذلك بالترك بعد ذلك.

وبالجملة فهذا القول له توجه وقوة، وقد تقدم أن الردة نوعان: مجردة، ومغلظة، وبسطنا هذا القول فيما تقدم في المسألة الثالثة، ولا خلاف في قبول التوبة فيما بينه وبين الله سبحانه وسقوط الإثم بالتوبة النصوح.

ومن الناس من سلك في ساب الله تعالى مسلكاً آخر، وهو أنه جعله من باب الزنديق كأحد المسلكين اللذين ذكرناهما في ساب الرسول؛ لأن وجود السب منه – مع إظهاره للإسلام – دليل على خبث سريرته، لكن هذا ضعيف، فإن الكلام هنا إنما هو في سب لا يتدين به، فأما السب الذي يتدين به – كالتثليث، ودعوى الصاحبة، والولد – فحكمه حكم أنواع الكفر، وكذلك المقالات المكفرة – مثل مقالة الجهمية، والقدرية، وغيرهم من صنوف البدع.

وإذا قبلنا توبة من سب الله سبحانه فإنه يؤدب أدباً وجيعاً حتى يردعه عن العود على مثل ذلك، هكذا ذكره بعض أصحابنا ، وهو قول أصحاب مالك في كل مرتد.

حكم الذمي إذا سب الله تعالى:

وإن كان الساب لله ذمياً فهو كما لو سب الرسول، وقد تقدم نص الإمام أحمد على أن من ذكر شيئاً يعرض بذكر الرب سبحانه فإنه يقتل، سواء كان مسلماً أو كافراً.

وكذلك أصحابنا قالوا: من ذكر الله أو كتابه أو دينه أو رسوله بسوء، فجعلوا الحكم فيه واحداً، وقالوا: الخلاف في ذكر الله، وفي ذكر النبي عليه الصلاة والسلام سواء.

وكذلك مذهب مالك وأصحابه، وكذلك أصحاب الشافعي ذكروا لمن سب الله أو رسوله أو كتابه من أهل الذمة حكماً واحداً، لكن هنا مسألتان:

المسألة الأولى

أن سب الله تعالى على قسمين:

أحدهما: أن يسبه بما لا يتدين به مما هو استهانة عند المتكلم وغيره، مثل اللعن والتقبيح ونحوه؛ فهذا هو السب الذي لا ريب فيه.

والثاني: أن يكون مما يتدين به، ويعتقده تعظيماً، ولا يراه سباً ولا انتقاصاً.

مثل قول النصراني: إن له ولداً وصاحبة، ونحوه، فهذا مما اختلف فيه إذا أظهر الذمي.

فقال القاضي وابن عقيل من أصحابنا: ينتقض به العهد كما ينتقض إذا أظهروا اعتقادهم في النبي ﷺ ، وهو مقتضى ما ذكره الشريف أبو جعفر، وأبو الخطاب، وغيرهما، فإنهم ذكروا أن ما ينقض الإيمان ينقض الذمة، ويحكي هذا عن طائفة من المالكية.

حكم من يظهر الكفر:

ووجه ذلك أنا عاهدناهم على أن لا يظهروا شيئاً من الكفر وإن كانوا يعتقدونه، فمتى أظهروا مثل ذلك فقد آذوا الله ورسوله والمؤمنين بذلك، وخالفوا العهد، فينتقض العهد بذلك كسب النبي ﷺ .

وقد تقدم عن عمر ﷺ، أنه قال للنصراني الذي كذب بالقدر: لئن عدت إلى مثل ذلك لأضربن عنقك، وقد تقدم ما تقرر ذلك.

والنصوص عن مالك أن من شتم الله من اليهود والنصارى بغير الوجه الذي كفروا به قتل ولم يستتب.

قال ابن القاسم: إلا أن يسلم تطوعاً، فلم يجعل ما يتدين به الذمي سباً، وهذا قول عامة المالكية، وهو مذهب الشافعي، ذكره أصحابه وهو منصوصه، قال في "الأم" في تحديد الإمام ما يأخذه من أهل الذمة: وعلى أن لا يذكروا رسول الله ﷺ إلا بما هو أهله، ولا يطعنوا في دين الإسلام، ولا يعيبوا من حكمه شيئاً، فإن فعلوه فلا ذمة لهم، ويأخذ عليهم أن لا يسمعوا المسلمين شكرهم وقولهم في عزير وعيسى، فإن وجودهم فعلوا بعد التقدم في عزير وعيسى إليهم عاقبهم على ذلك عقوبة لا يبلغ بها حداً؛ لأنهم قد أذن بإقرارهم على دينهم مع علم ما يقولون.

وهذا ظاهر كلام الإمام أحمد، لأنه سئل عن يهودي مر بمؤذن فقال له: "كذبت". فقال: يقتل، لأنه شتم.

فعلل قتله بأنه شتم، فعلم أن ما يظهره من دينه الذي ليس بشتم ليس كذلك.

قال ﷺ: من ذكر شيئاً يعرض بذكر الرب تعالى فعليه القتل، مسلماً كان أو كافراً، وهذا مذهب أهل المدينة، وإنما مذهب أهل المدينة فيما هو سب عند

القائل، وذلك أن هذا القسم ليس من باب السب والشتم الذي يلحق بسب الله وسب النبي عليه الصلاة والسلام، لأن الكافر لا يقول هذا طعناً ولا عيباً، وإنما يعتقده تعظيماً وإجلالاً، وليس هو ولا أحد من الخلق يتدين بسب الله تعالى.

بخلاف ما يقال في حق النبي ﷺ من السوء، فإنه لا يقال إلا طعناً وعيباً، وذلك أن الكافر يتدين بكثير من تعظيم الله، وليس يتدين بشيء من تعظيم الرسول، ألا ترى أنه إذا قال: "محمد عليه الصلاة والسلام ساحر أو شاعر" فهو يقول: إن هذا نقض وعيب.

وإذا قال: "إن المسيح أو عزيرا ابن الله" فليس يقول: إن هذا عيب ونقض، وإن كان هذا عيباً ونقضاً في الحقيقة، وفرق بين قول يقصد به قائله العيب والنقض وقول لا يقصد به ذلك، ولا يجوز أن يجعل قولهم في الله كقولهم في الرسول بحيث يجعل الجميع نقضاً للعهد، إذ يفرق في الجميع بين ما يعتقدونه وبين ما لا يعتقدونه، لأن قولهم في الرسول كله طعن في الدين، وغضاضة على الإسلام، وإظهاره لعداوة المسلمين يقصدون به عيب الرسول ونقصه، وليس مجرد قولهم الذي يعتقدونه في الله مما يقصدون به عيب الله ونقصه.

ألا ترى أن قريشاً كانت تقار النبي عليه الصلاة والسلام على ما كان يقوله من التوحيد وعبادة الله وحده، ولا يقارونه على عيب آلهتهم والطعن في دينهم وذم آبائهم، وقد نهى الله المسلمين أن يسبوا الأوثان لئلا يسب المشركون الله، مع كونهم لم يزالوا على الشرك، فعلم أن محذور سب الله أغلظ من محذور الكفر به، فلا يجعل حكمهما واحداً.

المسألة الثانية

في استتابة هذا الذمي من هذا، وقبول توبته

أقوال العلماء في توبة الذمي:

أما القاضي وجمهور أصحابه- مثل الشريف وابن البناء وابن عقيل ومن تبعهم – فإنهم يقبلون توبته، ويسقطون عنه القتل بها، وهذا ظاهر على أصلهم فإنهم يقبلون توبة المسلم إذا سب الله، فتوبة الذمي أولى، وهذا هو المعروف من مذهب الشافعي، وعليه يدل عموم كلامه حيث قال في شروط أهل الذمة: وعلى أن أحداً منكم إن ذكر محمداً ﷺ أو كتاب الله ودينه بما لا ينبغي فقد برئت منه ذمة الله.

ثم قال وأيهم قال أو فعل شيئاً مما وصفه نقضاً للعهد وأسلم لم يقتل إذا كان قولاً، إلا أنه لم يصرح بالسب لله، فقد يكون عني إذا ذكروا ما يعتقدونه، وكذلك قال ابن القاسم وغيره من المالكية: إنه يقتل إلا أن يسلم.

وقال ابن مسلمة وابن أبي حازم والمخزومي: إنه لا يقتل حتى يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، والمنصوص عن مالك أنه يقتل ولا يستتاب كما تقدم، وهذا معنى قول أحمد ﷺ في إحدى الروايتين.

قال في رواية حنبل: من ذكر شيئاً يعرض بذكر الرب فعليه القتل مسلماً كان أو كافراً، وهذا مذهب أهل المدينة، وظاهر هذه العبارة أن القتل لا يسقط عنه بالتوبة كما لا يسقط القتل عن المسلم بالتوبة، فإنه قال مثل هذه العبارة في شتم النبي ﷺ في رواية حنبل.

أيضا قال: كل من شتم النبي ﷺ مسلماً كان أو كافراً فعليه القتل، وكان حنبل يعرض عليه مسائل المدنيين ويسأله عنها.

ثم إن أصحابنا فسروا قوله في شاتم النبي عليه الصلاة والسلام بأنه لا يسقط عنه القتل بالتوبة مطلقاً وقد تقدم توجيه ذلك، وهذا مثله، وهذا ظاهر إذا قلنا إن المسلم الذي يسب الله لا يسقط عنه القتل؛ بالتوبة؛ لأن المأخذ عندنا ليس هو الزندقة، فإنه لو أظهر كفراً غير السب استتبناه، وإنما المأخذ أن يقتل عقوبة على ذلك وحداً عليه، مع كونه كافراً يقتل لسائر الأفعال.

سب الله على ثلاثة منازل:

ويظهر الحكم في المسألة بأن يرتب هذا السب ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن من شأن السب بما يتدين به وليس فيه سب لدين الإسلام، إلا أنه سب عند الله تعالى، مثل قول النصارى في عيسى ونحو ذلك.

فقد قال الله تعالى فيما يرويه عنه رسوله: "شتمني ابن آدم، وما ينبغي له ذلك".

ثم قال: "وأما شتمه إياي فقوله إني اتخذت ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد" فهذا القسم حكمه سائر أنواع الكفر، سميت شتماً أو لم تُسمَّ، وقد ذكرنا الخلاف في انتقاض العهد بإظهار مثل هذا، وإذا قيل بانتقاض العهد به فسقوط القتل عنه بالإسلام متوجه، وهو في الجملة قول الجمهور.

المرتبة الثانية: أن يذكر ما يتدين به، وهو سب لدين المسلمين وطعن عليهم، كقول اليهودي للمؤذن "كذبت" وكرد النصراني على عمر رضي الله عنه وكما لو

عاب شيئاً من أحكام الله أو كتابه، ونحو ذلك، فهذا حكمه حكم سب الرسول في انتقاض العهد به، وهذا القسم هو الذي عناه الفقهاء في نواقض العهد، حيث قالوا: إذا ذكر الله أو كتابه أو رسوله أو دينه بسوء، ولذلك اقتصر كثير منهم على قوله: أو ذكر كتاب الله أو دينه أو رسوله بسوء.

وأما سقوط القتل عنه بالإسلام فهو كسب الرسول إلا أن في ذلك حقاً لآدمي، فمن سلك ذلك المسلك في سب الرسول فرق بينه وبين هذا، وهي طريقة القاضي وأكثر أصحابه، ومن قتله لما في ذلك من الجناية على الإسلام وأنه محارب لله ورسوله فإنه يقتل بكل حال، وهو مقتضى أكثر الأدلة التي تقدم ذكرها.

المرتبة الثالثة: أن يسبه بما يتدين به، بل هو محرم في دينه كما هو محرم في دين الله تعالى، كاللعن والتقبيح ونحو ذلك، فهذا النوع لا يظهر بينه وبين سب المسلم فرق، بل ربما كان فيه أشد؛ لأنه يعتقد تحريم مثل هذا الكلام في دينه كما يعتقد المسلمون تحريمه، وقد عاهدناه على أن نقيم عليه الحد فيما يعتقد تحريمه، فإسلامه لم يجدد له اعتقاداً لتحريمه بل هو فيه كالذمي إذا زنى أو قتل أو سرق ثم أسلم سواء، ثم هو مع ذلك مما يؤذي المسلمين كسب الرسول بل هو أشد، فإذا قلنا لا تقبل توبة المسلم من سب الله فأن نقول لا تقبل توبة الذمي أولى، بخلاف الرسول، فإنه يتدين بتقبيح من يعتقد كذبه، ولا يتدين بتقبيح خالقه الذي يقر أنه خالقه، وقد يكون من هذا الوجه أولى بأن لا يسقط عنه القتل ممن سب الرسول، ولهذا لم يذكر عن مالك نفسه وأحمد استثناء فيمن سب الله تعالى كما ذكر عنهما الاستثناء لمن سب الرسول، وإن كان كثير من أصحابهما يرون

الأمر بالعكس، وإنما قصدا هذا الضرب من السب، ولهذا قرنا بين المسلم والكافر، فلابد أن يكون سباً منهما، وأشبه شيء بهذا الضرب من الأفعال زناه بمسلمة فإنه محرم في دينه مضر بالمسلمين، فإذا أسلم لم يسقط عنه، بل إما أن يقتل أو يجد حد الزنى.

كذلك سب الله تعالى، حتى لو فرض أن هذا الكلام لا ينقض العهد لوجب أن يقام عليه حده، لأن كل أمر يعتقده محرماً فإنا نقيم عليه فيه حد الله الذي شرعه في دين الإسلام وإن لم يعلم مأخذه في كتابه مع أن الأغلب على القلب أن أهل الملل كلهم يقتلون على مثل هذا الكلام كما أن حده في دين الله القتل، ألا ترى أن النبي ﷺ لما أقام على الزاني منهم حد الزنا قال: "اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه"، ومعلوم أن ذلك الزاني منهم لم يكن يسقط عنه لو أسلم، فإقامة الحد على من سب الرب تبارك وتعالى سباً هو سب في دين الله ودينهم عظيم عند الله وعندهم أولى أن يحيا فيه أمر الله ويقام عليه حد.

وهذا القسم قد اختلف الفقهاء فيه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الذمي يستتاب منه كما يستتاب المسلم منه، هذا قول طائفة من المدنيين كما تقدم، وكأن هؤلاء لم يروه نقضاً للعهد، لأن ناقض العهد يقتل كما يقتل المحارب، ولا معنى لاستتابة الكافر الأصلي المحارب، وإنما رأوا حده القتل فجعلوه كالمسلم، وهم يستتيبون المسلم، فكذلك يستتاب الذمي، وعلى قول هؤلاء فالأشبه أن استتابته من السب لا تحتاج إلى إسلامه، بل تقبل توبته مع بقائه على دينه.

القول الثاني: أنه لا يستتاب، لكن إن أسلم لم يقتل، وهذا قول ابن ا لقاسم

وغيره، وهو قول الشافعي، وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وعلى طريقة القاضي لم يذكر فيه خلاف، بناء على أنه قد نقض عهده، فلا يحتاج قتله إلى استتابة، لكن إذا أسلم سقط عنه القتل كالحربي.

القول الثالث: أنه يقتل بكل حال، وهو ظاهر كلام مالك وأحمد؛ لأن قتله وجب على جُرم محرم في دين الله وفي دينه، فلم يسقط عنه بموجبه بالإسلام، كعقوبته على الزنى والسرقة والشرب، وهذا القول هو الذي يدل عليه أكثر الأدلة المتقدم ذكرها.

حقيقة السب:

السب الذي ذكرنا حكمه من المسلم هو: الكلام الذي يقصد به الانتقاص، والاستخفاف، وهو ما يُفهم منه السب في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم، كاللعن، والتقبيح، ونحوه، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (١)

فهذا أعظم ما تفوه به الألسنة، فأما ما كان سباً في الحقيقة والحكم، لكن من الناس من يعتقده ديناً،و يراه صواباً وحقاً، ويظن أن ليس فيه انتقاص ولا تعييب؛ فهذا نوع من الكفر، حكم صاحبه إما حكم المرتد المظهر للردة أو المنافق المبطن للنفاق، والكلام في الكلام الذي يكفر به صاحبه أو لا يكفر، وتفصيل الاعتقادات وما يوجب منها الكفر أو البدعة فقط أو ما اختلف فيه من ذلك ليس هذا موضعه وإنما الغرض أن لا يدخل هذا في قسم السب الذي تكلمنا في استتابة صاحبه نفياً وإثباتاً، والله أعلم.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

حكم من سب موصوفاً أو مسمى باسم يقع على الله أو بعض رسله:

فإن سب موصوفاً بوصف أو مسمى باسم، وذلك يقع على الله سبحانه أو بعض رسله خصوصاً أو عموماً، لكن قد ظهر أنه لم يقصد ذلك: إما لاعتقاده أن الوصف أو الاسم لا يقع عليه، أو لأنه وإن كان يعتقد وقوعه عليه لكن ظهر أنه لم يرده لكون الاسم في الغالب لا يقصد به ذلك بل غيره؛ لهذا القول وشبهه حرام في الجملة، يستتاب صاحبه منه إن لم يعلم أنه حرام، ويعزر مع العلم تعزيراً بليغاً، لكن لا يكفر بذلك ولا يقتل إن كان يُخَاف عليه الكفر.

من يسب الدهر:

مثال الأول: أن يسب الدهر الذي فرق بينه وبين الأحبة، أو الزمان الذي أحوجه إلى الناس، أو الوقت الذي أبلاه بمعاشرة من ينكد عليه، ونحو ذلك مما يكثر الناس قوله نظماً ونثراً؛ فإنه إنما يقصد أن يسب من يفعل ذلك به، ثم إنه يعتقد أو يقول إن فاعل ذلك هو الدهر الذي هو الزمان فيسبه، وفاعل ذلك إنما هو الله سبحانه، فيقع السب عليه من حيث لم يعتمده المرء، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: "لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر بيده الأمر".

وقوله فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، يقول: "يا ابن آدم تسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار":

فقد نهى رسول الله ﷺ عن هذا القول وحرمه، ولم يذكر كفراً ولا قتلاً، والقول المحرم يقتضي التعزير والتنكيل.

ومثال الثاني: أن يسب مسمى باسم عام يندرج فيه الأنبياء وغيرهم، لكن يظهر أنه لم يقصد الأنبياء من ذلك العام، مثل ما نقل الكرماني. قال: سألت

أحمد قلت: رجل افترى على رجل فقال: يا ابن كذا وكذا إلى آدم وحواء، فعظم ذلك جداً، وقال: نسأل الله العافية، لقد أتى هذا عظيماً،و سئل عن الحد فيه فقال: لم يبلغني في هذا شيء، وذهب إلى حد واحدٍ.

وذكر هذا أبو بكر عبد العزيز أيضاً، فلم يجعل أحمد ﷺ بهذا القول كافراً، مع أن هذا اللفظ يدخل فيه نوح، وإدريس، وشيث، وغيرهم من النبيين؛ لأن الرجل لم يدخل آدم وحواء في عمومه، وإنما جعلهما غاية وحداً لمن قذفه، و إلا لو كانا من المقذوفين تعين قتله بلا ريب.

ومثل هذا العموم في مثل هذا الحال لا يكاد يقصد به صاحبه من يدخل فيه من الأنبياء، فعَظم الإمام أحمد ذلك، لأن أحسن أحواله أن يكون قد قذف خلقاً من المؤمنين، ولم يوجب إلا حداً واحداً؛ لأن الحد هنا ثبت للحي ابتداء على أصله، وهو واحد، وهذا قول أكثر المالكية في مثل ذلك.

وقال سحنون وأصبغ وغيرهما في رجل قال له غريمه: صلى الله على النبي محمد.

فقال له الطالب: لا صلى الله على من صلى عليه.

قال سحنون: ليس هو كمن شتم رسول الله ﷺ أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه إذا كان على ما وصف من الغضب، لأنه إنما شتم الناس.

وقال أصبغ وغيره: لا يقتل، إنما شتم الناس، وكذلك قال ابن أبي زيد فيمن قال: لعن الله العرب، ولعن الله بني إسرائيل، ولعن الله بني آدم، وذكر أنه لم يرد الأنبياء، وإنما أراد الظالمين منهم: إن عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان.

وذهب طائفة - منهم الحارث بن مسكين وغيره - إلى القتل في مسألة المصلي ونحوها.

وكذلك قال أبو موسى بن مياس فيمن قال: لعنه الله إلى آدم إنه يقتل، وهذه مسألة الكرماني بعينها، وهذا قياس أحد الوجهين لأصحابنا فيمن قال: عصيت الله في كل ما أمرني به؛ فإن أكثر أصحابنا قالوا: ليس ذلك بيمين؛ لأنه إنما التزم المعصية؛ فهو كما لو قال: محوت المصحف، أو شربت الخمر إن فعلت كذا، ولم يظهر قصد إرادة الكفر من هذه العموم، لأنه لو أراده لذكره باسمه الخاص، ولم يكتف بالاسم الذي يشركه فيه جميع المعاصي.

ومنهم من قال: هو يمين؛ لأن مما أمره الله به الإيمان، ومعصيته فيه كفر، ولو التزم الكفر بيمينه بأن قال: هو يهودي أو نصراني، أو هو بريء من الله أو من الإسلام، أو هو يستحل الخمر والخنزير، أو لا يراه الله في مكان كذا إن فعل كذا، ونحوه، كان يميناً في المشهور عنه، ووجه هذا القول أن اللفظ عام، فلا يقبل منه دعوى الخصوص، ولعل من يختار هذا يحمل كلام الإمام أحمد على أن القائل كان جاهلاً بأن في النسب أنبياء.

ووجه الأول: أن أبا بكر ﷺ كتب إلى المهاجر بن أبي أمية في المرأة التي كانت تهجو المسلمين يلومه على قطع يدها، ويذكر له أنه كان الواجب أن يعاقبها بالضرب، مع أن الأنبياء يدخلون في عموم هذا اللفظ، ولأن الألفاظ العامة قد كثرت، وغلب إرادة الخصوص بها.

فإذا كان اللفظ لفظ سب وقذف، وللأنبياء ونحوهم من الخصائص والمزايا ما يوجب ذكرهم بأخص أسمائهم إذا أريد ذكرهم، والغضب يحمل الإنسان

على التجوز في القول والتوسع فيه، كان ذلك قرائن - عرفية، ولفظية، وحالية - في أنه لم يقصد دخولهم في العموم، لا سيما إذا كان دخول ذلك الفرد في العموم لا يكاد يشعر به.

ويؤيد هذا أن يهودياً قال في عهد النبي ﷺ: والذي اصطفى موسى على العالمين فلطمه المسلم حتى اشتكاه إلى ر سول الله ﷺ، ونهى رسول الله ﷺ عن تفضيله على موسى، لما فيه من انتقاص المفضول بعينه والغض منه.

ولو أن اليهودي أظهر القول بأن موسى أفضل من محمد لوجب التعزير عليه إجماعاً، بالقتل أو بغيره، كما تقدم التنبيه عليه.

حكم سب الأنبياء:

والحكم في سب سائر الأنبياء كالحكم في سب نبينا، فمن سب نبياً مسمى باسمه من الأنبياء المعروفين المذكورين في القرآن أو موصوفاً بالنبوة - مثل أن يذكر في حديث أن نبياً فعل كذا أو قال كذا، فيسب ذلك القائل أو الفاعل، مع العلم بأنه نبي، وإن لم يعلم من هو، أو يسب نوع الأنبياء على الإطلاق - فالحكم في هذا كما تقدم؛ لأن الإيمان بهم واجب عموماً، وواجب الإيمان خصوصاً بمن قصه الله علينا في كتابه، وسبهم كفر وردة إن كان من مسلم، ومحاربة إن كان من ذمي.

وقد تقدم في الأدلة الماضية ما يدل على ذلك بعمومه لفظاً أو معنى، وما أعلم أحداً فرق بينهما، وإن كان أكثر كلام الفقهاء إنما فيه ذكر من سب نبينا، فإنما ذلك لمسيس الحاجة إليه، وأنه وجب التصديق له، والطاعة له جملة وتفصيلاً، ولا ريب أن جرم سابه أعظم من جرم ساب غيره، كما أن حرمته

أعظم من حرمة غيره، وإن شاركه سائر إخوانه من النبيين والمرسلين في أن سابهم كافر حلال الدم.

فأما إن سب نبياً غير معتقد لنبوته فإنه يستتاب من ذلك، إذا كان ممن علمت نبوته بالكتاب والسنة، لأن هذا جحد لنبوته، إن كان ممن يجهل أنه نبي فإنه سب محض، فلا يقبل قوله: إني لم أعلم أنه نبي.

■ ■ ■

المراجع والمصادر

١- أبو داود، سليمان الجستاني، السنن ، نشر محمد علي السيد، حمص، ١٩٦٩م.

٢- أبو زيد، بكر بن عبد الله: الرد على المخالف، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض.

٣- أبو عالي، سعيد عطية: الإسلام والغرب حوار لا صراع، كتيب المجلة العربية، الرياض، العدد الأول، محرم ١٤١٨هـ.

٤- أبو المجد، أحمد كمال: الاتجاه إلى حوار إسلامي غربي، جريدة الحياة: الجمعة ٢١ مارس ١٩٩٧م.

٥- الأصبهاني، أبو القاسم محمد : المفردات في غريب القرآن،دار المعرفة، بيروت، ١٩٦١م.

٦- الألمعي : زاهر عواض: منهاج الجدل في القرآن الكريم، مطابع الفرزدق، الرياض (د. ت).

٧- الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف، رسالةراهب فرنسا، دراسة وتحقيق محمد عبد الله الشرقاوي، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٦هـ ، ١٩٨٦م.

٨- بادحدح، علي: مقومات الداعية الناجح، مؤسسة الرسالة، الرياض(د.ت).

٩- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ط٥، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٦هـ.

١٠- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، مطبعة المدني، الرياض (د. ت).

١١- ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، ت: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٩هـ.

١٢- ابن تيمية: الصارم المسلول على شاتم الرسول.

١٣- ابن حميد، صالح: آداب الحوار، مطابع جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٠هـ.

١٤- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ط ١، دار الكتب العلمية.د.ت.

١٥- ابن القيم، محمد بن أبي بكر: بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت ، (د.ت).

١٦- ابن القيم، محمد بن أبي بكر: زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة. بيروت، ط ٢.

١٧- ابن كثير، إسماعيل الدمشقي: البداية والنهاية ،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٠٥هـ.

١٨- ابن كثير، إسماعيل الدمشقي: تفسير القرآن العظيم ، ط دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٨٠م.

١٩- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني: السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة، بيروت، (د.ت).

٢٠- ابن مالك، أبو عبد الله: شرح ابن عقيل، جـ ٤، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر، ١٣٨٦هـ.

٢١- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد: لسان العرب، ط دار لسان العرب،بيروت (د.ت).

٢٢- ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية، تحقيق عمر تدمري، دار الريان، القاهرة، ١٤٠٧هـ.

٢٣- البيانوني، عبد المجيد، ضرب الأمثال في القرآن، أهدافه التربوية وآثاره، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤١١هـ.

٢٤- البيروني، محمد: تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة، ط بيروت، (د.ت)

٢٥- الترمذي، محمد بن عيسى: السنن، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م.

٢٦- التونسي، محمد خليفة، بروتوكولات حكماء صهيون، دار القاهرة للطباعة، نشر كتب سياسية، ١٩٥٧م.

٢٧- جارودي، روجيه: من أجل الحوار بين الحضارات، تعريب: ذوقان قرقوط، دار النفائس، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٨- جارودي، روجيه: ما بعد الإسلام ترجمة: أقاصي أتاس وميشيل واكيم جا، دار الوثبة، دمشق ١٩٨٣م.

٢٩ – الجرجاني، عبد القاهر: أسرار البلاغة، ط٤، دار المنار بمصر، القاهرة، ١٩٤٠م.

٣٠- الجرجاني، عبد القاهر: التعريفات، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧.

٣١- جريشة، علي: أدب الحوار والمناظرة، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٣٢- جورافسكي ، أليسكي: الإسلام والمسيحية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦م.

٣٣- الجوهري، إسماعيل بن حماد: الصحاح، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٤هـ

٣٤- الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الملك: شفاء العليل في بيان ما وقع من التوراة والإنجيل من التبديل، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٣، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٣٥- حاتم، عبد القادر: الإعلام في القرآن الكريم، توزيع دار قتيبة، بيروت، ١٩٨٥م.

٣٦- حبيب، راكان عبد الكريم: طريق الخطابة والإلقاء، مكتبة دار جدة، ١٩٩٥.

٣٧- الحبيب، طارق بن علي: كيف تحاور، دار المسلم بالرياض، ١٩٩٤.

٣٨- حجازي، محمد محمود: التفسير الواضح، المجلد الأول، جـ ١٢، طبعة القاهرة، (د.ت).

٣٩- الحربي، علي بن جابر: منهج الدعوة النبوية في المرحلة المكية: الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٦م.

٤٠- حسين، محمد محمد: الإسلام والحضارة الغربية، دار الإشارة، بيروت، ١٩٦٩م.

٤١- دروزة، محمد عزة: القرآن والملحدون، المكتب الإسلام، دمشق، ١٩٧٨م.

٤٢- درويش، محمد طاهر: الخطابة في صدر الإسلام، دار المعارف بمصر، ١٩٦١م.

٤٣- الذهبى، شمس الدين محمد بن أحمد: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ، ١٩٨١.

٤٤- الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، ط٣، بيروت (د.ت).

٤٥- الرازي: فخر الدين محمد: مفاتيح الغيب، ط١، مطبعة الإمام بمصر، ١٣٠٨هـ.

٤٦- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

٤٧- الراعي، توفيق : الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، دار الفكر، القاهرة، (د.ت).

٤٨- الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن، المكتبة التجارية بالقاهرة، ١٣٨٩هـ.

٤٩- الرفاعي، حامد أحمد: الإسلام والنظام العالمي الجديد، كتاب دعوة الحق، رقم ١٤٦، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، صفر ١٤١٥هـ.

٥٠- زقزق، محمود حمدي: الإسلام في الفكر الغربي، دار ابن القيم، ط٢، الكويت، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١.

٥١- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: أساس البلاغة، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٣م.

٥٢- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: الكشاف، مطبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م.

٥٣- زمزمي، يحيى محمد: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، ط دار التربية، مكة المكرمة ، ١٤١٤هـ.

٥٤- الزنداني، عبد المجيد، وآخرون: الإيمان، ط٥، دار العلم، دمشق، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧.

٥٥- زيدان: عبد الكريم: أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية، القاهرة، ١٣٩٦هـ.

٥٦- زين العابدين، محمد سرور، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، ط٣، دار الأرقم، الكويت، ١٩٨٨م.

٥٧- سابق، سيد: دعوة الإسلام ، دار الفكر ، بيروت، ١٩٧٨.

٥٨- السايح، أحمد عبد الرحيم: أضواء على الحضارة الإسلامية، ط دار اللواء بالرياض، ١٤٠١هـ.

٥٩- السايح، أحمد عبد الرحيم، الحوار الحضاري ضرورة إنسانية، مجلة الدارة السعودية، دارة الملك عبد العزيز، العدد الرابع السنة العشرون، رمضان ١٤١٥هـ.

٦٠- السايح، أحمد عبد الرحيم، هذا هو الإسلام (سماته وحاجة الإنسانية إليه)، دار الثقافة، الدوحة، (د.ت).

٦١- السايس، محمد علي: نشأة الفقه الاجتهادي وأطواره، مطبعة الأزهر، القاهرة، ١٩٦٧م.

٦٢- السعد، عبد الرحمن: القواعد الحسان لتفسير القرآن، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٢هـ.

٦٣- السقا، أحمد حجازي: المناظرة الحديثة في علم الأديان بين الشيخ ديدات والقس سوجارت، تقديم الشيخ محمد الغزالي، مكتبة زهران، القاهرة، (د.ت).

٦٤- سلهب، نصري: لقاء المسيحية والإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٠م.

٦٥- سليمان، وليم: الحوار بين الأديان، تقديم: عبد العزيز كامل، القاهرة (د.ت).

٦٦- السيوطي: جلال الدين : الإتقان في علوم القرآن، ط٣، مكتبة بابي الحلبي، القاهرة ، ١٣٧١هـ.

٦٧- الشاطبي، إبراهيم بن موسى: الاعتصام، جـ ٢، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر ،د.ت.

٦٨- شاهين، سيف الدين: أدب الحوار في الإسلام، راسم للدعاية والإعلان، جدة، ١٤١٣هـ.

٦٩- شديد، محمد: منهج ا لقصة في القرآن، دار عكاظ، جدة، ١٤٠٤هـ.

٧٠- شفيق، منير: قضايا التنمية والاستقلال في الصراع الحضاري، ط٢، دار الناشر، بيروت، ١٩٩٢م.

٧١- الشكعة، مصطفى: معالم الحضارة الإسلامية، ط دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).

٧٢- الشنقيطي، محمد الأمين: آداب البحث والمناظرة، دار ابن تيمية للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

٧٣- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد:فتح القدير، دار الفكر للطباعة والنشر، القاهرة ، (د.ت).

٧٤- الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٥٦م.

٧٥- صليباً، جميل: تاريخ الفلسفة العربية ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٦م.

٧٦- الطبري، أبو جعفر بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٧٧- طرازي، فيليب: خزائن الكتب العربية في الخافقين، جـ ١، ط بيروت، (د.ت).

٧٨- طهماز، عبد الحميد محمود، بصائر الحق في سورة الأنعام، دار القلم، دمشق، (د.ت).

٧٩- الطويل، توفيق: الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية، مكتبة التراث الإسلامي، مصر ١٩٩٠.

٨٠- عابد، سناء محمود عبد الله: الحوار في القرآن ، رسالة دكتوراه، غير منشورة كلية التربية للبنات بجدة، وكالة الرئاسة العامة للبنات، ١٤٢٠هـ.

٨١- عبد الرحمن، أحمد، وآخرون: الإسلام والعولمة، مؤتمر عن العولمة والصراع بين الإسلام والغرب، القاهرة، ١٩٩٩م.

٨٢- عبد المقصود عبد الفتاح: صليبية إلى الأبد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥.

٨٣- عرجون، محمد صادق : القرآن الكريم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ط٢، دار القلم، دمشق ١٩٨٩م.

٨٤- العسقلاني، الحافظ شهاب الدين بن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، القاهرة، طبع ونشر الحلبي، ١٩٥٩م.

٨٥- العلواني، طه جابر فياض: أدب الاختلاف في الإسلام، ط١، مطابع الدوحة الحديثة، قطر، ١٤٠٥هـ.

٨٦- عمارة، محمد: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، طبعة مجلة الأزهر، ١٩٨٨م.

٨٧- عوامة، محمد: صفحات من أدب الرأي، ط١، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ١٤١٢هـ.

٨٨- عوض، أحمد عبده: الإسلام والبعث الحضاري، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٨٩- عوض، أحمد عبده: العقيدة والسلوك والانفصام بينهما، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢.

٩٠- الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، المكتبة العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٩١- الغزالي، أبو حامد: المنقذ من الضلال، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.

٩٢- الغزالي، محمد: علل وأدوية، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٩٢م.

٩٣- غزال، مطصفى فوزي: دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

٩٤- غلوش، أحمد: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها دار الكتاب المصري ١٩٧٩م.

٩٥- فريد، أحمد: البحر الرائق في الزهد والرقائق، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت).

٩٦- الفيروز آبادلي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ.

٩٧- القاسم، خالد بن عبد الله: الحوار مع أهل الكتاب، أسسه ومناهجه، دار المسلم، الرياض، ١٤١٤هـ.

٩٨- القرضاوي، يوسف: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ط١، مؤسسة الرسالة، ط بيروت، ١٩٨٣م.

٩٩ – القرطبي، أبو عبد الله أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، ب يروت، ١٩٥٦م.

١٠٠ – القطان، مناع: مباحث في علوم القرآن، مؤسسة الرسالة، الرياض، ١٤٠٦هـ.

١٠١- قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٤م.

١٠٢- كونر، بول: العثمانيون في أوروبا، تقديم: عبد الوهاب المسيري وآخر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠٥هـ.

١٠٣- كويلرنج، ت: الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته، ت: عبد الرحمن محمد أيوب، دار النشر المتحدة، مصر، (د.ت).

١٠٤- محمد، فارعة حسن: المعلم وإدارة الفصل، القاهرة، سلسلة معالم تربوية، ١٩٩٣م.

١٠٥- محمود، بثينة محمد: فاعلية مجموعة من الأنشطة الوظيفية لتنمية مهارات الحوار لدى تلاميذ المرحلة الإعدادية، جامعة حلوان بالقاهرة، كلية التربية، ١٩٩٩ م.

١٠٦- محمود، علي عبد الحليم: الغزو الصليبي والعالم الإسلامي، دار عكاظ، السعودية، ١٩٨٢م.

١٠٧- محمود، علي عبد الحليم: عالمية الدعوة الإسلامية، دار عكاظ، السعودية، (د.ت).

١٠٨- مدكور، محمد سلام: مناهج الاجتهاد في الإسلام، ط٢، جامعة الكويت، ١٩٧٤م.

١٠٩- مراد، بركات محمد: منهج الجدل والمناظرة في الفكر الإسلامي، القاهرة، الصدر لخدمات الطباعة، ١٩٩٠م.

١١٠- مرحباً، محمد عبد الرحمن، أصالة الفكر العربي، منشورات عويدات، بيروت، رنسا، ١٩٨٢م.

١١١- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

١١٢- المسير، محمد سيد أحمد: الحوار بين الجماعات الإسلامية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٧م.

١١٣- المصري، ابن أبي الإصبع: بديع القرآن، دار النهضة للرسالة، القاهرة ١٩٥٧م.

١١٤- المطعني، عبد العظيم، مبادئ التعايش السلمي في الإسلام، دار الفتح للإعلام العربي، مصر، ١٩٦٦م.

١١٥- المغربي السئموال بن يحيى: إفحام اليهود، تحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ط٢، ١٤٠٧هـ.

١١٦- مكي، أحمد: علم آداب البحث والمناظرة، دار الفكر، القاهرة، (د.ت).

١١٧- المودودي، أبو الأعلى: طائفة من قضايا الأمة الإسلامية في القرن الحاضر، مكتبة الرشد، الرياض،١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

١١٨- الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكة: أسس العقيدة الإسلامية ووسائل، دار العلم، دمشق، بيروت، ١٤٠٠هـ.

١١٩- الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكة: أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، دار العلم، دمشق، بيروت، ١٤٠٠هـ.

١٢٠- ناتانج، أنتوني: العرب تاريخ وحضارة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٠م.

١٢١- النجار، عبد الوهاب: قصص الأنبياء، بيروت، دار إحياء التراث، (د.ت).

١٢٢- نجيب، عمارة: فقه الدعوة والإسلام، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٧م.

١٢٣- الندوة العالمية للشباب، في أصول الحوار، ط٢، المطابع العالمية، الرياض، ١٤٠٨هـ.

١٢٤- النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي: السنن، شرح السيوطي، ط٣، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ.

١٢٥- النشار، علي سامي: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ١، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م.

١٢٦- نقره، التهامي: سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة المتحدة للتوزيع، ١٩٧٤م.

١٢٧-النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف: رياض الصالحين، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ببيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٤م.

١٢٨- هارت، مايكل: الخالدون مائة أعظمهم محمد ﷺ، ت: أنيس منصور، دار الكتاب المصري اللبناني، مصر، ١٤٠٦هـ.

١٢٩ – الهندي، رحمت الله: إظهار الحق تحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر، مصر، ١٤٠٦هـ.

١٣٠ – الوقفي، إبراهيم أحمد: الحوار لغة القرآن والسنة النبوية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٣م.

١٣١- وهبه – توفيق علي – الإسلام أمام افتراءات المفترين – ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

١٣٢- وهبه توفيق علي – الإسلام شريعة الحياة – ط دار اللواء بالرياض (ط٤- ١٣٩٧هـ).

■ ■ ■

قائمة مؤلفات المستشار توفيق على وهبة

ألف وحقق أكثر من مائة وخمسين كتابا في الفكر الإسلامي والأدب ومقارنة الأديان.

ـ نشر بعضها الأزهرالشريف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية والهيئة العامة للكتاب بمصر، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ووزارة المعارف والأمن العام بالمملكة العربية السعودية، وجامعة اسطنبول بتركيا، وعدد من دور النشر في الداخل والخارج.

ـ تُرجمت بعض كتبه وأبحاثه إلى اللغات الإنجليزية، والفارسية، والتركية، والكردستانية.

ـ أسس المركز العربي للدارسات والبحوث ويرأس مجلس إدارته وهو مؤسسة بحثية تضم جماعة من كبار العلماء والمفكرين ويعمل في مجال الفكرالإسلامي والتشريع ورد الشبهات والإعجاز العلمي في القرآن والسنة وتحقيق وتنقية كتب التراث. والتقريب بين المذاهب الاسلامية.

ـ أسس سلسلة دراسات علمية بحثية محكمة تصدر عن المركز باسم (بحوث ودراسات) ويرأس مجلس إدارتها، وتعالج قضايا العصر في ضوء الفكر الإسلامي رأس تحريرها أ. د أحمد السايح رحمه الله، ثم الدكتور جمال رجب سيدبي.

ـ أسس جريدة حول العالم to day – ويرأس مجلس إدارتها.

ـ كما أسس مجلة بحثية محكمة باسم عالم البحوث والدراسات.

ـ له مشروع لتحقيق وتنقية كتب التراث بالاشتراك مع صديقه الأستاذ الدكتور/ أحمد عبدالرحيم السايح الأستاذ بجامعة الأزهر والجامعات العربية رحمه الله، وآخرين.

صدر منها حتى الآن أكثر من مائة وعشرين كتابا، بالإضافة إلى مجموعة أخرى تحت الطبع.

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لإنجازها..

الجوائز:

حصل على عدة جوائز من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في مجال البحث.

ومن جامعة الإمام الصادق بإيران.. وعدة جوائز من مسابقات القرآن الكريم الدولية بإيران.

المؤلفات:

أولا: كتب مطبوعة – مؤلفات:

١- حقوق الإنسان بين الإسلام والنظم العالمية - ط ١ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٣٨٥ هـ.

٢- الحرب في الإسلام والقانون الدولي العام - بواعثها وغاياتها- هدية مجلة الأزهر ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢ م.

٣- الحرب في الإسلام والمجتمع الدولي المعاصر- ط ١- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢ م.

٤- الجهاد في الإسلام – ط١ - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة – ١٩٧٣ م.

٥- الجهاد في الإسلام - دراسة مقارنة بأحكام القانون الدولي العام - (ط٢-٤) دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م، ١٤٠١هـ / ١٩٨١ م.

وطبعة خاصة لوزارة المعارف السعودية.

٦- اليهود والأنبياء - هدية مجلة الأزهر- القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م.

٧- الجريمة والعقوبة في الشريعة والقانون - هدية مجلة الأزهر القاهرة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م.

٨- الإسلام شريعة الحياة - ط ١- الهيئة العامة للكتاب - القاهرة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م ـ (ط ٢-٥) دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م.

٩- دور المرأة في المجتمع الإسلامي - ط ١- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

(ط ٢ـ ٥) دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢ م.

وطبعة خاصة لوزارة المعارف السعودية.

١٠- الإسلام أمام افتراءات المفترين - ط١- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

١١- شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي المعاصر(ط ١ ـ ٢) المطبعة العالمية - القاهرة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م - (ط ٣ـ ٥) دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض - ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

وطبعة خاصة لوزارة المعارف السعودية.

١٢- الجرائم والعقوبات في الشريعة الإسلامية - دراسة مقارنة (ط ١ـ٢) شركة مكتبات عكاظ - جدة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م.

وطبعة خاصة لوزارة المعارف السعودية.

١٣- محاضرات في إدارة دور الإصلاح والتهذيب - المؤسسات العقابية - (مقرر دراسي) عدة طبعات مطابع الأمن العام - الرياض ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

١٤- من وحى الإسلام - ط١- المطبعة العالمية - القاهرة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

١٥- التدابير الزجرية والوقائية في التشريع الإسلامي - ط ١- دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

١٦- الإسلام في مواجهة أعدائه - ط ١ - دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٧- الشعر الشعبي - شعر أم زجل - ط١- الرياض ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١٨- محاضرات في حماية الآداب العامة - (مقرر دراسي) ـ ٩ طبعات ـ مطابع الأمن العام - الرياض (بدون تاريخ).

١٩- الدعاء المختار من الكتاب والسنة - المركز العربي للدراسات والبحوث القاهرة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

٢٠- الحج والعمرة في الكتاب والسنة - المركز العربي للدراسات والبحوث القاهرة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

٢١ـ المرأة في الإسلام - قضايا نسائية معاصرة وموقف الإسلام منها - القاهرة يوليو ٢٠٠٦م.

٢٢ـ التأمين بين الشريعة والقانون.

٢٣ـ جريمة القذف بين الشريعة الإسلامية وقانون العقوبات المصري.

٢٤ـ الشيوعية وموقفها المعادي للإسلام.

٢٥ـ حكم الشهيد في الإسلام.

٢٦ـ المعاهدات في الشريعة الإسلامية.

٢٧ـ زيارة الي إيران من أجل الوحدة والتقريب بين المذاهب الاسلامية.

٢٨ـ السلوك الصوفي - بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد السايح.

٢٩ـ محمد رسول الله ﷺ (إنا كفيناك المستهزئين) بالاشتراك مع أ.د أحمد السايح، والأستاذ عبداللطيف علي وهبة.

٣٠ـ تعدد الزوجات من أمهات اليتامى - بالاشتراك مع د. أحمد السايح.

٣١ـ تحريف القرآن اسطورة أم واقع - تحقيق بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد السايح.

٣٢ـ الوحدة الاسلامية سبيل نهضة الأمة - تأليف أ.د محمد حسن تبرائيان - أ.د أحمد السايح - المستشار توفيق علي وهبة.

٣٣ـ التعصب المذهبي وأثره السيىء في الأمة.

٣٤- السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها بطلة الصمود في كربلاء.

٣٥- السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ريحانة بيت رسول الله.

٣٦- مقاصد الشريعة الاسلامية.

٣٧- الامام التسخيري والصحوة الاسلامية.

٣٨- معالم وآفاق في قصص سورة الكهف. بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد السايح رحمه الله.

٣٩- بحوث ودراسات. بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور أحمد السايح رحمه الله.

ثانيا: كتب وبحوث مترجمة:

١- كتب وبحوث مترجمة إلى اللغة الانجليزية:

١- دور المرأة في المجتمع الإسلامي. ترجمة دار وثيقة للترجمة والنشر بالرياض - المملكة العربية السعودية.

٢- الشيوعية وموقفها المعادي للإسلام.

٣- حكم الشهيد في الإسلام.

٤- المعاهدات في الشريعة الإسلامية.

٥- ملخص كتاب قضايا نسائية معاصرة.

٦- ملخص كتاب زيارة الي ايران من أجل الوحدة والتقريب بين المذاهب.

٢- أبحاث مترجمة إلى اللغة التركية:

١- التأمين بين الشريعة والقانون.

ترجمة الأستاذ الدكتور ثروت أرمغان.

٢- جريمة القذف بين الشريعة الإسلامية وقانون العقوبات المصري. ترجمة د / ثروت أرمغان.

٣- الحرب في الإسلام. ترجمة الأستاذ الدكتور / ثروت أرمغان.

ونشرت هذه الترجمات جامعة استانبول بتركيا.

٣- أبحاث مترجمة إلي الفارسية:.

١- موانع التقريب وسبل مواجهتها.

٢- تجسيد الوحدة الاسلامية علي الواقع.

٣- زيارة إلى إيران من أجل الوحدة والتقريب بين المذاهب الاسلامية.

٤- التعصب المذهبي وأثره في التفرقة بين المذاهب الاسلامية.

٥- الامام التسخيري والصحوة الاسلامية.

٦- مقاصد الشريعة الاسلامية.

٧- خطة لتطبيق حقوق الانسان في المجتمع المعاصر.

٨- الوحدة الاسلامية سبيل نهضة الأمة.

بالاضافة إلى أبحاث أخرى متعددة.

٤- أبحاث ترجمت الي الكردستانية:

١- قضايا نسائسة معاصرة وموقف الاسلام منها.

ثالثا: المكتبة السمعية:

١- الإسلام أمام افتراءات المفترين.

٢- شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي المعاصر.

٣- الدعاء المختار من الكتاب والسنة.

٤ - الحج من الكتاب والسنة.

طبع المكتب الإقليمي للشرق الأوسط لشئون المكفوفين - بالرياض، ومؤسسة الإعلام العربي بالرياض، وجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض.

رابعا: كتب محققه:

١- تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس للإمام ابن عطاء الله السكندري، طبع دار الصوفية.

٢- جارى تحقيق عدد من الكتب منها المطالب العالية للإمام الرازي.

٣- والرسالة القشيرية للإمام القشيري بتعقيب شيخ الإسلام ابن تيمية.

خامسا: مشروع تحقيق وتنقية كتب التراث:

له مشروع لتحقيق وتنقية كتب التراث بالاشتراك مع صديقه الأستاذ الدكتور أحمد السايح أستاذ العقيدة الاسلامية بالأزهر والجامعات العربية وآخرين من كبار العلماء والمتخصصين. ويقوم هذا المشروع علي الأسس التالية:

أولا: ماوافق الكتاب والسنة أخذنا به وخرجنا آياته وأحاديثه.

ثانيا: ماخالف الكتاب والسنة أو أصلٍ من أصول الاسلام صرفنا النظر عنه واستبعدناه وبينا مخالفاته.

ثالثا: ماكان مختلفا فيه من موضوعات الفقه أو الفكر ولايمس أصلا من أصول الاسلام بينا الراجح منه مع بيان الدليل.

ولقد تم تحقيق الكتب الآتي بيانها ، وجاري تحقيق كتب أخرى نسأل الله سبحانه وتعالي أن يوفقنا على إتمامها:

١- العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تأليف محمد ابراهيم التنير - ط مكتبة النافذة.

٢- اسم الله الأعظم - المسمي (القصد المجرد في الإسم المفرد) لابن عطاء الله السكندري - طبع مكتبة النافذة.

٣- فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة - للامام الغزالي -بالاشتراك مع الأستاذ عبداللطيف علي وهبة، طبع المركز العربي للدراسات والبحوث.

٤- فتوح الغيب - للإمام عبد القادر الجيلاني - بشرح شيخ الإسلام ابن تيمية - طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٥- التصوف لشيخ الإسلام ابن تيمية - تحت الطبع - ط مكتبة الثقافة الدينية.

٦- المقامات والأحوال (المسماة التحفة العراقية) - لشيخ الإسلام ابن تيمية - ط مكتبة الثقافة الدينية.

٧- تنبيه المغترين - للإمام عبد الوهاب الشعراني، ط مكتبة الثقافة الدينية.

٨- الطبقات الكبرى ٢ مجلد - للإمام عبد الوهاب الشعراني وهي أول طبعة صحيحة بعد تنقيتها مما دس فيها من خرافات وشبهات، ط. مكتبة الثقافة الدينية.

٩- الطبقات الصغرى - للإمام الشعراني، ط مكتبة الثقافة الدينية.

١٠- مختارات من تراث الصوفية في الرد على المخالفين - لجماعة من العلماء، ط مكتبة الثقافة الدينية.

١١- ختم الأولياء - للحكيم الترمذي - ط مكتبة الثقافة الدينية.

١٢- لطائف الاعلام في اشارات أهل الإلهام - للقشاني ٢ مجلد شارك في تحقيق هذا الكتاب أ.د عامر النجار - ط مكتبة الثقافة الدينية.

١٣- الفتح الرباني والفيض الرحماني - للإمام عبد القادر الجيلاني - بتعقيبات شيخ الإسلام ابن تيمية - ط مكتبة الثقافة الدينية.

١٤- أجوبة ابن عربي على أسئلة الحكيم - ط. مكتبة الثقافة الدينية.

١٥- التجليات الإلهية - للإمام ابن عربي مع شرحها - ط. مكتيبة الثقافة الدينية.

١٦- قواعد التصوف - لابن زورق - ط مكتبة الثقافة الدينية.

١٧- عوارف المعارف - ٢ مجلد - للسهروردي - ط مكتبة الثقافة الدينية.

١٨- تحفة الأ كياس في حسن الظن بالناس - علي بن محمد المصري - ط مكتبة الثقافة الدينية.

١٩- كتاب العلم، لإبراهيم باناس - تحت الطبع.

٢٠- شرح مشكل الحديث - لابن فورك - ط ١ مركز الكتاب.

٢١- شرح رسالة العالم والمتعلم، للإمام أبي حنيفة - شرح ابن فورك. مكتبة الثقافة الدينية.

٢٢- الأربعين في أصول الدين - للإمام الرازي.

٢٣- أجوبة القرآن علي المشككين المسمى (غرائب آي التنزيل) للرازي.

٢٤- اسم الله الأعظم، لجماعة من أئمة السلف.(السيوطي - الغزالي - ابن عربي) شارك في تحقيقه الأستاذ عبداللطيف علي وهبة - طبع المركز العربي للدراسات والبحوث.

٢٥- مناقب الإمام السيد أحمد البدوي، المسمى بالجواهر السنية والكرامات الأحمدية، لعبد الصمد، ط مكتبة الثقافة الدينية.

٢٦- إنجيل برنابا - ط مكتبة النافذة.

٢٧- تنزيه القرآن عن المطاعين - للقاضي عبد الجبار - ط مكتبة النافذة.

٢٨- أدلة الوحدانية في الرد على النصرانية - للإمام القرافي - ط مكتبة النافذة.

٢٩- منارات السائرين - للسهروردي. مكتبة الثقافة الدينية.

٣٠- التوهم - للحارث المحاسبي -مكتبة الثقافة الدينية.

٣١- رسالة في معنى لا إله إلا الله - للزركشي - دار الخلود للتراث.

٣٢- مناقب الإسلام - لأبي عامر الحسيني - دارالخلود للتراث.

٣٣- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة - للإمام القرافي - ط مكتبة النافذة.

٣٤- ابانة القاصدين - تأليف ابن فورك.

٣٥- الأمد الأقصى - للدبوسي.

٣٦- دفع شبهة التشبيه - لابن خوري.

٣٧- دفع شبهة من شبه وتمرد - للإمام الحصني.

٣٨- آراء الصاوي العقيدية - تأليف أسماء محمد توفيق / ط مكتبة النافذة تقديم ومراجعة د أحمدالسايح والمستشار توفيق علي وهبة.

٣٩- عقيدة التثليث وجذورها - تأليف فوزية أحمد الحتيرشي - تحت الطبع. تقديم ومراجعة.

٤٠- دفع شبهات الملحدين - المسمى بالقواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية - للإمام الشعراني.

٤١- مقدمات المراشد إلى علم العقائد- لابن خمير السبتي، ط مكتبة الثقافة الدينية.

٤٢ ـ مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح - في ذكر الله - لتاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري- طبع دار الآفاق.

٤٣ ـ التعظيم والمنة في أن أبوي الرسول صلي الله عليه وسلم في الجنة - للإمام السيوطي ـ بالاشتراك مع الأستاذ عبداللطيف علي وهبة.

٤٤ ـ السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين - للإمام محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري، لازال تحت الدراسة والتحقيق بمشاركة الأستاذ عبداللطيف علي وهبة.

٤٥ ـ تثبيت دلائل النبوة - لقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني.طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٤٦ ـ كشف المحجوب للهجويري.- طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٤٧ ـ تحريف القرآن أسطورة أم واقع - آية الله السيد حسن طاهري الخرم آبادي.- طبع المركز العربي للدراسات والبحوث.

٤٨ ـ مشكل الحديث وبيانه - لابن فورك - طبع مركز الكتاب.

٤٩ ـ ضوابط المعرفة المسماه شرح الهداية الأثرية. - صدر الدين الشيرازي طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٥٠ ـ سر الأسرار ومظهر الأنوار (رسالة في التصوف) عبدالقادر الجيلاني، ط مكتبة الثقافة الدينية.

٥١ ـ تواريخ الحكماء والفلاسفة – شمس الدين الشهرزوري – طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٥٢ ـ أخبار الأولياء المسمى (رسالة صفي الدين بن ظافر) – ط مكتبة الثقافة الدينية.

٥٣ ـ غاية المرام في علم الكلام – ط مكتبة الثقافة الدينية.

٥٤ ـ هياكل النور – للشهرزوري – طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٥٥ ـ الإعلام بمناقب الإسلام - لأبي حسن بن يوسف العامري.- طبع دار الخلود.

٥٦ ـ زوايا التصوف والصوفية المسمي(خبايا الزوايا) – محمد حسن الصوفي المعروف بابن العجيمي المكي - مكتبة الثقافة الدينية.

٥٧ ـ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الإمام فخر الدين الرازي.- طبع دار الخلود.

٥٨ـ الإلهيات - لابن سينا ـ طبع دار الخلود.

٥٩- سعادة الدارين في الرد علي الفرقتين الوهابية ومقلدي الظاهرية- ابراهيم السمنودي - طبع دار الخلود.

٦٠ - التعرف لمذاهب أهل التصوف الكلاباذي.- طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٦١- اللمع، السراج الطوسي.- طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٦٢- الجفر – المنسوب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه – لابن طلحة- ط مكتبة النافذة.

٦٣- الطرق الصوفية، للخالدي النقشبندي – طبع مكتبة النافذة.

٦٤- كرامات الأولياء، للخالدي النقشبندي – طبع مكتبة النافذة.

٦٥- الأمثال في القرآن – للحكيم الترمذي- تحت التحقيق.

٦٦- مذكرات الأمير عبد القادر - الأمير عبد القادر الجزائري – مكتبة النافذة.

٦٩- تاريخ نجد ـ محمود شكري الألوسي – مكتبة النافذة.

٧٠- طبقات المعتزلة ـ الإمام المهدي أحمد بن يحي المهتدي – مكتبة النافذة

٧١- حكومة عمر بن الخطاب - الشيخ شبلي النعماني. مكتبة النافذة

٧٢- بحر الكلام في العقائد والأحكام، لأبي معين النسفي.- بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبده عوض – دار الخلود للتراث.

٧٣ – الابانة عن طريق القاصدين، ابن فورك.

٧٤- من غرائب آي التنزيل، الإمام الرازي. دار الخلود للتراث.

٧٥- أسرار التنزيل وأنوار التأويل، الإمام الرازي. دار الخلود للتراث.

٧٦- درء القول القبيح بالتحسين والتقبيح - نجم الدين الطوفي – دار الخلود.

٧٧- القواعد الكشفية المثبتة للصفات الإلهية، الإمام عبد الوهاب الشعراني.

٧٨- منازل السائرين - الإمام الهروي – مكتبة الثقافة الدينية.

٧٩- الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر - للجيلاني – بالاشتراك مع الدكتور عامر النجار – دار الخلود للتراث.

٨٠- لطائف الأسرار - لابن عربي - طبع دار الخلود للتراث.

٨١- غاية المرام في علم الكلام - سيف الدين الآمدي - طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٨٢- الإشارات - الإمام الجويني - طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٨٣- متشابه القرآن - القاضي عبد الجبار - طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٨٤- التعظيم والمنة في أن أبوي الرسول في الجنة - الإمام جلال الدين السيوطي، بالاشتراك مع الأستاذ عبداللطيف علي وهبة - طبع المركز العربي للدراسات والبحوث.

٨٥- زبد خلاصة التصوف - العز بن عبد السلام - ط مكتبة الثقافة الدينية.

٨٦- لباب الإرشاد - الإمام الرازي.

٨٧- الكواكب الزاهرة في إجتماع الأولياء يقظة بسيد الدنيا والآخرة - لابن مغيزل الشاذلي.- طبع مكتبة الثقافة الدينية.

٨٨- رسائل ابن سينا الفلسفية - ابن سينا - دار خلود للتراث.

٨٩- إجماع الأئمة الأربعة واختلافاتهم رضي الله عنهم - الوزير بن هبيرة

٩٠- كتاب في الإجماع بين الأئمة رحمهم الله - أبو الحسن نجم الدين بن عقيم.

٩١- مثير الغرام في رحلة ابراهيم عليه السلام - اسحاق بن ابراهيم التدمري.

٩٢- خبرة الفقهاء - أشرف الدين الفرغاني الحنفي.

٩٣- قانون البلاغة في نقد النثر والشعر- لأبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي - بالاشتراك مع الأستاذ عبد اللطيف علي وهبة.

٩٤- اصطلاحات الفقهاء، المسمى (أنيس الفقهاء) - قاسم القونوي.

٩٥- فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة - الإمام الغزالي، بالاشتراك مع الأستاذ عبداللطيف علي وهبة – نشر المركز العربي للدراسات والبحوث.

٩٦- تفضيل الكلاب علي كثير ممن لبس الثياب - الإمام ابن المرزبان، بمشاركة الأستاذ عبداللطيف علي وهبة – نشر المركز العربي للدراسات والبحوث.

٩٧- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح (في ذكر الله) ابن عطاء الله السكندري – دار الآفاق العربية.

٩٨- الفرائد والقلائد - الثعالبي.

٩٩- جلاء القلوب من الأصداء الغينية – بيان احاطته عليه السلام بالعلوم الكونية - محمد بن جعفر الكتاني – بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور الوزير حسن عباس زكي.

١٠٠- السر الحقي الامتناني - محمد بن جعفر الكتاني – بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور الوزير حسن عباس زكي.

١٠١- الفصول المهمة في معرفة الأئمة - ابن الصباغ.

١٠٢- تبصرة الغافل وتذكرة العاقل ـ محمد الطيب بن مسعود المريني – ط مكتبة الثقافة الدينية.

١٠٣- مختصر أحكام البسملة - الفخر الرازي.

١٠٤- الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة – للإمام البقاعي.

١٠٥- المسيخ الدجال - وأسرار الساعة – للإمام الاسفراييني.

١٠٦- الرفع والتكميل في الجرح والتعديل – محمد بن عبد الحي اللكنوي الهندي.

١٠٧- الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى – أبو بكر بن العربي المالكي – بالاشتراك مع الأستاذ عبداللطيف علي وهبة.

١٠٨- النبوات – لشيخ الاسلام ابن تيمية، بالاشتراك مع الدكتور أشرف عبدالرافع الدرفيلي.

١٠٩- القسم في القرآن الكريم – المسمي التبيان في أقسام القرآن – لابن القيم، بالاشتراك مع الدكتور أشرف عبدالرافع الدرفيلي.

١١٠- اليواقيت والجواهر في بيان عقيدة الأكابر – للإمام عبدالوهاب الشعراني، بالاشتراك مع الدكتور أشرف عبد الرافع الدرفيلي.

١١١- الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه – لابن مكي.

١١٢- غياث الأمم في التياث الظلم – للإمام الجويني.

١١٣- الشامل في أصول الدين – لإمام الحرمين الجويني.

١١٤- المحقق من علم الأصول.

١١٥- الباعث علي انكار البدع والحوادث، لأبي شامة.

١١٦- علم أصول الفقه – للبغدادي.

١١٧- الفروق ومنع الترادف – للحكيم الترمذي.

سادسا: بحوث ودراسات أخرى:

له أكثر من ثلاثمائة بحث شارك بها في الندوات والمؤتمرات الدولية والمحلية. بالاضافة إلى مقالاته المنشورة في أكثر من عشرين صحيفة ومجلة في مصر والبلاد العربية والإسلامية.

له أكثر من ١٥٠ عنوان مابين كتاب و بحث ومقال منشورة علي موقع askzad أسك زاد علي شبكة المعلومات الدولية.

مؤلفات دكتور/ أحمد عبد الرحيم السايح

بسم الله الرحمن الرحيم

العالم الإسلامي يفقد عالماً جليلاً

وفاة فضيلة الدكتور / أحمد السايح إلى رحمة الله

إختار الله سبحانه وتعالى إلى جواره الكريم فضيلة العالم الجليل والمفكر النابه الأستاذ الدكتور أحمد عبدالرحيم السايح أستاذ العقيدة والفلسفة في جامعات الأزهر وقطر وأم القرى وذلك يوم الخميس ليلة الجمعة المباركة ٧/ ٧/ ٢٠١١.

والفقيد رحمه الله كان من المجاهدين فى سبيل نشر الفكر الإسلامى الوسطى والمعتدل دون تعصب لفكر معين أو لمذهب من المذاهب أو لفرقة معينة، وإنما كان انتماؤه إلى ما يعتقد أنه صحيح الإسلام.

لقد زاملته أكثر من أربعين عاماً فكان نعم الأخ والصديق والمرشد الذى لا يبخل بعلمه على أحد. يستفتيه الناس ليلاً ونهاراً فلا يمل ولا يكل، فيفتيهم بما يفتح الله به عليه، وإذا سئل عما لا يعلم لخروجه عن اختصاصه فلا يجد غضاضة فى أن يقول للسائل لا أعلم وأسألوا فلاناً عن هذه المسألة أو هذا الموضوع فإنه من المتخصصين فى ذلك.

كان هيناً ليناً متواضعاً مجاملاً لأبعد الحدود، فكان موضع حب الناس واحترامهم.

له من المؤلفات ما يربو على الثمانين مؤلفاً، عدا الأبحاث والمقالات الكثيرة المنشورة فى الصحف والمجلات أو التى شارك بها فى مؤتمرات دولية ومحلية.

كما حقق أكثر من مائة وعشرين كتاب بالاشتراك مع كاتب هذه السطور في شتى نواحي المعرفة، من فقه وحديث أصول ومقارنة أديان ودفع الشبهات، والفلسفة، وعلم الكلام والتصوف والفرق والمذاهب وغيرها.

وكان لنا مشروع مشترك لتنقية وتحقيق كتب التراث يقوم على ثلاث دعائم هي:

١- ما وافق الكتاب والسنة فعلى الرأس والعين.

٢- ما خالفهما أهملناه واستبعدناه وبينا أسباب ذلك.

٣- ما كان من مسائل الفقه أو الخلاف بينا الرأى الراجح فيه.

ولدينا عدد آخر من الكتب تم تحقيقها وفي انتظار النشر إن شاء الله تعالى.

كان رحمه الله من كبار المدافعين عن التقريب بين المذاهب الإسلامية وعضواً هاماً وبارزاً في المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، والعديد من المجامع العلمية والدولية.

عملنا معاً في المركز العربي للدراسات والبحوث الذي أشرف برئاسته حيث كان أميناً عاماً له، وكان رئيساً لتحرير مجلتين أكاديميتين محكمتين يصدرهما المركز هما:

١- مجلة عالم البحوث والدراسات العلمية أكاديمية المحكمة.

٢- سلسلة بحوث ودراسات أكاديمية المحكمة أيضاً.

بجانب بعض الكتاب والدراسات التي تتعلق بالتقريب بين المذاهب الإسلامية التي ألفناها أو حققناها وصدرت ضمن مشروعات المركز منها:

* تحريف القرآن أسطورة أم واقع.

* الوحدة الإسلامية سبيل نهضة الأمة، وشارك معنا فى تأليفه الأستاذ الدكتور محمد حسن تبرانيان أميسن عام مساعد المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

بالإضافة إلى عدد من البحوث والدراسات حول التقريب بين المذاهب الإسلامية التى نشرت ضمن مطبوعات المركز.

كما كان رحمه الله نائباً لرئيس مجلس إدارة جريدة البرلمانى العربى، ومستشاراً لمجلس إدارة جريدة النور، ومستشاراً عاماً لجريدة حول العالم (تو دى).

لقد صاحبته رحمه الله فى العديد من المؤتمرات والندوات فى الداخل والخارج، وكان مدعوا للمؤتمر ٢٨ لمسابقة القرآن الكريم الدولية التى انعقدت فى طهران أثناء مرضه الذى يمهله كثيراً.

وكانت آخر سفرياتنا سوياً ضمن الوفد الشعبى المصرى الذى سافر إلى إيران للعمل على تحسين العلاقة بين الشعبين الشقيقين وإعادة العلاقات بين الدولتين الإسلاميتين، ندعو الله سبحانه وتعالى أن يحقق هذه الأهداف النبيلة لخدمة الشعبين الشقيقين، وخدمة الإسلام والمسلمين.

هذا غيض من فيض عن أخى صديقى وحبيبى فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد السايح رحمه الله رحمة واسعة وأفسح له مقاماً مباركاً فى جنات النعيم.والمركز العربى للدراسات والبحوث ينعى إلى العالم الإسلامى هذا العالم الجليل جزاه الله خيراً عما قدم للإسلام والمسلمين.

أدعو المولى سبحانه وتعالى أن يجعله من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، إنه ولى ذلك والقادر عليه. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المستشار/ توفيق على وهبه

رئيس المركز العربى للدراسات والبحوث

* نشرت فى جريدة المصرى اليوم، ومدونتنا وعدد من المواقع الالكترونية وصفحات الفيس بوك.

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته مع نبينا وسيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين عليهم سلام من الله ورحمته وبركاته.

مؤلفات الأستاذ الدكتور أحمدالسايح

أولاً: المطبوع: تأليفاً:

١- من وحى السماء- ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة- ١٩٧٣.

٢- الهجرة انطلاقة وبناء- ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة ١٩٧٨م.

٣- فلسفة الحضارة الإسلامية- ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- القاهرة ١٩٨٩م.

٤- الفضيلة والفضائل- ط مجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر ١٩٨٤م.

٥- مستقبل الحضارة الإسلامية- ط مجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر ١٤٠٥هـ.

٦- أحكام العصاة لأئمة السلف- ط مجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر ١٤٠٨هـ.

٧- السيرة النبوية من روايات الإمام الطبرى- مجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر ١٩٨٨م فى أربع أجزاء.

٨- أضواء على الحضارة الإسلامية- ط دار اللواء- الرياض- السعودية- ١٤٠٠هـ.

٩- عباس محمود العقاد وفلسفته الإسلامية- ط دار اللواء- الرياض- السعودية ١٩٨٩م.

١٠- معارك حاسمة فى حياة المسلمين- ط دار اللواء- الرياض- السعودية ١٩٨٩م.

١١- هذا هو الإسلام- ط دار الثقافة- الدوحة ١٩٩٠م قطر.

١٢- بحوث فى مقارنة الأديان- ط دار الثقافة- الدوحة قطر ١٩٩٢م.

١٣- فى الغزو الفكرى، سلسلة كتاب الأمة- ط قطر ١٩٩٣م.

١٤- المعرفة فى الإسلام بين الأصالة والمعاصرة- ط دار الطباعة المحمدية فى القاهرة ١٤٠٠هـ.

١٥- التيارات الفكرية والحركات المعاصرة- دار الطباعة المحمدية فى القاهرة ١٩٩١م.

١٦- السلوك عند الحكيم الترمذى ومصادره فى السنة النبوية- ط دار السلام فى القاهرة ١٩٨٦م.

١٧- الإمام النورسى ودوره فى ترسيخ الإيمان- ط مركز الكتاب للنشر فى القاهرة ١٩٩٥م.

١٨- علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة- ط دار الطباعة المحمدية ١٩٩١م.

١٩- من آيات الله – ط مركز الكتاب للنشر فى القاهرة ١٩٩٦م.

٢٠- المنهج الإسلامى فى تغير المنكر- ط مركز الكتاب للنشر فى القاهرة سنة ١٩٩٧.

٢١- العقاد وقضايا العصر- ط المكتب الثقافى فى القاهرة ١٩٨٧.

٢٢- قضايا فكرية – ط مركز الكتاب للنشر فى القاهرة ١٩٩٠م.

٢٣- ظهور الإسلام وحاجة الإنسانية إليه- ط الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٢م.

٢٤- الاستشراق فى ميزان الفكر الإسلامى- ط الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٥م.

٢٥- أضواء حول الثقافة الإسلامية – ط الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٤م.

٢٦- معالم الوحدة الإسلامية بالاشتراك مع الدكتور عمر يوسف حمزة- ط الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٥م.

٢٧- المرأة المسلمة وقضايا العصر بالاشتراك مع الدكتور صبرى عبدالرؤوف – ط دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢م.

٢٨- الغنوصية فى ميزان الفكر الإسلامى – ط دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٩٩٣م.

٢٩- فى فكر الإمام النورسى- ط مركز الكتاب للنشر- القاهرة ١٩٩٨م.

٣٠- شهر رمضان – ط دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٩٨٤م.

٣١- من أعلام الفكر الإسلامى: الحكيم الترمذى- ط مركز الكتاب للنشر- القاهرة- ١٩٩٥.

٣٢- العالم الإسلامى بين مصادر القوة وعوامل الضعف، فى جزئين- ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٠م.

٣٣- قضايا بيئية من منظور إسلامى بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبده عوض، ط دار الندى،القاهرة ١٩٩٩م.

٣٤- معالم قرآنية. ط دار الندى القاهرة ٢٠٠٠م.

٣٥- معالم العلاقات الإنسانية- ط رابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة.

٣٦- فضائل شهر رمضان بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبده عوض- ط مركز الكتاب للنشر ٢٠٠٣م.

٣٧- الغزو الفكرى فى التصور الإسلام ط مجمع البحوث بالأزهر.

٣٨- الغزو الفكرى وكيفية مواجهته. ط الندوة العالمية للشباب- الرياض.

ثانياً: المطبوع (تحقيقاً):

١- منازل العباد من العبادة للحكيم الترمذى- ط المكتب الثقافى- القاهرة ١٩٨٦م.

٢- رسالة فى رعاية المصلحة. للطوفى- ط الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٧م.

٣- أخلاق العلماء- للآجرى- ط الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٨م.

٤- كيفية السلوك إلى رب العالمين. للحكيم الترمذى- ط الدار المصرية اللبنانية ١٩٨٩م.

٥- الفرق بين القلب والفؤاد واللب والصدر، للحكيم الترمذى- ط مركز الكتاب للنشر ١٩٩٠.

٦- الأمثال فى الكتاب والسنة- للحكيم الترمذى مركز الكتاب للنشر ١٩٩٨م.

ثالثاً: المطبوع تحقيقاً بالاشتراك مع الآخرين:

١- فتاوى النساء- لشيخ الإسلام ابن تيمية- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى- ط دار الريان للتراث الإسلامى فى القاهرة ١٩٨٧م.

٢- نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول مجلدين تحقيق بالاشتراك مع الدكتور الجميلى- ط دار الريان للتراث الإسلامى فى القاهرة سنة ١٩٨٦م.

٣- الأكياس والمغتربين- للحكيم الترمذى- تحقيق - بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى- ط المكتب الثقافى فى القاهرة ١٩٨٨م.

٤- القضاء والقدر لشيخ الإسلام ابن تيمية- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى- ط دار الفكر العربى بيروت ١٩٩٠م.

٥- أمة الإسلام- للسيوطى تحقيق بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى- ط دار المشرق فى القاهرة ١٩٩١م.

٦- سفر السعادة للفيروز أبادى (تحقيق) بالاشتراك مع الدكتور عمر يوسف حمزة- ط مركز الكتاب للنشر فى القاهرة ١٩٩٧م.

٧- قواطع الإسلام للآجرى- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى والأستاذ بركة سليمان- باحثة بجامعة قطر- ط مركز الكتاب للنشر - القاهرة ١٤١٥هـ.

٨- كتاب تجريد التوحيد. للمقريزى تحقيق بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى- ط مركز الكتاب للنشر- القاهرة ١٩٩٧م.

٩- نحل عبر النحل- للمقريزى تحقيق بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى- ط مركز الكتاب للنشر- القاهرة ١٩٩٧.

١٠- فتح الرحمن للشيخ الأنصارى بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى- ط مركز الكتاب للنشر- القاهرة ١٩٩٨.

١١- معالم أصول الدين للإمام الرازى بالاشتراك مع الدكتور سامى حجازى ط مركز الكتاب للنشر القاهرة ١٩٩٩م.

١٢- أسباب اختلاف الفقهاء للدهلوى بالاشتراك مع الدكتور سامى حجازى والدكتور السيد الجميلى ط مركز الكتاب للنشر- القاهرة ١٩٩٩م.

١٣- المنهيات وكل حديث جاء بالنهى، تحقيق بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلى ط مركز الكتاب للنشر القاهرة ١٩٩٩.

١٤- الرياضة للحكيم الترمذى- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبده عوض ط دار الثقافة الدينية- القاهرة ٢٠٠١م.

١٥- غور الأمور: للحكيم الترمذى. تحقيق بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبده، ط دار الثقافة الدينية- القاهرة ٢٠٠١م.

١٦- الدرة الفاخرة للإمام عبدالرحمن الجامى- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور أحمد عبده عوض- ط دار الثقافة الدينية- ٢٠٠١م القاهرة.

رابعاً: تحت الطبع تأليفاً وتحقيقاً:

١- معالم إسلامية. مركز الكتاب للنشر. القاهرة.

٢- الإعلام بمناقب الإسلام. لأبى الحسن العامرى.

٣- بحر الكلام لأبى معين النسفى- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور سامى حجازى.

٤- شرح الصلاة للحكيم الترمذى- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور السيد الجميلي.

٥- شرح العقائد النسفية للشيخ عصام- تحقيق.

٦- الإشارة إلى المذهب الحق للفيروز أبادى- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور أحمد عوض.

٧- القلائد- للثعالبي- تحقيق بالاشتراك مع الدكتور أحمد عوض.

٨- معالم مضيئة فى القرآن الكريم.

٩- قضايا فى فكر الإمام بديع الزمان سعيد النورسي.

١٠- الحكيم الترمذى ونظريته فى السلوك.

١١- الإيضاح فى أصول الدين لابن الزاغونى- تحقيق أربع مجلدات. بالاشتراك مع الدكتور إحسان مرزا.

١٢- قضايا فكرية.

١٣- حوارات قرآنية.

خامساً: بحوث ودراسات (مطبوعة) :

١- فلسفة البراجماتزم- ط مجلة الدعوة الحق أوقاف المغرب ١٩٦٨م.

٢- الفلسفة والفيلسوف- ط مجلة الباحث بيروت ١٩٨٢م.

٣- العبقرية والعبقريات- ط مجلة الدارة. السعودية ١٩٨٣.

٤- العلاقة بين الاستشراق والتبشير -ط حولية كلية أصول الدين والدعوة منوفية ١٩٨٨.

٥- خصائص اللغة العربية- ط مجلة اللسان العربي. المغرب ١٩٦٨م.

٦- الاستشراق ومنهج نقده- ط حولية كلية الشريعة جامعة قطر ١٩٩٣.

٧- الحوار الحضارى ضرور إنسانية – ط مجلة الدارة . السعودية ١٩٩٤م.

٨- أضواء حول نشأة اللغة الإنسانية. ط مجلة الدارة. السعودية ١٩٨٠م.

٩- الدلالة المعنوية.ط مجلة الدارة. السعودية ١٩٧٩م.

١٠- العلاقة بين اللغة والمنطق عند الفارابى- ط مجلة الباحث. بيروت ١٩٨١م.

١١- آفاق التعليم فى الإسلام. ط مجلة الجامعة الإسلامية. لندن ١٩٩٤م.

١٢- التقريب بين المذاهب الإسلامية- ط. دار الثقافة. دمشق. ١٩٩٥م.

سادساً: بحوث ودراسات:

١- ضرورة التفاهم بين الأديان- دراسة قدمت لمؤتمر إسلامى فى أمريكا ١٩٩٨م.

٢- الحوار القرآنى فى ضوء رسائل النور- دراسة قدمت لمؤتمر عن النورسي فى اسطنبول ١٩٩٨م.

٣- شباب الأمة ومواجهة شعارات الغرب وتياراته- دراسة قدمت للمؤتمر العالمى الثامن للندوة العالمية للشباب الإسلامى فى الرياض ١٩٩٨م.

٤- الحضارة الإسلامية والانفتاح على حضارات الآخرين- دراسة قدمت للمؤتمر العاشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى القاهرة ١٩٩٨م.

٥- دور المسجد فى الدعوة الإسلامية- قدم إلى مؤتمر الدعوة فى الأزهر. ط مجمع البحوث رقم٧.

٦- الدعوة الإسلامية فى قطر- بحث قدم إلى مؤتمر الدعوة فى الهند. نشر فى جريدة الشروق ١٩٩٤م.

٧- لقاءات الحضارات- دراسة قدمت للمؤتمر الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى القاهرة ١٩٩٦م.

٨- الغزو الفكرى فى التصور الإسلامى- دراسة قدمت إلى المؤتمر الإسلامى مجمع الفقه فى جدة ١٩٩٢م.

٩- نظرات فى مواقف السيوطى الكلامية- دراسة قدمت إلى مؤتمر مرور خمسة قرون على وفاة السيوطى. ط مؤسسة (سيسكو) بالمغرب ١٩٩٢م.

١٠- الإنسان فى فكر النورسي لمؤتمر الإمام النورسي فى تركيا.

١١- حول حوار الإسلام لحضارات الأمم.

١٢- المسلمون والعلاقات الإنسانية.

١٣- فلسفة الأخلاق فى فكر النورسي.

١٤- الثقافة الإسلامية والانفتاح.

سابعاً: هذا بالإضافة إلى ما تم تحقيقه بالاشتراك مع المستشار على وهبة وهو ما يزيد عن المائة وعشرين كتاباً

الفهرس

■ ■ ■

رقم الإيداع: ٢٠١٤/٨٧٦٠
الناشر: المركز العربي للدراسات والبحوث